بين الدين والعلم

تاريخ الصراع بينهما في القرون الوسطى ازاء علوم الفلك والجغرافيا والنشوء

تأليف العلامة

اندرو ديكسون وايت

وترجمه الى العربية وعلق حواشيه

بقلم

اسماعيل مظهر

عضو المجمع المصرى للثقافة العلمية

وصاحب مجلتى العصور الشهرية و الأسبوعية ومحررهما

١٩٢٩

دار العصور للطبع والنشر . شارع الخليج المصرى ـــ بالظاهرة بمصر

بين الدين والعلم

تاريخ الصراع بينهما في القرون الوسطى أزاء علوم الفلك والجغرافيا والنشوء

تأليف العلامة

اندرو ديكسون وايت

وترجمه الى العربيه وعلق حواشيه

اسماعيل مظهر

عضو المجمع المصري للثقافة العلمية

وصاحب مجلتي العصور الشهريه والأسبوعيه ومحررهما

١٩٣

دار العصور للطبع والنشر : بشارع الخليج المصري — بالظاهر بمصر

فهرست

الحديث والمدافعون عنها .

« ٩٧ — نتائج الانتصار على غاليليو

فرح رجال الكنيسة بانتصارهم ـ اسكات ديكارت ـ اضطهاد كامبانيلا وكبلر ـ المقاومة وانتصار العلم ـ حيرة اللاهوتيين ـ المحاولات التى اتبعت لتأجيل تراجع الكنيسة .

« ١٠٦ — تراجع الكنيسة بعد انتصارها على غاليليو

سهولة تراجع اللاهوتيين من البروستانت ـ الصعوبات التى اعترضت الكنيسة القديمة ـ اتخاذ عصمة البابا سلاحا ضد نظرية كوبرنيكوس ـ محاولات يراد بها اخفاء الحقيقة ـ المحاولة الأولى : فى أن غاليليو لم يتهم لابانه دوران الأرض ، بل لأنه حاول اثبات النظرية بنصوص التوراة ـ سهولة القضاء على هذه المحاولة ـ المحاولة الثانية : فى أن غاليليو لم يتهم من أجل الهرطقة ، بل لعدم احترامه البابا ـ فساد هذا الزعم ـ المحاولة الثالثة : فى أن الأمر كله لم يخرج عن كونه جدالا وقع بين الاساتذة الارسطوطاليسيين والاساتذة الذين اتبعوا الأسلوب التجريبي الحديث ـ المحاولة الرابعة : فى أن اتهام غاليليو كان موقوتاً ـ المحاولة الخامسة : فى أن غاليليو كان فريسة للبروتستانت والكاثوليك على السواء ـ الجهود التي بذلت لتسويد سمعة غاليليو من الوجهة الأخلاقية . الجهود التى بذلت لاخفاء مستندات محاكمة غاليليو ـ اخفاق هذه الجهود ـ المحاولة السادسة : فى أن البابوات بعضهم دون لم يحرموا هذه النظرية مطلقاً ولم يلعنوها ـ نقض هذا الدليل نفس كلام المدافعين عن الكنيسة ـ نقض أبناء الكاثوليك لهذه المزاعم ـ مجهودات فى سبيل التوفيق ـ بيومان ـ ده بونالد ـ تأثير كل هذا على المفكرين من العلماء ـ ليس هذا الخذلان راجع الى الكاثوليك أكثر من رجوعه الى البروتستانت ليس فى الدين بل فى اللاهوت .

***

« انما نستنشق من الهواء بلا كد ، تلك الافكار التي تحطمت في سبيلها القلوب الكبيرة » لوويل

* * *

« الحقيقة بنت الزمان » باكون

* * *

« وتعرفون الحق والحق يحرركم »

القديس يوحنا : اصحاح ٨ : ٣٢

بين الدين والعلم

العداء بين اللاهوت والعلم لا بين الدين والعلم — العلم موضوعي والدين ذاتي (١)

مقدمة بقلم المترجم

١ – تمهيد

كثر ما شاعت الصيحة في هذه الايام أن بين الدين والعلم عداء وأن في طبيعة الدين شيئاً يعاند طبيعة العلم أو بالعكس. والحقيقة أن هذا القول له مبرراته القديمة والحديثة. وله فوق ذلك وقائع يذكرها التاريخ ووقائع تقع تحت أعيننا. غير أن مجرد القول بان بين الدين والعلم عداء وصراعاً، ومجرد رواية الوقائع التاريخية أو حدوث وقائع في زماننا هذا تؤيد ما يرويه التاريخ، ليست بدليل قاطع على أن في طبيعة الدين شيئاً يعاند طبيعة العلم أو أن في طبيعة العلم شيئاً يعاند طبيعة الدين. ولو أنك نظرت نظرة أولية في حالات الحضارة الحديثة لوقعت لاول وهلة على أشياء تدلك على صحة ما تذهب اليه. فان العلم يجرى تياره باقصى ماجرى تيار من التقدم في كل العصور، وتجد بجانبه روح الدين قائمة راسخة القواعد، وانها لم تكن في عصر من العصور الماضية بأكثر ثباتا في النفوس منها في عصرنا هذا. نعم أننا لا ننكر أنه مرت على المدنية

---

(١) أردنا بهذه المقدمة أن نمهد للكلام في هذا الموضوع وان نجعلها كمدخل لمادة لم يألفها بعد قراء العربية. وقد نشرت هذه المقالة في جريدة السياسة الاسبوعية الاخيرة مختصرا منها
« المترجم »

عصور خفت فيها صوت الدين ليعلو صوت المادية حيناً ، ولكنا نجد مع هذا أنه مهما خفت صوته في الخارج ، فان ثباته في النفوس لم يضعف ، وركيزته في اليقين لم تهن .

ولو صح أن بين الدين والعلم عداء وصراعاً ، فكيف أن هذا الصراع الذي ظل قائماً بينهما خمسة وعشرين قرناً من الزمان لم ينته بأن يصرع أحدهما الآخر ؟ وهل خمسة وعشرون قرناً غير كافية لأن تنهي المعركة وتنصر فريقاً ؟

الحقيقة أن الصراع ليس قائماً بين العلم والدين . والحقيقة أن الدين والعلم كل منهما يستمد من ناحيـة من نواحي التكوين الفكري في الانسان . لهذا ظل الدين باقياً وظل العلم ثابتاً . لأن كلا منهما مظهر من مظاهر الفكر الانساني . ولكن اذا اعتقدنا هذا ، فبأي شيء نعلل ذلك التاريخ الطويل الذي حاول فيه رؤساء الدين أن يخفتوا صوت العلم وبأي شيء سوف نعلل ذلك الصراع الذي سيحاول فيه رجال العلم أن يخفتوا صوت الدين في المستقبل ؟

اذا اعتقدنا ان الصراع لم يقم بين الدين على اعتبار انه شيء مستمد من طبيعة الانسان وبين العلم على اعتبار أنه شيء مستمد من القوة العاقلة التي خص بها الحيوان الناطق ، واعتقدنا أن الصراع قام في الواقع بين اللاهوت المذهبي وبين العلم ، استطعنا أن نعلل حوادث التاريخ بل استطعنا ان نظهر على شيء مما سوف يقع في المستقبل .

* * *

٢ — الجمود ضروري للاجتماع مفيد للحضارة

الجماعات تشعر ولا تفكر . بل قيل بان رقى الجماعات من حيث الشعور والتفكير يقاس فى الحقيقة بنسبة أضعف فرد من أفرادها تفكيراً وأهوجها شعوراً مضروباً فى عدد الجماعة . ولكن الناظرين فى حالات الاجتماع نسوا أن يذكروا بجانب هذا أن الجماعات جامدة صرفة كما هى شاعرة صرفة ، وأن جمودها هذا ضرورى للاحتفاظ بتوازن خطاها التى تخطوها نحو الارتقاء فى كل ضروبه وعلى اختلاف ألوانه

مر على الناظرين فى حالات الاجتماع عقود من السنين وهم يقولون بما قال جوستاف لوبون . ولم يمر بهم خاطر أن الجماعات كائنات جامدة بطيئة القبول لحالات التغير والنشوء . وانى لاثبت هنا أن أول من عثرت له على قول فى هذا الموضوع الخطير هو العلامة كارل بيرسون الانجليزى اذ يقول :

« ان مانجد فى مباحث داروين من نفوذ البصيرة وقوة الادراك وما عقبها من مؤلفات سبق من تلك المؤلفات التى هى على قوتها وبالغ أثرها سوف تكون أقل ثباتا وأسرع زوالا من مؤلفات داروين ، وما زودتنا به مبادئ النشوء فى الحياة الفردية والاجتماعية ، قد اضطرتنا الى تعديل أفكارنا القديمة وتقويمها ، وأخذت تقوى من دعائم مثلنا الادبية وتوسع من ميدانها ، ولكن ببطء تدرجى . ولا يجب أن يحزننا هذا البطء ولا أن ييئسنا ؛ لان من أقوى المؤثرات التى تحفظ الثبات الاجتماعى وتحول دون تخلخله ، تلك الصفة التى نبغضها ، صفة الجمود على القديم . لا بل نقول بان العداء الصارخ الذى تقابل به الجماعات

الانسانية كل الفكرات الجديدة لمن أخص تلك المؤثرات . وان هذه الصفات هى بمثابة الكور المناظية نيرانه ، والذى بدونه لانستطيع أن نفصل بين المعدن الصحيح والفضلات الزائفه ؛ وهى التى تحمى الجسم الاجتماعى من أن يترك معرضا لتغيرات تجريبية فجائية ، قد تكون غير مفيدة آنا ، أو بالغة أقصى الضرر آنا آخر

والظاهر أن بين بناء العالم المادى وبين تكوين الجماعات الانسانية أوجها من التشابه تمثلها عناصر لازمة لحفظ النظام فى كليهما . ففى الجوهر الفرد كهارب ايجابية وأخرى سلبية ، وفى الدقائق المادية قوتا جذب ودفع . وفى الاجتماع تقدم وجمود ، وفى الحياة موت هو لزام لوجودها . وعلى هذا النمط نجد أن الصفات السلبية التى نبغضها فى المجتمع هى فى الوقع أشياء لازمة للمحافظة على كيانه باعتباره اجتماعا انسانيا تنعكس على صفحته صور الصفات الفردية والاجتماعية .

خذ بين يديك قطعة من المادة اللينة واضغطها فانها تأخذ شكلا ما ، ثم اضغطها ثانية فانها تتبدل من شكلها الاول شكلا آخر وهكذا فان كل ضغطة تصورها فى صورة جديدة . وتمثل بعد هذا أن المجتمع الانسانى فيه من صفات الليونة مافى هذه المادة ، وانه فقد كل صفات الجمود والمحافظة على القديم ، ألست ترى أن ذلك يكون منتجا لفوضى عظيمة فى نظام الاشياء الانسانية ، وأن تقبل كل جديد ليهدم ماقبله وليهدمه مابعده ، يكون فى هذه الحالة افسادا للبناء المجتمع وتحطيما للمعاهد التى تقوم عليها المدنية ؟

عدد من مذاهب الفلسفة العملية ماشئت أن تعدد ، وارجع الى

مذهب سقراط ثم الكلبيين ثم السيرينيين ثم الى مذهب الابيقوريين ثم الى الرواقيين، واعدل عن هذا الى تضارب جهات الفكر والمعتقد وتصور بعد هذا أن المجتمع الانساني كان فيه من الصفات ماتحمل تقبل كل هذا ثم رفضه على تتالي الاجيال وعلى تقارب الفترات التي كانت تظهر فيها المذاهب والآراء الفلسفية واحدا تلو الآخر، فهل كنت تجد في بناء المجتمع ماتجد فيه الآن من الثبات؟ وهل كنت تجد أن للحق ما له الآن من صفات البقاء والخلود؟

وكذلك تجد الحال في السياسة والدين واللغة وفي كل ماتقوم عليه الحضارة من الصفات الاجتماعية. وعلى هذا تجد أن التقدم والارتقاء قوة ايجابية تمضدها، وان كانت تقاومها، قوة سلبية هي الجمود والمحافظة على القديم، كما لو كان المجتمع الانساني دقيقة من المادة تجذب جواهرها بعضها بعضا، في حين أنها تتدافع. وهذا لزام لبقائها دقيقة مادية خالدة كما أن الارتقاء والجمود صفتان لازمتان لبقاء المجتمع الانساني مجتمعا مستكملا لصفات النشوء والارتقاء.

لهذا لايجب أن ننظر الى الجامدين نظرة من يعتقد أنهم رجعيون، لان الرجعي هو الذي ينكص الى الخطأ على الرغم من انه يعلم أنه سائر في سبيل الحق والصواب. أما الجامدون فهم القوة السلبية التي تحفظ على الجماعات نصيبها من التوازن اللازم لثباتها، وخطوها نحو الارتقاء في خطأ متعادلة بطيئة، ولكنها تدرجية.

* * *

٣ — ناموس العقل والعقل

بدأ الفيلسوف هربرت سبنسر كتابه مبادىء علم النظام الاجتماعى ببحث فى تطور مابعد الآليات ، فقال بان التطور على ثلاثة أوضاع . الاول التطور غير العضوى ، وهو يتناول بناء السماوات والسيار الارضى ؛ والثاني التطور العضوى وهو يتناول الظاهرات الطبيعية التي نشاهدها حشو الطبيعة الحية وتراكيبها من نبات وحيوان على اختلاف درجاتها ومراتبها ، ثم الظاهرات الخاصة التي تعرف فى مباحث العلوم بالظاهرات النفسية — البسيكولوجيا — وهي التي تختص بها الصور الحية التي بلغت من الترقى حدا اصبح بطبيعة التطور مجالا لتلك الظاهرات . والثالث تطور مابعد الآليات أو ما بعد العضويات وهو فى الواقع بلوغ الحالة الاجتماعية واقتسام العمل بين افراد الجماعة .

فاذا أردنا أن ننظر فى هذا المبدأ نظرة تحليل نطبقها على موضوعنا هذا ، اعتقدنا أن تطور مابعد الآليات هي آخر الخطى النشوئية التي وصلت اليها جماعات الحيوان من الرقى . ولقد شاركها الانسان فى كل هذا وبلغ الى ارقى مايمكن أن يبلغ حيوان من تطور مابعد الآليات . فبماذا يمتاز على بقية الخلق ؟ يمتاز بانه يستمد مما بعد عقليته قوة يستعين بها على قوته العاقلة ليخضعها دائما لصالح الشكل الاجتماعى

ان الفرد والجماعة لا يتفقان ، بل هما كائنان متضادان . ولكل منهما طبيعة تختلف عن طبيعة الآخر . يدلك على هذا أن العديد الاكبر من الافراد التي تعيش فى زمان ما ، لا تعير تطور الجماعة التي تلحق بها شيئا من الانتباه لظاهرها ولا تحاول أن تعرفها الى طريق الخير والسلام .

فالفرد يتطور بتطور الجماعة ، خضوعا لروحها ، من غير ان يدرك من هذا التطور ، حين وقوعه ، شيئا . والجماعة ذاتها تساق الى التطور من غير ان تحس بشيء منه ، حتى يظهر الزمان فرقا بين حالة الجماعة فى زمانين مختلفين تدركه الاجيال المستقبلة .

وخضوع الفرد لشعور الجماعة يبعده عن عقايته المستقلة . فيجرفه تيار الشعور العام الى حيث يراد به ، الى الخطأ أو الى الصواب ، الى الشر أو الى الخير ، حسب المتجه الذى يملك شعور الكل الاجتماعى . والتجاذب القائم بين شعور الجماعة وعقلية الافراد كون التاريخ الانسانى برمنه . فما من حادث من حوادث الحروب ، أو مظهر من مظاهر الثورات الاجتماعيه ، أو قيام المدنيات المختلفة ، الا وتجد تلك الروح متجلية فيه تسوق امامها الانسانية سوقا الى حيث يريد بها مقدار ما أثر فيها شعور بكارثة قومية أو احساس بعزة النفس أو خيال الدفاع عن شيء اكثر ما كان موهوما لا واقعا بالفعل

ولكن باى شيء استطاع الانسان أن يحتفظ بخضوع عقلية الفرد لشعور الجماعة ؟ هنالك فى معتقداته الدينية وجد الانسان القوة التى استقوى بها على عقليته الفردية فاخضعها لقوة احساسه بالتبعة الادبية . اما وظيفة تلك المعتقدات فتجهيزها الفردية بقوة نفسية تسوقه الى الخضوع لمجموعة من آداب السلوك ومبادىء من الاخلاق تبقى عقليته واقعة تحت الاحساس بواجباته الادبية ، أى انها تخضع العقلية الانسانية لقوة مستمدة مما بعد العقلية . وتلك ظاهرة لازمت قيام المدنيات فى كل عصر من عصور التاريخ .

يقول الاستاذ بنيامين كيد صاحب كتاب التطور الاجتماعي المعروف:

« ان الروح الحربية التي تملكت زمام المدنية في عصور الوثنية هي التي شكلت تاريخ الغرب برمته ، فخرجت الشعوب الغربية من تلك المعامع : معامع التدمير والتخريب ، بمدنية هي أغرب ماوصل اليه الانسان في تاريخ الدنيا . وما من نتاج من ثمار هذه المدنية ، وما من نظام من نظاماتها الاجتماعية أو شكل من اشكالها ، الا وتجد للروح القديم أثراً فيه كبيرا . يرجع ذلك إلى اعتقاد ثابت راسخ في روع الشعوب منذ نشأتها الأولى أن حيازة القوة والانتفاع بثمراتها هو المبدأ الذي يجب أن تعمد اليه الامم اذا ماشاءت أنه تحتفظ بكيانها . غير أن هذا الكائن الناطق الذي خرج من جوف الازمان الاولى وبيده آلات الحرب والتخريب ، كان ذا عقيدة دينية . عقيدة تخالف في أسسها ومبدئها الذي ترتكز عليه في طبيعة الرغبات الانسانيه . نزعته الى القوة من أية طريق أتاها وبأية من الوسائل التي تذرع اليها . وظلت نزعة الانسان الى القوة تحارب تلك العقيدة الموروثة حربا عوانا تشهرها على ذلك المعتقد نزعات الانسان وبواعث انفعالاته طوال القرون الاولى . ولا يزال الشجار قائما حتى الآن . وانك ان قلبت تاريخ الانسان لتجلى لك مقدار ماجالد ذلك الحيوان الناطق المفكر في سبيل التخلص من قيود تلك الوراثة الدينية التي خرج بها من حياته الاولى مستعيناً بها على هدم ذلك المعتقد بكل ماأوتي من قوة الفلسفة والعقل ، فكم زجت تلك النزعة بالانسان في غمرات حروب تهدم بها ما أقام السلم من صروح العمران ، وكم مزق بها مارأيت شرعة الآداب من صدوع الانسانية »

تلك روح خالدة فى الجماعات قد تتغير مظاهرها ؛ وجوهرها ثابت فى الزمان ، مرتكز على طبيعة الانسان المفكر المعتقد المدرك لحقيقة الشريعة الادبية ، المحكوم بوازع مما فوق عقليته يخضع عقله لحاجات الاجتماع . تلك الصفات التى ترتكز عليها أصول المدنية .

عبثاً ماحاول بعض الفلاسفة أن يقاوموا تلك الروح بمذهب فلسفى فى النفعية ، يستهوى الفرد ليخرج عن شعور الجماعة وروحها . كثر فى أوروبا من حاول ذلك فى أواخر القرن الفارط ، ونشر بعض المشتغلين بالآداب كتبا فى « دين الطبيعة » مالبثت أن قناتها روح الجماعات ، شأنها فى كل شيء يصد طريقها الشعورى الصرف . حاول هؤلاء أن يجعلوا العقل حد الدين ، فوقع الانسان فى مأزق من مآزق البعد عن الشريعة الادبية كاد يتداعى معه أساس المدنية . ولا يزال بعض المفكرين يتابعون ذلك الرأى ، قائلين بأن دين المستقبل سوف يكون معتقداً بعيداً عما تبعثه فى أهل هذا العصر معتقدات مابعد العقلية البشرية . حاول هؤلاء أن يجدوا فى عقل الانسان وحده هاديا ومرشداً أمينا بصفته فرداً صالحا من مجموع انسانى ، يخط له خطة من السلوك والاخلاق جديرة بان تحفظ نظام الهيئة البشرية التى يجب أن تقوم على أساس من الاحساس الادبى أخفقوا سعيا وضلوا سبيلا . لان الطبيعة لم تحب الانسان بشيء من هذا. رجع الناس بعد ذلك مؤمنين بان وازع مابعد العقلية ، أول عنصر من عناصر المعتقد الدينى بل نواته ، وأنه الضابط الذى يضبط علاقة الفرد بالجماعة فى كل حالة من الحالات وتحت تأثير أى ظرف من الظروف

على أنك تجد أن فى النظام الاجتماعى قوتين متضادتين تتنازعان

بقائه : قوة مفرقة ، وقوة مؤلفة . فالقوة المفرقة يمثلها عقل الفرد الانانى المحب لذاته . والقوة المؤلفة يمثلها معتقد دينى يستمد مما فوق عقلية الفرد. وتنحصر وظيفته فى أن يحتفظ فى تطور الجماعات باخضاع مصالح الافراد ومطامعهم لصالح الكل الاجتماعى . وأن الدين فى طبيعته ضرب من ضروب المعتقد يهىء الانسان بوازع مما فوق عقليته ، يضبط سلوكه نحو المجموع .

فاذا أيقنا بعد كل هذا ان الانسان كائن معتقد كما هو مجتمع ، وأن الدين من بين كل معتقداته هو الذى يهيئه بوازع مما فوق عقليته ، استطعنا أن ندرك كيف أن الخصومة الموهومة بين الدين والعلم مستحيلة ، والا فلو كان بين الدين والعلم خصومة وعداء لتحطمت قواعد العلم قبل أن يهتز ركن واحد من أركان الدين .

الدين فى النفس الانسانية ثابت لاتتغير ماهيته وان تغيرت مظاهره ، وهو فوق ذلك صفة غريزية تلازم طبيعة الانسان مادام قد تكون ليكون انسانا فيه من التكوين الطبيعى مايجعل للدين ركيزة أثبت فى نفسه من ركيزة العلم والفلسفة . وعلى هذا لايمكن أن يكون بين الدين والعلم تجالد وصراع ، لانهما على الرغم من الفوارق الطبيعية الكائنة بينهما والتى لاتجعل للصراع بينهما مجالا يستمدان من ناحيتين متباعدتين من نواحى التكوين الانسانى

.·.

٤ — الفرق بين العلم والفلسفة والدين

ضرورات الحالة الاجتماعية كثيرة متباينة ، وهى على كثرتها وتباينها بل وان شئت فقل تنافرها ، انما تستمد من طبيعة الكائن المجتمع

وليس من هذه الضرورات ماينزل عن حد الضرورة ليكون أكثر ضرورة أو أقل ضرورة من غيره وليس منها ما هو أقرب الى الكماليات من الحاجيات ، فان هذه الضرورات كلها تنزل منزلة واحدة من حاجة المجتمع اليها .

وهى فوق ذلك مستمدة من صفات غريزية فى الكائن المجتمع تتشكل فى صور مختلفة بمقتضى اجتماعه ليكون كلا اجتماعيا · أو كائنا اجتماعيا كما يقول سبنسر . ومن أول هذه الضرورات أن يكون فى الانسان صفات نفسية وأخرى عقلية . وهذه الصفات ، بصرف النظر عن مظاهرها الخارجية وباعتبار أنها أشياء كائنة فى تضاعيف الفطرة ، لايمكن أن يكون بين ماتنتج تضارب وتجالد ، أو عداء وصراع . فقد يكون بين بعض ماتنتج من الحالات الاجتماعية جمود يناظره فى أخرى نزعة الى التقدم والارتقاء . وقد يكون فى ناحية منها حركة فى حين أن ناحية أخرى تتطلب الهوادة والسكون النسبى لتتعادل الكفة ويحدث الثبات الاجتماعى الذى هو أول صفة من الصفات المطلوبة فى جماعة انسانية يصح أن يقال فيها انها متحضرة وأنها تقيم عمرانا .

فالعلم مثلا صفة عقلية أصبحت الآن ضرورة من ضرورات المجتمع الحديث وان كان العقل وهو نبعها الفياض ، صفة من الصفات الاصيلة فى حياة الانسان الاجتماعية ، بل وفى غيره من كثير من الحيوانات الاخرى . وكذلك الدين فهو صفة تستمد مما فوق العقلية البشرية ليسد فراغا فى الاجتماع لا يسده العلم . وبين العلم والدين فجوة لا تسدها الا الفلسفة . فهذه الدرجات الثلاث أو هذه الصفات الثلاث :

صفة أن الانسان يعلم ، وصفة أنه يتدين ، وصفة أنه يتفلسف ليوفق بين طرفى العقل وما بعد العقل ، صفات فطرية فى الانسان أصبحت بطبيعته ضرورات اجتماعية ولا يمكن أن يكون بين شيء منها عداء ودراع ، وإلا أصبح الانسان عبارة عن مجموعة صفات متناقضة وهيكل من الفوضى المتحركة . هى فى الواقع متناسقة متكاملة كالقضية المنطقية التى تتكون من طرفين ووسط ، موضوع ومحمول وحد وسط . وهى فوق ذلك لا تنتج انتاجا صحيحا الا اذا صحت مقدماتها .. هذا مثل الانسان فى العلم والفلسفة والدين . وكلها ضرورات لا بد منها ، وان استمدت من نواح مختلفة من نواحى الفطرة الانسانية . هى ضرورات اجتماعية من ناحية أن الانسان مجتمع ، وضرورات فطرية من ناحية أن الانسان كون على ما فيه غير مخير هواه.

على أننا لا نترك الموضوع عند هذا الحد فلا بد من أن نظهر أن هذه المنتجات لا تتخالط مطلقا .وبذلك لا تتعادى ولا تتصارع

يقال إن العلم ذو صفات ثلاث ، يقال انه تام ، ايجابى ، موضوعى . وأن الفرق بينه وبين صور الفكر الاخرى أن هذه غير تامة مبهمة دائما . ان العلم يؤدى للعقل نواتجه أو فكراته فى اصطلاحات محدودة بالتعريف ، مباشرة المعنى ، بينما نجد أن هنالك عالما فى الادب والنواتج العقلية غير محدود بالتعاريف ، رمزى فى قوامه ، غير مباشر المعنى والتعبير . إن العلم يسلم بأن ليس له من دعامة الا دعامة المعرفة ، على أن تكون بينه جلية تامة الوضع . لهذا تجده مناظرا فى طبيعته لنواحى الفكر الاخرى المرتكزة على الآراء والاعتقاد والايمان ولا يغيب عنا

أن هذه المصطلحات اما أن تشير الى الاسلوب الذى ينتحى فى البحث ، واما أن تشير الى موضوع البحث ذاته . أما العلم فيفخر بان له أسلوبا ثابتا لا يحتمل الجدل ولا يسع التورط فى المسائل الخلافية النظرية . أما بقية فروع الفكر فاما أن تستعير أساليبها من الاسلوب العلمى ، وإما أن تطبق أساليب متغايرة لم يجمع عليها الاجماع كله ، وأما أن تأبى الخضوع لاسلوب ما على وجه عام (١) فالعلم يتناول كل الاشياء أو الموضوعات التى تطرأ على اذهان السواد الاعظم من الناس أو تمس مصالحهم ، وهى موضوعات قد يبلغ الى الاحاطة بها كثير من الناس ولهذا يفخر العلم دائما بان مشاهداته واستنتاجاته خاضعة دائما للتحقيق والبحث آنا بعد آن . لذلك تجد أن شطراً عظيما من المشاهدات والاستنتاجات العلمية قد تؤخذ فى أكثر الاحيان على أنها حقائق تامة أجمع على صحتها وثباتها ، فيمضى الذين لا يأنسون من أنفسهم القدرة على تمحيصها وبحثها ، أو الذين تقعد بهم الهمة دون فحص براهينهما ، قانعين بأنها أشياء بديهية ثابتة لا مبدل لها . غير أن هنالك أشياء كثيرة تقوم فى عقل كل فرد من الافراد ، شخصية فى طبيعتها ذاتية فى مبعثها ولهذه الاشياء فى أنفسنا من الشأن والخطر ما يعدها من مطالب الحياة وحاجاتها . وأن هذه الاشياء هى المادة الحقيقية التى يتركب منها الفكر الخارج عن ميدان العلم . وهى فى جوهرها ومظهرها مناظرة للعلم اليقينى . وفى هذا الشطر من الفكر لا يستطيع شخص بذاته أن يقوم بعمل ينتفع به الكثيرون على نفس الطريقة التى تحتذى فى العلم . فالاخذ بالبرهان

---

(١) راجع الاستاذ جون تيودور مرتز فى تاريخ الفكر الاوربى فى القرن التاسع عشر

فى ذلك الشطر مستحيل ؛ والاجماع على شىء فيه لا يضم تحت لوائه الا عدداً قليلا من الناس . فالاقوال والنظريات لا يمكن أن تؤخذ فى هذا الشطر على أنها حقائق ضرورية لا تحتمل الجدل كما هى الحال فى العلم بل أن كل شخص لا بد من أن يجتاز فيها السبيل الذى اجتازه الذين تقدموه ، قبل أن يأنس فى نفسـه القدرة على قبول ما اتى اليه والانتفاع بثمراته

ان الصفة الوحيدة التى تلازم هذا الشطر فى الفكر أنه فردى ذاتى فى حين أن العلم مهما كانت صبغته ومهما كان أصله عام موضوعى ، أى أنه غير ذاتى . يرجع الى الموضوع . لا الى الذات التى تفكر فى الموضوع وتفحص عنـه . فاذا مثلت للفكر بشىء ذى طرفين متناظرين ألفيت أن العلم الرياضى فى أحد طرفى الفكر وان الدين فى الطرف الاخر . وانك لتجد أن الاتفاق فى الطرف الاول صفة ملازمة ، كالاختلاف والتنابذ فى الطرف الثانى . تلحظ ان وحدة الفكر صفة ثابتة فى الطرف الاول فى حين انك لن تقع لها على ظل فى الطرف الثانى . انها لم تعرف فى الدين ولن تعرف . وانك اذا أردت أن تعبر عن ذلك بالكلام الدارج استطعت ان تقول ان المعرفة والتحقيق لزام الاول وان الايمان والاعتقاد لزام الثانى . على انك فيما بين الطرفين تقع على فراغ كبير يفصل بينهما . ان هذا الفراغ ينشىء فى الفكر صوراً تصل بين الطرفين فتبرز حينا فى هيكل من المعرفة ، وآخر فى مثال من الايمان ، فيختلط فيها قليل من الاشياء المحققة بكثير من الايمان والاعتقاد المبهم . تلك المسافة الكبيرة ، وهذه المفازة المترامية الاطراف ، والتى تتوارد عليها صور

التغيير والاختلاف بسرعة متعاقبة هي سكن الفلسفة الحقيقي ومنبتها الاصلي. الفلسفة التي تتناول الحقائق ولا تأنف من الايمان، الفلسفة أصل المعرفة، ومصدر الاعتقاد واليقين. الفلسفة حلقة الوصل الواقعة بين الطرفين: طرف العلم وطرف الدين. (١)

بعد هذا التحليل الدقيق نتساءل: هل يمكن للانسان ان يكون بلا عقل ليكون بلا علم؟ وهل يمكن أن يكون بلا وازع من فوق عقليته ليكون بلا دين؟ وهل يمكن أن يكون بلا تأمل في الناحيتين ليكون بلا فلسفة؟ هذا مستحيل. مستحيل على الانسان أن يلغي عقله، أو يلغي وازع مافوق عقليته، أو يلغي تأمله في حقائق الاشياء.

ثم نتساءل ثانية هل يمكن أن يقوم بين هذه الضرورات العقلية والنفسية صراع وتجالد، بحيث يمكن أن يقوم بجانب هذا الصراع الشديد حياة اجتماعية، لا تجري فيها الدماء، ولا تعبث فيها بأخص الصفات الانسانية؟ أما دليلنا الملموس على أن الصراع بين الدين والعلم شيء موهوم فبقاء بناء الاجتماع الانساني بما فيه من مختلف الصور الناتجة عن العقل والشعور، وثباته وبعده عن التناقض والانشعاب.

٥ — الصراع بين اللاهوت والعلم لا بين الدين والعلم

اذا صح لدينا أن لا نزاع بين الدين والعلم فما هو السبب. اذن في تلك الفجائع التي يرويها التاريخ خلال القرون الوسطى، بل وفي الازمان القديمة. وما هو الباعث على تلك الحروب التي قامت بين العلماء

---

(١) راجع كتاب نزعة الفكر الاوروبي في القرن التاسع عشر

والفلاسفة من ناحية، وبين من نسميهم رؤساء الدين من ناحية أخرى ؟

اذا كانت حقائق التحليل النفسى والعقلى تدلنا على أنه لا يمكن أن يقوم صراع بين الدين والعلم ، لان هذا مستحيل فطرة واجماعاً وقفنا أمام وقائع التاريخ ، وعلى الاخص ، تاريخ النشوء العقلى والفكرى نتامس أسبابا نعزو اليها البواعث التى كونت تلك العناصر التى انطوت عليها صفحات الماضى وكانت سبباً فى تكوين محاكم التفتيش فى القرون الوسطى لتحرق وتقتل تحت عنوان الهرطقة والخروج على الدين كل من نزع الى جديد فى العلم وكل من كشف عن حقيقة من حقائق الطبيعة

لم تبلغ الخصومة بين العلم واللاهوت من الشدة ما بلغت فى القرون الوسطى وبين أحضان النصرانية . فانك لا تعثر فى تاريخ الاديان كلها على تاريخ يشابه تاريخ مذاهب اللاهوت النصرانى فى قيامها فى فى وجه العلم أزمانا طوالا ، بل قرونا متعاقبة . والسبب فى هذا أنه قامت لدى اللاهوتيين فكرة ثابتة فى أن العلم لا يجب مطلقا أن يبشر بشىء فيه أقل مخالفة لظاهر ما جاءت به الاسفار المقدسة والمتون ورسائل الحواريين . ولست تعلم لماذا يكون هذا لزاما على العلماء والفلاسفة مع أن طبيعة الدين لا تسع هذا ولا تدعو اليه . فان وظيفة الدين فى الواقع اجتماعية ارشادية، لا تعليمية. ولكن شاءت عقول اللاهوتيين أن تكون وظيفته تعليمية . لهذا نشأ ما يسمونه الخصومة بين الدين والعلم ، وما هى فى الواقع الا خصومة بين اللاهوت والعلم. وكم من لاهوتى ظهر خلال القرون الوسطى وحاول ان يثبت ان

الدين لا شأن له بالعلم وان وظيفته تنحصر فى أن يعرف الناس طريقة الخلاص فى الآخرة ، لا حركات الاجرام السماوية أو تكوين الارض كيف يكون !! ولكن المذاهب الشائعة فى اللاهوت ومن ورائها محاكم التفتيش ، لم تكن تترك لامثال هؤلاء مجالا . وزاد الطين بلة ان اللاهوتيين ومن ورائهم الكنيسة ، وعلى رأسها البابوات المعصومون عن الخطأ كانت قد زكت المذهب اللاهوتية التى ذاعت فى تفسير الانجيل والتوراة باجازتها حينا بعد حين ، فأصبحت تلك التفاسير فى الواقع مقدسة كاصل المتون نفسها . لهذا كانت ثورة اللاهوت فى القرون الوسطى حامية ونارها محرقة تلظى .

* * *

٦ — هل بين الدين والعلم عداء حقيقى أو مجازى

يخيل الى الذين يقولون بأن بين الدين والعلم عداء ، وانه بينهما صراعاً وجلاداً يقوم على شيء فى طبيعة الدين يعاند طبيعة العلم ، أو أن فى طبيعة العلم شيئاً يعاند طبيعة الدين ، أن الانسان عبارة عن كائن كل ما فيه عقل صرف وتفكير محض فى حين أن ما كشف عنه علم الاجتماع الانسانى ، مؤيداً بمباحث العلماء الاعلام فى فروع علم البسيكولوجيا قد أثبت بما لا سبيل الى ادحاضه أن الانسان عبارة عن مجموعة مشاعر حادة قوية تزكيها نزعة غريزية مما فوق العقل تحكم ابطانه بما نسميه الجماعة ، أو المجتمع البشرى .

يقول ديكارت « أنا أفكر انا اذن كائن » . والحقيقة أن الوجود والحياة أولى الحالات التى يقوم عليها أساس الجماعات . فلنفكر قليلا فى

حالة الحياة ذاتها وعلى الاخص فى الانسان المفكر المجتمع لنرى إن كان حبنا للحياة ذاتها شيء يقودنا اليه العقل أو الشعور والخضوع لما بعد الغاية

اذا وازن إنسان بين ماينعم به فى هذه الحياة من سعادة وبين ماينزل به من ملمات فادحات، فلا شك فى أن كفة آلامه ترجح كفة سعادته على حسب مايصور له عقله اضعافا . فان مطاليب الحياة والسعى الجاد وراء ماتطلب من ضرورات لاتترك للفرد مجالا للمتعة بمايصور له عقله أنه متعة حقيقية . واذا نظر فيما يحيط به من الحالات الطبيعية الفى ان الطبيعة التى تحيط به والتى يعيش بين احضانها خاضعا لقواسرها انما تناهضه اشد العداء ويقابلها بأشد المقاومة . فهو فى الواقع فى حرب مستعرة مع العناصر التى تؤلف كيانه . فالجراثيم القاتلة والوحوش الضارية وتقلبات الطقس وتأثيرات المناخ والتناحر على الحياة والانتخاب الطبيعى وابقاء الاصلح بل وكل ماتتطلب نظامات الطبيعة من جهود يبذلها الانسان ليعيش ويحيا حياة طبيعية ، هى بذاتها متاعب لاتجعل للحياة من قيمة حقيقية اذا نظر الانسان فيها بعين العقل وحده وجرد نفسه من نوازع مافوق عقليته . ثم فكر قليلا بعد هذا فى هذه الحياة وسائل نفسك لماذا وجدت ، ولاى غرض خلقت وما هو القصد من هذه الحياة التى احياها ، ومن ذلك الموت الذى انا بالغه يوما من الايام ؟ وانظر بعد ذلك هل تؤدى عن هذه الحياة وهل يكون وجودك فيها ممكنا ان تركت نزعات العقل تحتكم فيك وحدها ، أو ان لجأت اليها تلتمس هدايتها للخروج من هذه الظلمات

ان العقل يوحى اليك بأن نفارق هذه الحياة فلا فائدة منها وانت فوق ذلك عاجز عن ان تعرف سر وجودك فيها ! انها عبث فى عبث

وبدء ونهاية لاخلود وراءها ، ولا حياة أخرى تثاب فيها على طيباتك او تعاقب فيها على سيئاتك. يهمس العقل فى روعك دائما بان هذه الحياة التى تحياها وتلك المتاعب التى تحملها والمشاق التى تذللها انما تعمل فيها لغيرك لا لنفسك وتتحمل كدورتها للاجيال المستقبلة التى ليس لك من علاقة بها ولا نعرف ان كانت تستحق منك ماتضحى به من صحة وعافية .

أليس هذا وحى العقل ؟ أليست هذه الاشياء هى اول مايوحى اليك به العقل الصرف المجرد عن المشاعر وقواسر مافوق العقلية! اذن نستطيع ان نقول ان بين العقل والوجود كله صراعا بحكم اننا كائنات لانعرف لماذا وجدنا ولا نفقه لوجودنا غرضاً يختفى وراء مظاهر هذه الحياة .

ثم ارجع بعد هذا الى نظام الزوجية ، وجرد نفسك من المشاعر برهة واحدة لتحكم العقل فى هذا النظام الذى لولاه لما كان للاجتماع الانسانى على ما نراه اليوم من اثر

لماذا يقسر الرجل المرأة على ان تكون له وحده ولماذا تغار المرأة على الرجل ان هو جرى وراء اخرى ؟ ولاى شيء يحتمل الرجل والمرأة كلاهما تلك الواجبات ولماذا يلزمان تلك الحدود التى وضعتها الشرائع والقوانين وفى فناء الاباحة ماهو أرخى لعنانهما وأقرب لما يرضى نزعتهما العقلية . يسعى الرجل ويكد كل كد ليعول امرأة اراد ، ولا يعرف لماذا ، ان يختص بها وتختص به ، وان يقوم حفيظا عليها زعيما بمطالبها فى الحياة . يحتمل مرارة العيش ويواجه مصاعب الحياة بلذاذة وصبر ،

فى سبيلها وفى سبيل شىء لا يعرفه . سائل نفسك لماذا انت تخضع لنظام الزوجية ، ولماذا تجد فيه من السعاده مع مرارة السعى ، ما لا تجد مع راحة العقل واطمئنانه الى حياة خاو من المسئوليات والواجبات ، وانت لا تعرف ان كنت تعيش فى نظام اساسه العقل الصرف ام فى نظام لا تعرف فى الواقع لماذا تخضع له ان حكمت فيه العقل واردت ان تستوحيه ليهديك فى ظلمات ما أنت فيه من نظام ؟

ثم ارجع الى المرأة وحدها وتصور لهفة بنت حواء اذ تبذتها الطبيعة فى صحراء العقم وتركتها بلا عقب . وانظر كيف انها تغضب على الطبيعة وعلى الحياة وعلى الاحياء ، لان القدر شاء لها ان تكون عاقرا غير ولود .

وصور بجانب هذه الصفة المثالة متاعب المرأه فى تربية اولادها والقيام عليهم ، وما تعرض له حياتها من المخاطر فى الحمل والوضع ، وتصور كيف انها تنسى كل آلامها وتغيب عن عقلها كل متاعبها بمجرد ان تضم طفلها الى صدرها ضمة تفيض معها كل معانى الحياة لا كل حقائقها فتغمرها فى بحر لجى من الشاعر يموت معه العقل ويحيا الوجدان

ثم انظر فى حياة المرأة فى مفصلاتها . فانك تجد انها انما تعيش للمستقبل الصرف الذى لا يغشاه من العقل الى الحاضر غاشية . كل مافيها من مشاعر ، وكل ماتاتيه من اعمال ، وكل ماتحتمله من متاعب فى هذه الحياة انما تتوجه به شطر المستقبل والاجيال التى سوف تتمخض عنها القدر فى الايام الآتية . هذه هى اكبر فضائل المرأه الغريزية . تعيش لغيرها لا لانفسها . تعيش لرجلها ولاولادها وتضحى فى سبيلهم كل شىء

تملكه او لا تملكها الا مجازا ، لتضع للمستقبل عمادا يقوم عليه . واساس يرتفع من فوقه بناؤه المشمخر .

جرد المرأة من هذه المشاعر ، وخلص نفسيتها من قواسر ما فوق العقلية التى تقوم عليها كل هذه الصفات . وحكم العقل فيها وحده . او اجعلها تحكم العقل فى كل ما تعمل او تأتي من افعال . وانظر بعد ذلك كيف يكون المجتمع اذا سادت فيه نزعات المرأة العقلية . وكيف يتهدم الحب وتموت الشفقة . وتنتفى الرحمة . وكيف تندك الشرائع السماوية . وتتبدد سلطة القوانين الوضعية ؟ وماذا يبقى بعد كل هذا ؟ هل يبقى من المجتمع الانسانى عين او اثر

وهنا أيضا نستطيع أن نقول بأن بين العقل وبين نظام الزوجية وتضحية المرأة نزاعاً وصراعاً وان بينهما جلاداً يجب أن تخضع فيه المشاعر لحكم العقل وحده ، كما نقول بأن بين الدين والعلم قتالا ، يجب أن ينتصر فيه العلم وليد العقل ، على الدين وليد المشاعر ونزعات ما فوق العقلية فى الانسان

تأمل فى نفسك ساعة وانظر فيما يحف بك من النظم الاجتماعية والقيود الثقيلة التى تربطك بالمجتمع الذى تعيش فيه ، والسلاسل والاغلال التى تثقل جيدك وتقصم ظهرك ، من واجبات نحو الاسرة والأب والأم والزوجة والوطن والدين والتقاليد وفكرات الشرف والعرض وما الى ذلك ، واستسلم الى العقل وحده وانزل على حكمه فى تلك الامور عامتها ، وجرد نفسك من المشاعر ان استطعت برهة واحدة ، فانك لا تلبث أن تجد عقلك وقد أخذ يجر خطاك الى التخلص من هذه

القيود التي لن تجد من عقلك ما يسوغها أو ينزلها على حكم النفع المباشر . لماذا تعيش في أسرة وتحمل نفسك من الاعباء ما تطيق وما لا تطيق ؟ ولماذا تحب أباك وتحترم واجبات الأمومة وتعطف عليها ، ولماذا تخضع لعيشة الزوجية وفي مقدورك ان تستعيض عنها بعيش ارغد في نظر العقل واقرب الى مطالب الحياة الحرة المطلقة من قيود الواجبات الأدبية ؟ ولماذا تحتمل تربية اولادك وتحمل من اجلهم امر مذاقات الحياة باصطبار وسعادة ؟ ولماذا تحب وطنك وتضحي في سبيله نفسك ومالك ، وتريق من اجله دمك وارض الله واسعة الفضاء ؟ ولماذا تقيد نفسك بدين تخضع له وفي متسع الاباحة ما هو ارضى لعقلك وارخى لعنانك واوجب في رضائك بالحياة؟

هذه أسئلة يجيبك عليها الشعور جواباً لا يرضاه العقل ، ولا تسكن اليه موحيات الانانية الرسيسة في طبيعتك . انما الطبيعة قد خصت الانسان بشيء يمتلك ناصية عقله ويتحكم فيه التحكم كله. شيء آت مما فوق عقليته ينزل تلك المعاني من نفسه منزلة يخضع لها العقل قسراً عنه ، شيء يقال له الفكرة الدينية ؛ فيها من المشروعية المكتسبة بحكم الاجماع العام ما يخضع الفرد المجتمع بحكم المشاعر وتحد من شهوات الفرد المستقل الخاضع لحكم العقل . تلك هي وظيفة الدين الكبرى في الاجتماع الانساني (١)

* * *

هذه أمثال مقتضبة مما في هذه الحياة من بواعث ما فوق العقلية

« ١ » راجع كتاب ملق السايل الفصل السادس

لو اننا مضينا نضرب فيها الامثال اذن للأنا صدر مجلد ضخم حتى نبلغ منها حداً يرضى نزعة البحث الصحيح. وما أتينا بهذه الامثال الا لنظهر انه كما أن العلم لم يصارع بقية ما فى الحياة من بواعث ما فوق العقلية الانسانية صراعاً واجهها فيه بالذات، كذلك هو لا يصارع الدين وهو أخص ما فى هذه الحياة من الالهامات العلوية التى تحكم فى ما فوق العقل، لا فى العقل نفسه.

انما يصارع العلم صور اللاهوت المذهبى. لان هذه الصور انما تريد أن تنزل بالدين الى أفق العلم. تريد أن تجعله ديناً وتجعله علماً وهنالك يقع الصراع بطبيعة الحال

لم يشرف القرن التاسع عشر على الختام حتى ودعه العلماء بعدة مستكشفات خطيرة فى الفوسيقى والكيمياء والتاريخ الطبيعى. غير ان أعظم استكشاف وصل اليه العقل البشرى خلال القرن التاسع عشر على معتقدى، تيقن أهل العلم بأن للعلم حداً يقف عنده، هنالك ترك العلم ادعاءه بحق التفرد بالوجود والتسلط وحده على كفايات العقل البشرى اذ بان لاهله أن وظيفة العلم تنحصر فى وصف حقائق الاشياء. هنالك نامت عاصفة العلم وانتصرت الطبيعة على نزعات الوهم السائدة فيها، وهنالك تحددت المعارف الانسانية بحسب كفايات العقل الانسانى فترك الدين سلطانه وحدد العلم حيزه

٧ — وظيفة الدين ارشادية لا نهائية

لقد أبنا فى سياق هذا البحث أن العداء لا يمكن ان يقع بين الدين والعلم بصورة مباشرة، وأثبتنا فوق ذلك أن العداء لا يقع الا بين

صور اللاهوت المذهبي والعلم. لاسباب هى فى الواقع ذاتية اكثر منها موضوعية . فان رجال اللاهوت عند ما أرادوا أن يفسروا نصوص الكتب المقدسة ويطبقوا هذه النصوص على الحقائق الكونية جنحوا فى الواقع الى فكرة أساسية كانت السبب الكلى فيما ترى من نتائج ذلك الصراع الذى قام بين معاهد الدين ورجال العلم . وكان أول ما ذهبوا اليه وأدى الى هذه النتائج الخطيرة قولهم بأن نصوص الكتب المقدسة لا تقبل التأويل وانها انما تزودنا بمعارف الدنيا كما تؤدى بنا الى الخلاص فى الآخرة . وكان لهم فى ذلك مذاهب كثيرة أخصها مذاهبهم المعروفة فى علم الفلك والجغرافية والخلق وما الى ذلك

على ان جهلهم بحقائق التاريخ كان فى الواقع من اكبر الاسباب التى حدت بهم الى الاستمساك بمثل هذه الآراء والوقوف فى مثل تلك المواقف الحرجة التى كان من شأنها أن تذيع فى بعض العصور مذاهب بلغت من التطرف فى الالحاد أقصى الحدود . فانهم لم يعرفوا مثلا أن اكثر ما جاءت به الكتب المقدسة واكثر التفاسير التى فسرت بها تلك الكتب انما استمدت من أساطير وخرافات ذاعت بين أمم العالم القديم ، فى مصر والهند واشورية وبابل والكلدان ، وأن هذه التصورات الفرضية قد نماها الزمان وانتقلت باللقاح من جيل الى جيل ومن أمة الى أمة حتى أسلمت بها تطورات الاجتماع الى العصور الحديثة محبكة فى صورة كتب مقدسة هى فى الواقع ليست بالدين ، ولكنها مظهر من مظاهره

لهذا لا نريد أن نتابع الكلام فى وظيفة الدين باطناب . لان

مجال الكلام فى هذا واسع كبير . وجل ما نرمى اليه من هذه العجالة يتلخص فى شيء واحد هو الاعتقاد بان وظيفة الدين ارشادية لا تعليمية. لان القول بان وظيفته تعليميــة قد يجر الى البحث فى أصل الاديان ومنشئها ومقارنة بعضها ببعض . وهذا بلا شك يؤدى حتما الى القضاء على المهمة الأصلية التى من أجلها وجدت الاديان ، مهمة الارشاد والتأثير من طريق الوازع فى سلوك الافراد .

على اننا ان قدمنا اليوم الى القراء كتاب «تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم من العصور الوسطى » فانما نقدمه لطبقة من الطبقات المستنيرة فى انحاء الشرق العربى مرنت على مواجهة الحقائق وسكنت اليها وعرفت أن أفضل ما يتصف به الانسان فى هذه الحياة من خلق هو البحث وراء الحقائق لذاتها والسكون اليها مهما كان فيها من المنافاة لما نشأ عليه المرء من التقاليد .

ولا ينبغى أن تمر بى هــذه الفرصة دون أن أنبه على ان الاديان ذاتها انما كانت لتعرفنا الحقيقــة من طريق ما . فألواح الوصايا العشر التى نزلت على موسى وجرت عليها بقية الاديان وشرعتها للناس ، قد نزلت على قلب الانسان من قبل عهـد موسى ومضى المشرعون والمصلحون يتبعون مبادئهـا قرونا قبل أن يعرف الانسان ما هو التنزيل . فانك تجد مثلا فى « كتاب الموتى » عنـد قدماء المصريين ألواحا كهذه الالواح عددها عشرة تماما . وتجـد ما يماثلها فى دين زرادشت ومانى وبوذا وكونفوشيوس .

وعلى هذا فانى أعتقد اعتقاداً لا يوهنه الشك باننا اذا أردنا بعزم صادق أن نؤيد الاديان وان يكون لنا فى هذه الحياة عقائد صالحة لان تكون دستوراً قويماً فى الحياة ، فانبحث عن الحقائق ولنطرد الاوهام لتقوم الحياة الانسانية على أساس ثابت لا يدخله الوهم ولا تعمل فيه يد التقاليد

اسماعيل مظهر

الفصل الاول

علم الفلك

١ — النظرية الجيوسنترية

وهى النظرية القديمة المقدسة فى تكوين العالم

اعتقاد الكنيسة الاولى بأن علم الفلك لافائدة منه — تكوين النظرية المقدسة ونشوئها — أوزنفن — قوزماس — إزيدور — النظرية الجيوسنترية أو نظرية بطليموس — اصلها — قبول الكنيسة لها والعالم النصرانى بالتبعية لها — نشوء النظرية المقدسة الحديثة فى علم الفلك — بطرس لومبارد — توماس أكويناس — تروجها من طريق دانتى — تفاصيلها — بقاؤها فى الاذهان حتى الاعصر الحديثة .

* * *

كان التنازع على العلاقات الواقعة بين السماوات المنظورة والسيار الارضى محور لسلسلة من الوقائع تصادم فيها اللاهوت والعلم صداماً ، والتحما التحاماً .

نظرت الكنيسة ، خلال العصور الأولى ، فى علم الفلك ، نظرة القانع بأنه من الاشياء البائرة ، اعتماداً على حكمة ظاهرة بشرت بها التوراة ، مؤداها أن الارض لابد من أن تزول سراعاً ، وأنه سوف

تـكون ـ « سماوات جديدة ، وأرض جديدة » [1] فلماذ إذن اعنات النفس فى درس السماوات القديمة والارض القديمة ، مادامتا سوف تبدلان سريعاً بشىء جديد ، لانهاية لأوجه تفضيله على القديم المنهار الاركان ، المتصدع البنيان ؟ ولقد يتجلى هذا الشعور باجلى صوره فى قول القديس أوغسطين — st Augustien — المشهور — « أى شأن لى فى أن أعرف اذا كانت السماوات كـكرة تتضمن الارض معلقة فى وسط الـكون ، ام أنها تشرف مرتـكزة عليها من كلا الجانبين » ؟

أما الاجرام السماوية فلم يكن اللاهوتيون لينظروا فيها الا على اعتبار أنها اشباح مايؤدى النظر فيها الى شىء ، اللهم الا الى تأملات تبعث على الورع والتقوى — أما أزاء طبيعتها فان آباء الـكنيسة منقسمون . فان « أوريغن » — Origen — ولفيفاً من حوله ، كانوا يعتقدون بانها ذوات حية تقمصتها الارواح . ولقد بنى هذا الاعتقاد على الرؤيا المعروفـة فى التـوراة إذ تغنى نجوم السماء معاً ، وعلى ذلك الابتهال الجميل الذى يوجه الى « النجوم والضوء » فى أغنية الاطفال الثلاثة — البنيديسيت — Benedicite — تلك الاغنية التى أحسن

(١) جاء فى الاصحاح الخامس والستين من سفر أشـعياء — « لأنى هأنذا خالق سموات جديدة وأرض جديدة ، فلا تذكر الاولى ولا تخطر على بال . بل افرحوا وابتهجوا الى الابد فى ماأنا خالق » — وجاء فى الاصحاح السادس والستين من هـذا السفر عينه — « قال الرب كما يحضر بنو اسرائيل تقدمة فى إناء طاهر الى بيت الرب . واتخذ أيضاً منهم كهنة ولاويين . قال الرب لأنه كما أن السموات الجديدة والارض الجديدة التى أنا صانع تثبت أمامى ، يقول الرب هكذا يثبت نسلكم واسمكم » .

الجمهور الانفليكانى (١) بان حافظ عليها فى طقوسة الدينية .

وظن آباء آخرون بان الاجرام السماوية محلات تسكنها الملائكة ، وأن الملائكة تحركها . أما الادريون — Gnostics — فقالوا بانها كائنات روحانية تحركها الملائكة ، وأنها كفت عن أن تدبر حوادث الارض ، ووكل بها أن تشير اليها لاغير

أما البناء السماوى عامة فقد كان معتقد الكنيسة فيه قائما على ما جاء فى التوراة من القول بانه قبة صلبة القوام ركبت فوق الارض ، وأن الاجرام السماوية اضواء معلقة فيها . وظل هذا المعتقد زمانا ما ثابتاً فى روع الناس ، حتى لقد أعان القديس « فيلاسطوريوس » — st.Philastrius — فى مقاله المعروف عن الهرطقة (٢) ، أن انكار القول بان الله يجلب الاجرام السماوية من خزائنه كل ليلة ليعلقها فى السماء هرطقة صريحة . بل زعم بان أى قول مضاد لهذا فيه « انكار للمعتقد الكاثوليكى » . كذلك عاش هذا الزعم فى تلك النظرية المقدسة التى قام « قوزماس » — Cosmas — بترويجها وتثبيت دعائمها فى القرن السادس ، فانه بعد أن أيد نظريته فى السكون بآيات كثيرة استمدها من التوراة والانجيل ، وبعد أن جعل العالم عبارة عن علبة

---

(١) اتباع الكنيسة الكاثوليكية فى انجلترا الذين فضلوا سلطة الملك ومجلس الامة على السلطة البابوية ، ولفظة anglican بهذا المعنى من مصطلحات القرن السادس عشر . (٢) الهرطقة البدعة فى الدين والشيعة يونانيتها هرسس ومعناها الأخذ والمسك . وهى من مصطلحات النصارى . وربما قالوا اراتقة . (محيط المحيط م ٢ص ٢١٧٢)

مستطيلة الشكل ، عظيمة القدر ، مغطاة بتلك القبة الصلبة ، عمد الى التوراة يستمد من نصوصها ما يعلل به حركة الاجرام ، فكون نظرية أن الشمس والسيارات انما تتحرك ، وأن « نوافذ السماء » انما تفتح وتغلق لهذا الغرض ، بايدى ملائكة وكل اليهم تدبير هذا الامر كله .

أما ما كتب « القديس إزيدور » — st- Isidore أكبر رائد الفكر الاورثوذكسى فى القرن السابع فشديد الدلالة على مقدار ما نبتت هذه المزاعم فى روع الناس . فقد مضى معتقداً بأنه منذ خطيئة الانسان الاولى ، وبناء على هذه الخطيئة ،قلت الاضواء التى كانت تنبعث من الشمس ومن القمر . ثم حاول من بعد ذلك أن يثبت بنصوص استمدها من سفر « أشعياء » — Esaiah — أن الانسان متى خلص من أكدار هذه الخطيئة ، فان الشمس والقمر سوف تعود اليهما اضواؤها التى فقداها بخطيئة الانسان ، وسوف يظهران كما كانا من قبل ، بكامل عظمتهما وجلالهما ، وروائع بهائهما . غير أنه على الرغم من أقوال هؤلاء النفاة ، وما بشروا به من الغائيات اللاهونية ، فان نشوء الفكرة العلمية لم يعقه عائق ، ولم يصده صاد ، عن الانبعاث فى سبيله المحتوم ، وقد فرخت جراثيم تلك الفكرة حول « النظرية الجيوسنتريه » Geocentric theory وهى النظرية القائلة بان الارض مركز النظام الكونى ، وأن الشمس وبقية السيارات انما يدرن من حولها .

ذالت هذه النظرية زمانا مديداً حائزة لاكبر قسط من الاحترام والمنزلة فى الصدور . فانها نشأت منذ أزمان موغلة فى القدم ، وظلى

العقل الانساني عاكفاً على تأييدها ، لانها اقرب النظريات انطباقا على حركات الاجرام السماوية الظاهرة للعين المجردة . وقد زادت تسميتها « بنظرية بطليموس » الى قيمتها ، وضاعف من خطرها . ومن أجل أنها ورثت عن العالم القديم ؛ وتقلت عنه الى العالم المسيحي ، مضى « القديس كليمانت » — st-Clement — الاسكندري يرمزها فقال بأن المذبح الذى يوضع عادة فى الهيكل اليهودى انما هو « رمز للارض ووجودها فى وسط الكون » . ولم يحتج إذ ذاك الى شيء أكثر من هذا التصريح النظرية « الجيوسنترية » معتقداً مستفاداً من معتقدات الكنيسة ، لانها « تلائم ظاهر التوراة وتتمشى مع روحها »

على هذا الاساس نفسه قامت نظرية مقدسة أخرى فى حقيقة الكون خلال العصور الوسطى ، حتى انها اعتبرت أثمن كنز تحويه خزائن الكنيسةالعظمى . وزعم أنها آخر ما نزل به الوحى فى حقيقة العالم . على أن هذه النظرية لم تقم فى الواقع الا على شتات من النظريات الكونية التي راجت فى بلاد الكلدان القديمة سوفها ، ومن ثم بثت فى تضاعيف التوراة العبرية .

قام بترويج هـذه النظرية ثلاثة من فحول الرجال . أولهم ذلك الرجل غير المعروف الذى كتب ثلاث المقالات التي تنسب عادة الى « ديونسيوس الاريوباغيطى » — Dionisius areopagite — وسرعان ماشاع الاعتقاد بأن هذه المقالات من منتجات ذلك الاثيني[1] الذى آمن بتبشير « القديس بولص » — st paul — ومن ثم بأنها من عمل

---

(١) هو ديونسيوس الاريوباغيطى .

« القديس بولص » نفسه . على أن هذه المقالات على الرغم مما ظهر من البراهين الناصعة على أنها منتحلة ، مدسوسة على الذين نسبت اليهم ، فانها اعتبرت ، في عهد ذيوعها ، من كنوز الوحي والالهام ، حتى لقد أرسلها امبراطور شرقي الى امبراطور غربي ، كأثمن ما يهدى ، وأجل ما يمنح . وفي القرن التاسع ذاعت تلك المقالات في غربي أوروبا ذيوعاً كبيراً ، فأصبحت منبعاً فياضاً ينضح بصور الفكر ، وعلى الاخص في حقيقة النظام السماوي . وبهذا تضخمت الفكرات القديمة التي ذاعت في علم الفلك وانتفخت ، الى حد أن رتبت كوكبات السماء ، بل سميت ، على مقتضى الاشارات التي تناثرت بين دفتي الكتاب المقدس .

اما ثاني أولئك العظماء الذين أشرنا اليهم فهو « بطرس لومبارد » — « Peter Lombard » — الذي كان استاذاً في جامعة باريس . فانه في أواسط القرن الثاني عشر اذاع مجموعته التي أسماها « الجمل » — Sentences جامعاً فيها أقوال آباء الكنيسة ، فظلت هذه المجموعة أثبت متن للاهوت حتى نهاية العصور الوسطى . وفيها عنى عناية خاصة بأمر تلك الفكرة اللاهوتية التي تكونت حول علاقة الانسان بالكون المحيط به فقضى بانه — « كما أن الانسان قد خلق من أجل الله ، أي من أجل أن يخدمه ويخضع له ، كذلك لم يخلق الكون الا من أجل الانسان ، أي من أجل أن يسخره ويقوم بخدمته . وعلى هذا ينبغي أن يوضع الانسان في مركز الكون الاوسط ، حتى يستطيع أن يخدم الله ، وأن يسخر الكون لخدمة نفسه » .

اما مقدار ما كان في هذه النظرية من خطر ، وما احتوت من قوة ،

صارعت علم الفلك اليقيني ، فذلك ماسوف نعود الى الكلام فيه ، وعلى الاخص لدى الكلام فى عصر « غاليليو » — Galileos

أما آخر حلقة من ثالوث هؤلاء المفكرين فانتهت بالنابغة القديس « توماس اكويناس » — st Thomas Akiunas ، ذلك القديس اللاهوتى ، فخر الكنيسة فى العصور الوسطى والحكيم الانجيلى (١) ، الذى حاز أكبر عقل جادت به الطبيعة على انسان منذ عصر ارسطو طاليس حتى عصر « نيوتن » — Newton — هو ذلك الرجل الذى اعتقد أهل زمانه بان شبح المسيح مصاوبا قد تحدث اليه بكلمات عبر بها عن اعجابه بما خطت يراعته . كان كبير العقل ، صلب القناة ، حاد الطبع ، غير انه كان عادلا ، بل أكثر من عادل ، فى تقدير معارضيه ، واحترام مناظريه . أخرج فى النصف الاخير من القرن الثالث عشر موسوعته اللاهوتية — Summa Theologia — وفيها توسع فى شرح النظرية المقدسة فى الكون بما بلغ بها النهاية والتمام . ولقد استطاع بما أعطى من قوة العقل والقدرة على التعبير فى أبسط الاساليب ، أن يطبق تلك النظرية الكونية الفجة ، من الوجهتين المادية والروحية ، على العلاقات الواقعة بين الله والناس .

على هذه الصورة بنيت تلك النظرية الكبرى مصبوبة فى ذلك القالب الذى كونته عقول ثلاثة من رواد الفكر الانسانى فى العصور الوسطى . وعقب عليهم ذلك الرجل الفذ بل النابغة الاوحد ، الذى

---

(١) الطبيب الملكى — نسبة الى الملائكة — أو الحكيم الانجيلى ، لقبان للقديس توماس اكويناس .

استطاع أن يغذى دوحة ذلك المعتقد بما جعل جذورها القوية تمتد الى أبعد أغوار الفكر الاوروبى ، ذلك الشاعر الذى أمده الوحى القدسى بتأييد جعل به تلك النظرية جزء من حياة العالم الحافل به ، فالسماوات العليا — عليون — والسماء المتراكزة — ذات المركز — والجنة والمطهر وجهنم ، قد صورتها عبقرية الشاعر « دانتى » — Dante — تصويراً جعل الناس يرونها بعين الخيال ، كأنهم يرونها بعين الحقيقة . تخيلوا الله فى توحيده الالوهى مستوياً على عرشه فوق دائرة الفلك ، كأن ذلك كان حقيقة واقعة ، كما يروا البابا مستوياً على عرش القديس « بطرس » ، وتخيلوا سيراف والكروبيم (١) والملائكة المزدوجة الاجنحة التى تمثل حملة عرش الله ، يحوطون الواحد القهار ، كما يروا الكرادلة من حول البابا فى أبهته وعظمته . وتصوروا الدرجات الثلاث التى تنزلها الملائكة فى السماء ، كما يروا الدرجات الثلاث التى ينقسم اليها رجال الكنيسة من أساقفة وقساوسة وشمامسة فوق الارض ، ورأوا فى مجموعة النظام الجرمى ، وفى دورة كل جرم من الاجرام فى دائرة فلك الجرم الذى يساويه ، وفى دورة الكل من حول الارض ، مع خضوع ذلك النظام لارادة « المحرك الاول » primum mobile — كما يروا النظام الاقطاعى فى غربى أوروبا وفى خضوع كل ذوى الاقطاعات للامبراطور الاعظم .

---

(١) من الاصحاح السابع والثلاثين من سفر اشعياء — « وصلى حزقيا الى الرب قائلا — يا رب الجنود إله اسرائيل ، الجالس فوق الكروبيم ، انت هو الاله وحدك لكل ممالك الارض » .

ولننظر الآن فى ذاك الوهم الأكبر ؛ وهو أعظم ما كونت الفكرة اللاهوتية فى تاريخ الدنيا ؛ نظرة أدق وأعمق .

أن أول ما يأتى فى روعنا هو أن نظام الكون المقدس ليس سوى تفصيلا لما أضمرت ، وتصحيحا لما صفرت ، تلك الفكرات اللاهوتية التى راجت فى الأزمان الاولى . فلم تصبح الارض ذلك السهل المنبسط المحوط بأربعة جدران تعلوها قبه صلبة القوام ، كما اعتقد لاهوتيو القرون الاولى تحت تأثير « قوزماس » ، ولم تمس قرصاً منبسطاً تعلوه الشمس والقمر والنجوم لتمده بما يحتاج اليه من ضوء ، كما صورها فنانو الكاتدرائيات الاولى ، بل أضحت كرة كائنة فى وسط النظام الكونى ، يحيط بها عدة أفلاك كروية شفافه تديرها الملائكة حول محورها ومن حول الارض ، وكل منها يحوى جرماً أو أكثر من أجرام السماء . فالاقرب فلك الارض ويحمل القمر ، ومن بعده فلك عطارد ثم فلك الزهرة ثم فلك الشمس ، ثم الثلاثة التى تلى هذه وهى فلك المشترى ، وفلك المريخ وفلك زحل . والفلك الثامن يحوى النجوم الثوابت ، والتاسع هو فلك « المحرك الاول » — primummobile — ويحوى الكل الفلك العاشرة ، أو فلك عليين ، وهذا غير متحرك ؛ وهو الحد الفاصل بين الخلق الكونى المنظور وبين الخلاء الخارجى اللامتناهى . وهنالك فى ضوء يخطف البصر ولا يستطيع أحد الدنو منه ، يستوى الله فى وحدته الالوهية فوق العرش حيث ترنم اليه « موسيقى الافلاك » اذ هى تتحرك . وعلى هذا

ترى أن الفكرة الوثنية فى حقيقة الافلاك قد انقلبت الى فكرة مسيحية ، منبثة فى تضاعيف الدين النصرانى .

ويقوم على خدمة « الجلالة القدسية » فوق عرشها المعظم ، جماعات من الملائكة وافرات العدد ، تنقسم فى ثلاث منازل أو درجات . الجماعة الاولى تقوم بالخدمة فى عليين ، والثانية فى السماوات ، أى بين عليين والارض . والثالثة فوق الارض نفسها .

وكل من هذه المنازل تنقسم الى ثلاث مراتب : الاولى تتضمن مراتب سيراف والكروبيم والملائكة المزدوجة الاجنحة التى تمثل حملة العرش . والمهمة التى يقوم بها هؤلاء هو الغناء المستمر وترتيل الحمد الدائم لله . اما حملة العرش فنوط بها حمل ارادة الله الى الدرجة الثانية التى يخدم أفرادها فى الافلاك المتحركة . وهذه الدرجة الثانية تتكون من ثلاث مراتب . الاولى مرتبة الدومنيون ، وهى التى تتلقى الاوامر الالهية . والثانية مرتبة القوات التى تحرك الافلاك كالشمس والقمر والسيارات والنجوم وتفتح نوافذ السماء وتغلقها ، وتدبر كل الظاهرات السماوية الاخرى . والثالثة مرتبة الحفاظ وغيرهم

أما الدرجة الثالثة ، وهى أسفل الدرجات الملائكية ، فتتكون من ثلاث مراتب أيضاً . الاولى مرتبة الرؤساء وفيها حفظة الامم والدول . وبعدها مرتبة رؤساء الملائكة . وهؤلاء يقومون على حفظ الدين ويحملون ابتهالات القديسين وصلواتهم الى أعتاب عرش الله ، والثالثة الملائكة العاديون وهؤلاء يوكل اليهم امر العناية بالاشياء الارضية عامة ، ويناط كل منهم بواحد من أبناء آدم ، ويناط آخرون

بالحرص على صفات النباتات وأنواعها ، ثم المعادن والاحجار وما شابه ذلك . وفى خلال هذا النظام كله ، من عرش الله الموحد الثالوث الى أحط مراتب الملائكة ، تجد اسطورة القوة والتأثير المنسوب الى « المثلث » ذلك الشكل الهندسى البسيط ، والى العدد « ثلاثة » . وهى بذاتها تلك الاسطورة التى أوحت بفكرة التثليث لواضعى اللاهوت الهندى القديم ، ومنها نشأ معتقد التثليث عند قدماء المصريين ومن ثم نقلت هذه الهبة اللاهوتية الى العالم المسيحى . وعلى الاخص من طريق « اثناسيوس » – Athnasius – المصرى

ومن تحت الارض تكون جهنم . وهى مثوى الملائكة الذين عصوا وثاروا تحت إمرة « إبليس » ، أمير سيراف ، وصفى الله من قبل . ولكن من بين أولئك العصاة فئة لاتزال ترود أفلاك السيارات وتسبب للملائكة المطيعين المنيبين ألماً وعذابا . فى حين أن غيرهم يغشون جو الارض فيرسلون عليها الصواعق والزوابع والقحط والجليد . وغير أولاء وهؤلاء عصبة خصت باغراء الجماعات الارضية يدفعونها الى ارتكاب الرذائل والآثام . اما الاستاذ « بطرس لومبارد » والقديس « توماس اكويناس » فقد جهدا نفسيهما كل جهد ، لكى يثبتا أن عمل هذه العصبة الشيطانية إنما يقصد به تنظيم أعمال الانسان ، وتحديد العقوبات التى يستحقها العصاة تحديداً صحيحا ، وعلى قسطاس مستقيم .

كل هذا النظام المعظم قد دس على المذهب البطليموسى باحكام كبير ، حيث استعان الآباء فى سبيل ذلك بالمتون الانجيلية وباساليب التفكير اللاهوتى ؛ ولم يكن لذلك من نتيجة اللهم الا الاعتقاد بان نظام

الكون على هذه الصورة قد أصبح غير قابل للتعديل ولا التحوير ، وأنه غائى لاسبيل الى ادحاضه ، وأن القول بما يضاده أو تعمد نقده ، هرطقة صريحة وكفر بالله .

وظل هذا النظام ثابت الدعائم قروناً عديدة . حتى أن كثيراً من جهابذة اللاهوتيين مثل «فنسنت بوفييه » — Vincent of Beauvais — والكردينال « دايلى » — cardinal d' Ailly — قد وقفا كل جهدهما ليظهرا أن هذا النظام تعززه نصوص الكتاب المقدس ، لا بل ليثبتا أنه يزكى التوراة والانجيل .

وعلى هذا ترى أن « النظرية الجيوسنترية » قد امتدت أصولها الى صميم النصرانية ، بل الى أعمق معتقداتها وآمالها ومخاوفها ، وظلت كذلك حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادى .

*
* *

١ — النظرية الهليوسنترية

نشوؤها في العقل اليوناني — فيثاغورس — فيلولاوس — ارسطارخس — مصادرتها بحجة الكفر بالله والتجديف — احتجابها ستمائة سنة ، ثم الف أخرى — احياؤها من طريق نقولاوس دي كوزا ونيقولا كوبرنيكوس — تسامح الكنيسة ازاءها باعتبارها نظرية فرضية — تحريمها بمجرد قيام غاليليو بتعليمها على أنها نظرية صحيحة — خوف الباحثين من بعد ذلك — اكوسنا — آبيان — البروتستانت ليسوا باقل حماسة في مقاومة النظرية من الكاثوليك — لوثر — ميلانكتون — كالفن — تريتان — شدة المعارضة في انجلترا — هتشنسون — هورن — هورسلي — فوربس — أوين — ويزلي — التدخل في حرية التدريس — جرأة جيوردانو برونو وختامه — منظار غاليليو يظهر الحق عياناً .

***

منذ عهد بعيد ، فرخت في العقل الانساني جراثيم « النظرية الهليوسنترية » Heliocentrictheory أي النظرية القائلة بأن الشمس مركز النظام الكوني . ففي القرن السادس قبل الميلاد قال « فيثاغورس » — pythagoras — ومن بعده « فيلولاوس » — philolaus — بنظرية أن الارض والسيارات انما تدور من حول « نار مركزية » . ومن بعد ذلك بثلاثة قرون عمد « أرسطارخس » — aristarchus — الى تقرير هذه الحقيقة بكثير من دقة التدليل وقوة البرهان . وفي ذلك حجة ناهضة على أن تنازع البقاء بين الاساويين ، اللاهوتي والعلمي ، غير قاصر على النصرانية . فان ماقرره « أرسطارخس » من حقائق العلم كان سببا

فى أن يرمى بتهمة الزندقة والكفران، فغشيت سماء العلم غمامة كثيفة من الحقد والكراهية حجبت أنوارد ستة قرون أخرى . ولم تلمع شمس هذه الحقيقة مرة ثانية فى سماء الفكر الا فى القرن الخامس من التاريخ الميلادى، حيث ظهرت فى تأملات «مارتيانوس كابيلا» Martianus capella غير أن أضواءها حجبت ثانية وطالت محجوبة ألفاً من السنين، حتى أشرقت ثانية فى غضون القرن الخامس عشر، ولكن واهنة ضعيفة، فى عقل الكردينال «نيقولاوس ده كوزا» Nicolas de cusa منبثة فى تضاعيف ما ألف من أسفار .

غير أن ذلك النظام الكبير الذى أنبتته عقول عظماء اللاهوتيين، وعضدته تلك الصيحات العالية التى انبعثت من قلب «دانتى»، قد أثرت فى نشر هذه الفكرات الصحيحة تأثيراً أعاقها عن أن تنمو، وأن تؤتى أكلها .

ولقد أخذت عناصر العقل الانسانى تزداد خصباً، وفراغه يزداد امتلاء . فان الاساليب التى اعتمدت عليها الرياضيات كانت قد مضت فى التهذب والارتقاء، وأخذ النظر يمتد من خلال العدسات الزجاجية الى الاجرام السماوية . وما بلغ العقل الانسانى هذا المبلغ، حتى ظهر فى منقطع العمران الاوروبى وعلى حدود «بولاندا» طالب من طلاب العلم واسع النظر طيب القلب، أمكنه بما وهب من كفاءات أن يبشر للعالم الحديث بالحقيقة الناصعة — تلك الحقيقة التى نراها اليوم ضرورة أولية وكانت اذ ذاك من المدهشات الخارقة للقياس — حقيقة أن الشمس لاتدور من حول الارض، بل ان الارض وبقية السيارات هن اللائى

يدرن من حول الشمس . ذلك الطالب هو « نيقولا كوپرنيكوس »
Nicolas copernicus

كان « كوپرنيكوس » استاذا فى « روما » وقد أعلن نظريته هذه هنالك منذ سنة ١٥٠٠ ، ولكن بطريقة تشعر بأنها غريبة من غرائب العلم ، أو أنها قول من الاقوال التى يناقض ظاهرها الحقائق الواقعة ، كما كان شأن الكردينال « ده كوزا » لدى الكلام فيها من قبل ، فلم يروجها بين الناس على اعتبار أنها مذهب علمى يعبر أصح تعبير عن حقيقة من حقائق الطبيعة العظمى . وبعد ذلك بثلاثين عاما قام « ودمانستاد » ـ wedmanstadt ـ احد تلاميذ « كوپرنيكوس » يشرح هذه النظرية للبابا « كليمان السابع » . ولكنها ظلت حتى ذلك العهد عبارة عما لا يخرج عن حيز الظن والتخمين ، وسرعان مانسيت هذه النظرية وأسدلت عليها أستار كثيفة من نزعات ذلك العصر . غير أن « كوپرنيكوس » لم ينسها ، وظل يدرسها درساً عميقاً ، فكان كلما استعمق فى درسها أخذت أنوار الحقيقة تشع فى عقله شيئاً فشيئاً ، حتى تصور أن حمل هذه الحقيقة الكبرى فى طيات عمله وبين نياط قلبه ، لا يتفق مع مايطلب من الأمن والسلام فى جو « روما » المفعم بالتعصب ، المملوء باستبداد التقاليد . ولقد أيقن بأن اعلان هذه الحقيقة على انها نظرية تخمينية أو على أنها زعم يناقض ظاهره الحقائق الواقعة ، قد يمكن أن يكون شيئاً يلهو به رجال البلاط البابوى . أما اعلانه إياها على أنها حقيقة ، بل على أنها الحقيقة ، فأمر يخالف الاول مخالفة تامة . لهذا تراه يعود أدراجه الى قريته الصغيرة من أطراف « بولاندا » تارة أخرى .

وكان على يقين من أنه نشر فكرته هذه كما تكونت فى عقله اذ ذاك ، أمر لا يخلو من خطر ماحق ، حتى فى قريته المنعزلة عن عمران العالم الاوروبى . لذلك ظلت هذه الفكرة ثلاثين سنة أخرى ؛ جاثمة فى خلايا عقله الكبير وفى عقول أولاء من أصحابه الاخصاء ، الذين أفضى اليهم سراً بما كان يوحى اليه به ذهنه من آيات الحق الثابت .

وكانت النتيجة أنه أتم كتابه الكبير « حركات الاجرام السماوية » Revolationo of the Heveuly Bodis وأهداه الى البابا نفسه . وفكر من بعد ذلك فى مكان يستطيع أن ينشر فيه كتابه . فلم يجرأ أن يرسله الى روما وهنالك تجثم عصابة من رءوس الكنيسة القديمة مرتقبون لمصادرته . ولم يستطع أن يرسل به الى « ويتنبرج » ـ Wittenburg ـ وهنالك رءوس البروتستانت . وما كانوا فى ذلك الزمان بأقل عداء لحقائق العلم من زعماء الكنائكة . لهذا عهد بالكتاب الى رجل يدعى «أوسياندر» ـ Osiander ـ فى نورمبرج .

غير أن شجاعة « أوسياندر » خانته . ولم يستطع أن ينشر الفكرة الجديدة بما يحتاج اليه ذلك العمل من إقدام وبسالة . فكتب مقدمة دنيئة حاول أن يعتذر فيها عن « كوبرنيكوس » تافاء فكرته هذه ، بل اختلاق عليه من الفكرات ما خيل اليه أن يكون عذراً مقبولا ، فقال بان « كوبرنيكوس » لم يحاول نشر هذا المذهب على أنه الحقيقة ؛ بل على أنه مجرد نظرية تخيلية لاغير ؛ معلنا أنه مما لا يخرج عن طوق القانون أن يرسم فلكى مع موحيات خياله وتصوره ؛ وأن

مثل « كوبرنيكوس » فى كتابه لا يخرج عن هذا

وعلى هذا ترى أن أعظم الحقائق العلمية شأناً ، بل أكبر ما كشف العقل الانسانى من نظام الطبيعة خطراً وجلالا ، تلك الحقيقة العظمى التى تسمو بالدين بقدر ما تسمو بالعلم ، لم تخترق طريقها الى عالم المعرفة الانسانية الا متسللة خفية ، دابة دبيب الزواحف بين عقبات من العقائد الزائفة ، وأشواك من التقاليد

فى الرابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٥٤٣ ، وصلت أول نسخة من الكتاب مطبوعاً الى حيث كان يقيم « كوبرنيكوس » ولما أن وضعت النسخة بين يديه كان الجهبذ الكبير محتضراً على فراش الموت . وبعد بضع ساعات كان بعيداً عن هذا العالم ـ بل بعيداً عن أن تصل اليه أيدى أولئك الاتقياء الذين ربما كانوا قد هدموا مجده هدماً ، واذاقوه الموت ألواناً ، لو لم تعجل به الى العالم الثانى خطاه

غير أنه لم يكن بعيداً عن أن تناله الايدى الفاجرة بأثمها . فان الموت نفسه لم يكف لان يكون حجاباً يحجب عنه الاذى والكفران . والظاهر أنهم خافوا أن ينزلوا العقاب المادى بالجثة الهامدة ، فاكتفوا بان لا يذكر على شاهد قبره شيئاً عن جهوده العظيمة التى بذلها فى حياته ، ولا أن يشار بحرف واحد الى استكشافه العظيم ، وأن ينحت على قبره دعاء قال فيه واضعه — « اللهم انى لا أسألك غفراناً كما غفرت لبولص ، ولا احساناً كما أحسنت الى بطرس ، ولكن اسألك ان تنعم على كما انعمت على اللص وهو معلق فوق صليب الاعدام » . ومضى

على ذلك ثلاثون عاماً ، تجرأ بعدها صديق من اصدقائه ، ان يحفر على قبره تذكاراً يشير الى استكشافه العظيم .

ان المقدمة التى وضعها « أوسياندر » والتى ادعى فيها أن « كوبرنيكوس » قد أذاع ماأذاع على أنه نظرية تخيلية ، لاعلى أنه حقيقة يؤمن بها ، قد أدت الى كل ماخيل اليه أنها سوف تؤدى اليه . فقد قطع رءوس الكنيسة من الزمان حقبة لايقل مداها عن السبعين عاما وهم يفضلون أن لايثيروا من حول الكتاب عجاجة ؛ حتى لقد استطاع أساتذة من أمثال « كالجانينى » ـ Calganini ـ أن يلقنوا المذهب الجديد على أنه نظرية فرضية . وعلى الرغم من أن اللغط كان كثيراً مايرتفع من حول هذا الاستكشاف فى الدوائر اللاهوتية بين حين وحين ، فان الرجل لم ينفجر الا فى حدود سنة ١٦١٦ . ذلك لان المذهب كان قد تركز فى عقل « غاليليو » العظيم ، فاعتقد أنه حق ، وأن لاحق غيره ، وأخذ يذيعه ويدفع عنه ، بل مضى يبرهن على أنه حق مستعيناً بالتلسكوب ، فصادرت الكنيسة الرومانية الكتاب ، على اعتبار ان كل ما قرره كوبرنيكوس فى كتابه لا ينال رضاها ، او يصحح بما يوافق مشتهياتها . ولم يكن ذلك التصحيح عندهم الا الرجوع عن الحق الثابت الى تلك الخيالات الوهمية التى كانت تدعى ظلما بنظرية « بطليموس »

ولا ينقصك على انهم لم يقصدوا بالتصحيح سوى هذا النكوص من دليل ، فلديك الادلة ناطقة فيما اتوا من فعل فى ذلك العام الذى منع فيه « غاليليو » عن ان يلقن علم الفلك او يناقش فيه مستعينا بقواعد

« كوبرنيكوس » ، وعندما حظروا ذيوع كل كتاب يبشر بدوران الارض . وعلى هذا أصبحت قراءة كتاب « كوبرنيكوس » إثم لا يوازيه من عقاب سوى اللعنة الابدية ، وقبل الناس أن يعضوا لهذا القرار خاضعين مهطعين مقنعي رؤوسهم

لهذا خضعت أكبر العقول وأرشد الاحلام . فانهم وان لم تطاوعهم موحيات عقولهم على أن يؤمنوا بالنظام القديم ، فلا أقل من أن يتظاهروا بانهم به مؤمنون . ولقد حدث هذا حتى بعد أن فتح الطواف حول الارض للعيون منفذا تنفذ منه الى الحق ، وفرجة ترى منها سبيل الرشاد . ومهما يكن من أمر فان مثل المبشر اليسوعي « يوسف اكوستا » — Joseph acosta — لمثل رائع . فان كتابه (تاريخ جزر الهند طبيعياً وأدبياً) ، الذى نشر فى الربع الاخير من القرن السادس عشر ، قد هدم كثيراً من القواعد التى كان يرتكز عليها عديد وافر من الاخطاء الفلكية والجغرافية . ففى ذلك الزمان الذى قنع فيه العقل بالنقل ، ومضى منبتاً للتقاليد ؛ أوحى ذلك المبشر لاهل الارض بحقائق من العلم أمعن فى التبشير بها الى أبعد حد ذهبت اليه شجاعته ، وانتهت بسالته ، غير أنه ارتد ازاء حركة الاجرام السماوية محافظاً محضاً ، اذ أعلن فى غير رهبة ولا خجل انه — (رأى بعيني رأسه القطبين اللذين تدور عليهما السماوات كما تدور الرحى على قطبيها » .

عاش فى أوروبا فى ذلك العهد رجل واحد هو (بطرس آبيان) — Peter apian — كان فى مستطاعه انه يخدم قضية العلم ، وان يصد تيار

تلك الفكرات البعيدة عن حكم العقل ، النازلة على حكم الهوى والتقليد ، والتى كان من شأنها ، ان ظلت متدافقة ، ان تذهب بكثير من عظماء الرجال من ميدان التفكير العلمي الصرف ، كما تكتسح كثيرين من أحضان النصرانية . كان « آبيان » رياضياً عظيما ، وفلكيا ثبتا ، فى عصره . ولقد اهابت به مواهبه وكفاياته ، لأن يصبح معلما فى الفلك للامبراطور « شارل الخامس » . Charles V ـ وكان مؤلفه فى الجغرافية سبباً فى أن يذيع صيته ، ويرتفع ذكره ، كما كان مؤلفه فى الفلك طريقا تنسم منه مراتب الشرف . أما ما أدخل على الرياضيات من الاساليب المستجدة ، وما اخترع فى خدمة علم الفلك من آلات ، فقد نال به ثناء « كبلر » ، كما تبوأ به مكانة فى تاريخ العلم لا يمحو ذكرها كر الدهور ، وتلاحق العصور . ولقد أتيحت له فرصة كان من الواجب أن ينتهزها لكى يؤدى بها للانسانية خدمة لم يؤدها . فانه لما ظهر كتاب « كوبرنيكوس » كان « آبيان » فى أوج العظمة والقوة . وان دفاعا يكتبه « آبيان » فى هدوئه وصادق يقينه ، حتى لو كان المقصود به معروف بسدى ، أو ظلم يمنع ، لمن المحقق أن يثمر وأن ينتج نتاجا . وكان من الواجب على تلميذه الصادق الود له ، شارل الخامس ، وهو على عرش المانيا واسبانيا معا ، أن يصغى لقولة يقولها ، وان يصيخ لدفاع يتحرك به فاهه غير أنه اسوء الحظ كان استاذاً فى معهد خاضع لاقسى التقاليد الكنسية . ذلك المعهد هو جامعة « أنجواستاد » Engolstadt ـ وكان من أول واجباته أن يلقن مبادىء العلم « السامى » ويقصد بذلك عدم الخروج بالعلم عن نطاق ما ينص عليه الكتاب

المقدس كما فسره اساتذة اللاهوت . فاضاع بذلك « آبيان » فرصة كان من الواجب ينتهزها ليدفع عن حقائق العلم ظلم الجهالة والعتو . ومضى هذا العلامة يلقن مبادىء علم الفلك على حسب نظرية «بطليموس» وحسب موحيات« الاسترولوغيا » . وظل أزاء نظرية «كوبرنيكوس» محايداً ، لا مؤيداً ولا منكراً ، بل ظل صامتاً . أما الاسباب التى أدت الى صمته العميق وقبوعه فى قاعة محاضراته ساكتاً ، فان تنسى ، ولن يغفل عنها باحث فى تاريخ العلم ، طالما ادعت أية من الكنائس أن من حقها أن تتحكم فى برامج التعليم فى الجامعات .

وما من شك فى أن الكثيرين من الجائز أن ينحوا على الكنيسة الرومانية باللوم من أجل هذا . ولكن الحق أن البروتستانت لم يكونوا بأقل تحمساً فى العمل ضد مبادىء العلم الحديث مما كان اضدادهم . فكل فروع الكنيسة البروتسنانية ، لوثريون ، وكلفينيون ، وانغليكانيون ؛ قد تكاتفوا على مقاومة المذهب « الكوبرنيكى » وهم معتقدون أنه مناقض لنصوص الكتاب المقدس . وأخيراً انضم اليهم البيوريتانيون ـ Puritans — سالكين مسالكهم متتبعين خطاهم

قال مارتن لوتر ـ « يصغى الناس الى منجم مأفون يحاول أن يثبت أن الأرض تدور ، وليس كذلك السماوات والافلاك والشمس والقمر . ولا جرم أن كل من يريد أن يحوز شهرة اللباقة والنهى ؛ يحاول أن يبنى مذهباً جديداً زاعماً انه أصح المذاهب وأصدق الحقائق . غير أن هذا الممسوس يريد اليوم أن يقلب قواعد علم الفلك رأساً على عقب

فى حين أن نصوص الكتاب المقدس تدل على أن « يوشع » قد أمر الشمس أن تقف ، ولكنه لم يأمر الارض »

أما« ميلانكونون » ـ Melancko'on ـ فان وداعته قد حالت دون أن يقتفى خطوات« لوثر » فى أن يرى « كوپرنيكوس » بالكفر بل قال فى مقاله المعروفة بعنوان عناصر الفوسيقى ـ Tle Elements of physics ـ والتى طبعت بعد موت « كوبرنيكوس» بستة أعوام مانصه:

«إن أبصارنا نشاهد السماوات تدور فى مدى أربع وعشرين ساعة . غير أن أناساً دفع بهم حب التبشير بالجديد ، أو حب الشهرة ، قد أذاعوا أن الارض تتحرك ، وأنه ليس كذلك الفلك الثامن ولا الشمس . أما إذاعة مثل هذه المبادىء علناً ، وبثها فى الناس عياناً ، فليس من سمو الهمة ولا من الامانة فى شىء ، لان ذلك يعطى الناس مثلا خطراً مبغوض النتائج . والواجب على الرجل الذى يطلب الخير ، أن لا يحيد عن الحق كما أنزله الله فى كتابه وأن يخلد له » .

ومضى« ميلانكوتون » بعد ذلك ذاكراً مقطوعات من المزامير والمتون الكنسية ، رأى أنها تؤيد بجلاء وصراحة مذهب ان الارض ثابتة تماماً وأن الشمس تدور من حولها ، مضيفاً الى ذلك ثمانية براهين أخرى أيد بها زعمه ، مستخلصاً منها ـ « ان الارض لا يمكن أن تكون فى مكان مالم تكن فى وسط الكون » . ولقد أمعن ذلك الرجل ، وهو فى نظرنا من أودع المصاحبن ، فى القول بان من الواجب أن نفرض عقوبات شديدة تصد الذين يريدون أن يبشروا للناس بتعاليم « كوبرنيكوس » عن تبشيرهم ، وتزجرهم عن غيهم .

وبينما ترى أنصار المذهب « اللوثرى » قائمين يناوئون مذهب دوران الارض ، بل ويرمون كل مؤيد له بالكفر والهرطقة ، اذا بك ترى شعباً أخرى من شعب الكنيسة البروتستانتية يتسابقون فى تلك الحلبة متناهين . وتبوأ كالفن بكتابه «تعليقات على سفر التكوين» مكان زعامتهم ؛ إذ أعان كفران كل من يقول بأن الارض ليست فى مركز النظام الكونى . وبدأ القول بالاشارة الى أول مقطوعه من المزمور التاسع والثلاثين ثم تساءل ـ « من من الناس يجرأ على ان يضع سلطة « كوبرنيكوس » فوق سلطة الروح القدس » . أما « تريتان » ـ Territin ـ خليفة « كالفن » المعروف ، فانه أذاع ، حتى بعد أن مكن « كبلر » و « نيوتن » لنظرية « كوبرنيكوس » و « غاليلو » وأتماها ووضعا لها قواعدها الثابتة ، مختصره اللاهوتى ، محاولا أن يثبت مستعيناً بكثير من نصوص الكتاب المقدس ، أن السماوات والشمس والقمر إنما يدرن من حول الارض ، التى هى ثابتة فى مركز النظام الكونى .

وانك لتقع فى انجلترا على مثل من ذلك الجهد اللاهوتى ، حتى بعد أن اثبتت التجاريب أنها جهود بائرة لا نتيجة لها . فان «هتشنستون» ـ Hutchinson ـ فى كتابه «مبادىء موسى» ودكتور «صموئيل بيك» ـ Dr Samuel pike ـ فى كتابه «الفلسفة المقدسة» و «هورن» Horn ـ والاسقف «هورسلى» ـ Horsely ـ والرئيس فوربس ـ President Forbes ـ فى كتاباتهم الكثيرة ، قد قاوموا مبادىء نيوتن كل مقاومة ، بل هاجموها مستعينين على نقضها بنصوص الكتاب المقدس ، وكذلك

دكتور ، جون اوين ، John owen ـ وهو علم من أعلام المذهب البيورتياني Puritanism فانه اعان ان نظام كوبرنيكوس ، لبس باكثر من خيال وفرض ، مناقض لنصوص التنزيل ؛ . ولم تعد تلك القاعدة ، جون ويسلي ، John Wesley فانه اعلن ان الآراء الفلكية الجديدة ـ ، انما تسوق الى الكفر والالحاد .

ولم يكن عوام البرتستانت بأقل من الكاثوليك حظًا في اتباع مثل هذه التعاليم . فان أهل مدينة « البنج » — Elbing — قد اعتادوا أن يلهوا بمشاهدة رواية هزلية جعل فيها « كوبر نيكوس » موضع السخرية والاستهزاء . وكذلك سكان « نورمبرج » — Nuremburg — وهي من قلاع البروتستانت الحصينة . فقدصنعوا مدالية كتبت عليها عبارات خص فيها الفيلسوف ونظريته باشد عبارات التهكم والازدراء .

اما السبب الذي حدى بالناس لأن يقفوا ذلك الموقف من « كوبر نيكوس » وتعاليمه ، فيتضح لنا جليًا اذا نحن عرفنا موقف حفظة العلم وخزنة المعرفة ، بروتستانت وكاثوليك ، في ذلك العهد . فان موقفهم اذ ذاك يفسر لنا شيئًا من أصل تلك الدعوى المريضة التي يصبح بها محدثو اللاهوتيين زاعمين أن من حقهم أن يضعوا قوامين على التعاليم العام ، وأن يظلوا قابضين على زمام الخطا التي يخطوها العلم في نشوئه وارتقائه ، واختلاف متجهاته . ولقد كان لهم اهتمام كبير بما كانوا يسمونه « بالتعاليم السليم » من طريق « العلم السامي » ، حتى إنك لتجد في كثير من الجامعات ، حتى أواخر القرن السابع عشر ، اساتذة قروا على أن

يقسموا بأنهم لن يؤمنوا بالفكرة «الفيثاغورية » أى الكوبرنيكية — الخصيصة بحركات الاجرام السماوية . ولما أن اشتد أوار المعركة وتأججت نيرانها ، منع الاساتذه من أن يلقنوا تلاميذهم شيئاً مما كان يكشف عنه التلسكوب . وكانت تصدر الاوامر بذلك من السلطات الكنيسة إلى الجامعات فى «بيزا » « وانسبروك » « ولوفان» «ودوى » — Douay . وسلامانكا وغيرها . وقد نرى أن رؤوس تلك الجامعات قد مضوا افخورين اجيالا متعاقبة بأن جامعاتهم ظلت بريئة من تلك الفكرات المضادة للوحى ، وأنها لم تلقن لطلابها . على أنه ليس فى سماعك أن هذه الأقوال كانت من مفاخر العلماء فى ذلك العهد من الغرابة ، بقدر مافى سماعك أن بعض السلطات القائمة على العناية بأمر التعليم فى أكبر الجامعات الحديثة تفخر بأنها لاتشجع طلبتها على قراءة كتب « مل » Mill « وسبنسر » . Spencer « وداروين » Darwin ولم تقتصر الجهود على أن يحتفظ بالمعاهد الكاثوليكية الرومانية سليمة من أن تغزوها هذه التعاليم لاغير ، بل انك لتعجب ، ويحق لك أن تعجب ، إذ تعرف أن الحقائق التى بثها « كوبرنكوس » فى مذهبه لم يعن معهد بأن تظل بعيدة عنه بقدر ماعنى معهد «ويتنبرج » — Wittenburg — جامعة «لوثر » و« ميلا نكتون » .

فى أواسط القرن السادس عشر عاش فى «ويتنبرج » ، مركز الدعاية البروتستانتية ، فلكيان كلاهما حاز شهرة واسعة وصيتاً بعيداً ، هما « رتيكوس » — Rheticus — « ورينولد » — Reinhold — وكلاهما درس مذهب « كوبرنيكوس » واعتقد بأنه حق ، ولكن لم

يسمح لهما بأن ياقنا ذلك الحق النابت لطلابهما . فلم يستطع «ريتيكوس»، لا في محاضراته ولا في مؤلفاته التي نشرها، أن يذيع المذهب الجديد. ولما ضاق بذلك ذرعاً، ترك منصب الاستاذية في «ويتنبرج» حتى يتاح له أن يبحث حراً وراء الحقيقة، وأن يذيعها. ولم يك «رنيولد» بأسعد من زميله حظاً. فانه فضلا عن اقتناعه وإيمانه بصحة المذهب الجديد كان مقسوراً على ان يدافع عن القديم الفاسد، وان ياقنه لطلابه، وكان مجبراً على ان لا يذكر الفكرات، الكوبرنيكية، الا لينصر عليها فكرات بطليموس. على انه لم يكن بذلك في مأمن من ان يناله الاذى. فقد عهد بتدريس علم الفلك في تلك الجامعة بدلا عنه الى استاذ غيره يدعى؛ بيوسر، peucer — سنة ١٥٧١. وقد اعان حينذاك ان في هذا الاستاذ الجديد من حسن التقدير، ورجاحة العقل قدراً، حمله على ان يرفض نظرية كوبرنيكوس، معلنا في محاضراته انها مناقضة لبديهة العقل وغير جديرة بأن تلقن في معاهد العلم.

ومن أجل أن تصبح تلك الفكرات «اللاعلمية» أكثر استقراراً في التعاليم التي كان يذيعها البروتستانت في المانيا، وضع الكاهن «هانسل» — Hensel — مختصراً يدرس في دور العلم عنوانه «الرجوع الى النظام الموسوي في أصل الكون» أظهر فيه أن مبادىء «كوبرنيكوس» الفلكية مناقضة لنصوص الكتاب المقدس.

ولا شبهة في أن هذه الحملة الكبيرة كان لها أثر بعيد. غير أن صداها مازال يتجاوب في حقب الزمان حتى انتهى الى البروتستانتية الحديثة حيث رن ثانية في طرد السلطات المشيخية presbyterian Authorities

— للدكتور وودرو — Woodrow — فى كارولينا الجنوبية ، وفى طرد السلطات الأسقفية الميثودية Methodist episcopal Autharities للاستاذ « ونشل » — winchell — فى « تنيسى » — Tennessee — وفى طرد « السلطات العمادية » — Baptists — للاستاذ « توى » — Towy — فى كنتكى —Kentukey— وفى طرد الاساتذة من جامعة بيروت تحت تأثير السلطات البروتستانتية الاميركية . كل هذا لان هؤلاء الاساتذة الكبار ، لم يلغوا عقولهم ، وظلوا مستمسكين بما أوحت به تعاليم العلم الحديث . وعامة ذا وقع فى بضع السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر .

غير أن آيات الحق لم يكن من المستطاع اخفاؤها ، ولم يكن من الهين أن يهزأ بها أو تقنع أصولها . فان كثيراً من كبار أصحاب العقول كانوا قد قبلوها ومضوا بمبادئها قانعين . الا أنه لم يكن فى أركان الدنيا الاربعة من استطاع أن ينفوه بها على مسمع من المقام البابوى سوى رجل واحد . كان هـذا المحارب الجديد ، ذلك الخالد الفانى « جيوردانو برونو » — Bruno — ومازالت الاقدار تنيل به من أرض وتهبط به فى أخرى ، حتى أعيى ؛ فلم يرجع الى الذين تعقبوه واضطهدوه الا وبيده وثائق مهلكة من التنديد والطعن المقذع رماهم بها كآخر سهم فى كنانته . لهذا حوصر فى مدينة البندقية وقبض عليه والقى فى أعمق سجون محكمة التفتيش فى روما ستة أعوام طوال ثم أحرق حياً ، وذريت مع الريح بقاياه الترابية . ومع هذا فان الحق لم يمت ، بل ظل حياً . ولم تمض

عشرة أعوام على استشهاد « برونو » فى سبيل العلم ، حتى أثبت «غاليليو» بمنظاره ، مافى نظرية « كوبرنيكوس » كلها من حق ثابت .

على أنه فى انتصار «غاليليو » لتحقيقا لنبوءة أخاذة بالالباب . فقد قيل لكوبرنيكوس قبل أن يموت باعوام ـ «اذا كانت نظريتك صحيحة فان الزهرة لابد من أن ترينا من أوجهها مايرينا القمر » ـ فاجابهم ـ « إنكم على حق . ولست أدرى ماذا أقول . ولكن الله رحيم . ولابد من أن يوحى اليكم يوما بما يمكن به الاجابة على ماتسألون ». على أن الله الرحيم زود المتسائلين بالجواب سنة ١٦١١ عند ما أظهر منظار «غاليليو»، على ما كان فيه من نقص ، أوجه الزهرة لاعين الناظرين .

*
* *

٣ — الحملة ضد غاليليو

تكشف القوي المحاربة حول البطل الجديد ـ الحملة الاولى ـ حملات جديدة ـ دالسي ـ بوساوس ـ كاكشيني ـ لوريني ـ بلارمين ـ استخدام الالقاب ـ محاولات للاحاطة بغاليليو ـ مثوله امام محكمة التفتيش في روما ـ امر غاليليو بالصمت وتحريم نظرية دوران الارض في سنة ١٦١٦ ـ وضع كتب كوبرنيكوس في الفهرست ـ انقطاع غاليليو عن الناس ـ تجدد الحملات ضد غاليليو ـ إنخوفر ـ فروماندس

حول البطل الجديد ، غاليليو ، اجتمعت كل القوات وتناصرت معلنة عليه حرباً ضروساً . فان مستكشفاته قد خرجت بنظرية « كوبرنيكوس » من حيز الفروض والتخمينات الى حيث وضعت امام العالم كحقيقة عظمى . ولهذا ترى أن الحرب ضده كانت طويلة ممضة . فان انصار ما كان يدعى « بالتعليم السامي » قد أعانوا أن مستكشفاته لم تكن الا خداعاً ، وان تعاليمه تجديف وكفر بالله . ولقد عاضد الكنيسة اساتذة ، جل ما كان فيهم الدعوى والغرور ، هاجموا « غاليليو » بآراء آمنة دعوها « مبادىء العلم » . أما المدبرون فاستندوا في حملاتهم الى نصوص الكتاب المقدس ، كما هاجمه اللاهوتيون ورؤساء محكمة التفتيش ، ومجامع الكرادلة ، وأخيراً بابوان على المعاقب ، حتى ظن خطأ ان صوت « غاليليو » قد خفت ، وان تعاليمه قد زالت من عالم المعرفة الانسانية .

ولسوف أسوق الكلام في هذه المعارك مطنباً ، لانني لم اجد ، في كل ما بحثت من الكتب التي نشرت في اللغة الانجليزية ، تلخيصاً

جامعاً لمفصلاتها ، ولان تاريخ هذه المعارك لم يشع عليه من نور التاريخ شعاع صادق الا بعد ان اذيعت حقائق كثيرة ، ونشرت وثائق ذات خطر ، عن محاكمة « غاليليو » وكانت قد ظلت مطوية بين جدران الفاتيكان ، حتى طبعت لأول مرة بعناية « ليبنوا » ـ L'Epinoi سنة ١٨٦٧ ، ومن بعد بعناية « جابر » Gilbei و « برتى » Berti و « فافارو » Favarou ـ وغيرهم

قامت أول حملة ضد « غاليليو » سنة ١٦١٠ عندما أعلن أن منظاره استطاع أن يكشف للعين عن اقمار السيار « جوبيتر » أى المشترى . فان اعداءه قد رأوا أن هذا الاستكشاف قد خرج بنظرية « كوبرنيكوس » عن حيز الفرض والتخمين إلى حيز الحقائق ؛ فلم يمهلوه ، بل ناصبوه العداء سراعاً ، معلنين أن طريقته والنتائج التى تترتب عليها منافية للبديهة ، كما أنها مدعاة للكفر والالحاد . أما ازاء أساويه ، فان الاساتذة الذين تربوا فى احضان « العلم السامى » ومن ورائهم الكنيسة ، قد أعلنوا أن الطريق القويم الذى رسمه الدين لكى يكون وسيلة للوصول الى الحقائق المتعلقة بعلم الفلك ، هو طريق التفكير اللاهوتى المدعم على أساس النصوص المنزلة فى التوراة والانجيل . وعلى هذه المقدمة بنوا نتائج عديدة منها أن « أرسطوطاليس » لم يكن يعرف شيئاً من الوحى الجديد ، وأن الانجيل قد أظهر بكل الاساليب التطبيقية المعروفة ، أنه لا يمكن أن يوجد أكثر من سيارات سبع ، وبرهاناً على ذلك وجود تلك المنائر السبع التى ذكرت فى سفر رؤيا يوحنا اللاهوتى ـ The Apocalypse (١)

(١) جاء في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتى فى الاصحاح الأول ما يأتى :

ـ ثم المناير السبع ذوات الشعب التى فى هيكل سليمان ؛ وكنائس آسيا السبع . أما مذهب «غاليليو» فيترتب عليه ، بمقتضى القياس المنطقى ، أن تهدم الحقائق الكنيسية وتزول . لهذا ترى أن الاساقفة والقساوسه ، قد حذروا قطعانهم أن يؤخذوا بآراء « غاليليو » الجديدة ، كما أهاب كثير من أهل اليقين بمحكمة التفتيش أن تمد يدها الى الأمر ، وان تتناول الهرطوق سريعاً بعدلها ، وبلا مرحمة .

وعبثا حاول « غاليليو » ان يبرهن على وجود الاقمار من حول المشترى بأن يريها للمشككين من خلال منظاره . فانهم كانوا لا ينظرون فيه على اعتقاد ان النظر من خلاله كفر ، وإذا نظروا ورأوا الاقمار بالفعل ، انكروها ، على اعتبار انها خيالات يصورها الشيطان فيجنبونها ،

« فالتفت لانظر الصوت الذى تكلم معى ، ولما التفت رأيت سبع منابر من ذهب وفي وسط السبع المنابر شبه ابن انسان متسربلا بثوب إلى الرجلين ومتمنطقاً عند ثدييه بمنطقة من ذهب . وأما رأسه وشعره فابيضان كالصوف الأبيض كالثلج وعيناه كلهيب نار ، ورجلاه شبه النحاس النقى كأنهما محميتان في أتون ، وصوته كصوت مياه كثيرة ، ومعه في يده اليمنى سبعة كواكب ، وسيف ماض ذو حدين يخرج من فمه ووجهه كالشمس وهي تضىء في قوتها . فلما رأيته سقطت عند رجليه كميت ، فوضع يده اليمنى على قائلا (لى) لا تخف أنا هو الأول والآخر والحى ، وكنت ميتاً ، وها أنا حى إلى أبد الآبدين (آمين) ولى مفاتيح الهاوية والموت . فاكتب مارأيت وما هو كائن وما هو عتيد أن يكون بعد هذا . سر السبعة الكواكب التى رأيت على يمينى والسبع المناير الذهبية . السبعة الكواكب هي ملائكة السبع الكنائس ، والمناير السبع (التى رأيتها) هي السبع الكنائس » .

حتى لقد اعلن الأب «كلافياس» clavius انه لكي ترى اقمار المشترى، صنع الناس آلات تخلق الاقمار من حوله وهما. وعبثاً حاول «غاليليو» مرة اخرى ان يحمى ذمار الحق الذى كشف له عنه بكتابات وجهها الى «كاستلى» castelli البنديكتى، والى الغراندوقة «كراستين» caristine اظهر فيها ان تفسير الآيات المقدسة تفسيراً حرفياً، لا يجب ان يطبق على حقائق العلم. فلم يفز من ذلك بجواب، اللهم الا بفكرة ان مثل البراهين التى بثها فى كتبه تلك الا تزيده الا مقتاً واقتناعاً بهرطقته وانه اشد افساداً من «لوثر» ومن «كالفن» معاً.

ان الحرب ضد «النظرية الكوبرنيكية» بعد أن ظلت حتى ظهور «غاليليو» فى همود، قد اشتعلت نيرانها وتلظت بعد ظهوره. ولقد أعلن رجال الكنيسة أن أعظم برهان على فسادها وقوف الشمس ليوشع. وزاد الى ذلك اللاهوتيون فقالوا — «إن دعائم الارض مثبتة تثبيتاً بحيث أنها لن تتحرك أو تتحول عن مكانها. وأن الشمس تجرى كل يوم من احد طرفى السماء الى الطرف الآخر».

غير أنه على الرغم من ذلك كان منظار «غاليليو» يجوب أنحاء السماء، ولم يلبث غير قليل حتى أوحى للناس بآية أخرى، تلك هى جبال القمر ووديانه. فكان من ذلك حملة أخرى وحرب جديدة.

هنالك أعلن رؤوس الكنيسة أن فى القول بجبال القمر ووديانه وبانه يستمد نوره من انعكاس ضوء الشمس على سطحه، مناقضة صريحة لما جاء فى سفر التكوين من أن القمر عبارة عن ضوء عظيم. ومما زاد الطين بلة أن احد الفنانين قد خط على وجه القمر فى صورة دينية رسمها، صورة جبال

ووديان ، بعد أن وضعه فى مكانه العادى ، تحت قدمى العذراء . ولم يكن لذلك من نتيجة سوى أن يذاع أن ذلك الفعل انتهاك لحرمة شيء مقدس ، وأن الفنان هرطوق كافر بالله .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، فان الحرب اشتد أوارها ، وحمى وطيسها ، عند ما كشف المنظار عن بقع الشمس ـ أو كلفها ـ وعند ما استنتج من حركة تلك البقع وتنقلها فوق سطحها أن الشمس تدور حول محورها . فان المونسنيور « إلسى » — Elci — من جامعة « بيزا » ـ pisa — قد حظر على « كاستلى » — castelli — الفلكى أن يذكر بقع الشمس لتلاميذه . وكذلك الاب « بوساوس » — Busaeus — فى جامعة انسبروك — Inspruck — فانه منع الفلكى « شينر » scheiner ـ عن أن يذكر بقع الشمس ، وان كان قد رآها وفرض لها تعليلا « ساميا » على رأى الكنيسة ، وأن لا يعلن الاستكشاف بين جدران الجامعة . أما فى كلية « دوى » ـ Douay وجامعة « لوفان » ـ Luvain فان هذا الاستكشاف قد لعن وجرح ، فأصبح لعنه قاعدة اتبعتها كل الجامعات فى أوروبا ، ومثالا حذت عليه الكليات . على أن الامر لم يقف عند هذا الحد فى اسبانيا ، فان هذه المستكشفات وأمثالها قد بلغت هنالك من المقت حداً كبيراً ، حتى لقد حظر التبشير بها حظراً شديداً فى جامعة « سلامانكا » أشهر جامعات اسبانيا وأبعدها صيتا ، ولم يرفع ذلك النير العقلى الا منذ عهد قريب .

على مثال هذا تكون النتائج دائما ، كلما عهد بالقوامة على ما تخرج عقول الالباء من ثمار الى أولئك الذين لا يرون فى الدنيا لشيء من خطر

بقدر مايرون فى خلاص الارواح ، دون خلاص العقول . وما من شىء هو أكثر من هذا تلاؤما مع تلك الفكرة التى وضعها حديثا فئات مختلفات من رجال الكنيسة ، كاثوليك وبروتستانت ، والتى يزعمون فيها أن من حق الكنيسة ان تسيطر على نشر الحقائق العلمية وان تدبر شؤون المعاهد العلمية والجامعات .

ان رؤية الكلف الشمسية لم يقتصر اعلانها على « غاليليو » فى ايطاليا ، بل أعان رؤيتها الاستاذ « فابرشياس » — Fabricius فى هولاندا . وهنالك عمد الاب « شينر » — scheiner — الى التأويل محاولا التوفيق بين اللاهوت والعلم ، وبشر بنظرية علمية زائفة لم تنتج إلا أمر الثمر ، ولم تنل إلا السخرية والازدراء .

على أن الحرب لم تنم عاصفتها ، بل ان نزعات الفكر زادتها احتداما . فان الاب « كاكشينى » — caccini — قد عمد فى احدى خطبه الى نصوص من الكتاب المقدس مستنداً الى النص القائل — «ايها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون الى السماء » — لم يلبث أن يذبحها حتى شحذت المدى مسددة الى قلب الفلكى الكبير . فان « كاكشينى » لم يكد ينتهى من خطابه حتى خلص بنتيجة محصلها — «أن علم الهندسة رجس من عمل الشيطان » . وأن الرياضيين يجب أن يبعدوا نفياً ، على اعتبار أنهم النبع الذى يفيض بصور الهرطقة . ولهذا ترى أن السلطات الكنسية قد خلعت على « كاكشينى » حلل الشرف بأن رفعت منزله وحبته برضوانها

اما الاب « لورينى » — Lorini — فلم يبرهن فقط على أن تعاليم

« غاليليو » مدعاة للهرطقة ، بل اثبت أن فيها إنكاراً لوجود الله ، وحرض محكمة التفتيش على التدخل فى الامر . وكذلك الاسقف « فيزول » — Fiesole — فانه كان شديد العداء لنظام « كوبرنيكوس » فسب « غاليليو » عانذاً ، وشكا أمره الى الفراندوق . وعلى هذا خيل الى رئيس اساقفة « بيزا » أن أقوم سبيل يتبع هو أن يحوط « غاليليو » سراً وان يرسله مقبوضاً عليه الى محكمة التفتيش فى روما . وعلى الضد منه كان رئيس أساقفة « فاورنسا » فانه اكتفى بأن يعلن أن المذهب الجديد مناقض للكتاب المقدس . أما البابا « بولص الخامس » ففضلا عما كان يتظاهر به من الود لغاليليو ، داعيا أياه اكبر فلكيي الارض ، مهيبا به أن يزور روما ، فانه أوحى سراً الى رئيس أساقفة « بيزا » أن يستجمع الادلة التى تؤدى الى إدانته

فى هذه الآونة ظهر على مرسح الحوادث الكردينال « بلارمين » — Bellarmin — اكبر مدافع عن الدين . وهو رجل من اعظم من اقلت الارض من اللاهوتيين . كان معتدلا ، مخلص السريرة ، واسع العلم ولكنه كان شديد الاقتناع بوجوب ان يوافق العلم نصوص الكتاب المقدس . أما الاسلحة التى تزود بها رجال من طابع « بيلارمين » وطينته ، فاسلحة لاهوتية صرفة . وقفوا امام العالم مظهرين ما يترتب على النتائج السوآى التى تؤثر فى اللاهوت النصرانى ، اذا ما ثبت بالبرهان ان اجرام السماوات انما تدور حول الشمس ولا تدور من حول الارض . وكان اعظم ما استندوا عليه من المعتقدات الدينية قولهم بأن ما يدعى « غاليليو » من صحة استكشافه يهدم كل ما تستند اليه النصرانية من فكرة

الخلاص »وقررالاب « ليكازر » — Lecazre — « ان المذهب يغشى معتقد تجسد الاقنوم الثانى [1] بشكوك ممضة » ، وقال آخرون — « إنه يقلب أساس اللاهوت رأساً على عقب ، فاذا كانت الارض سياراً ، وليست أكثر من سيار بين سيارات عديدة تجوب الفضاء ، إذن فلا يتفق أن يكون قد سخرت لها كل تلك الاشياء الكونية ، مما يعتبر من دعامات المعتقد النصرانى ، واذا كان هناك سيارات أخرى وكانت حكمة الله تقتضى أن لا يخلق من شيء عبثاً ، ترتب على هذا أن تكون تلك السيارات مأهولة . وهنا نتساءل كيف يمكن أن يكون أهلها قد تنسلوا عن آدم؟ وكيف يمكن أن يرجعوا بأصلهم الذين هم مدينون بوجودهم له الى سفينة نوح ؟ وكيف نعتقد بان المسيح منقذ النوع الانسانى ، قد كفر عنهم ؟ » ولم يك هذا الاسلوب قاصراً على لاهوتيي الكنيسة الرومانية . فان « ميلانكوتون » وهو بروتستانتى ، قد اتبعه فى حملته على « كوبرنيكوس » ومدرسته

والى هذه الكتلة اللاهوتية العظيمة تضاف قوة أخرى ، ظلت ترسل على المذهب الجديد ناراً تلظيها المتون اللاهوتية ، والنصوص المنزلة .

غير أن نيران الحرب مازالت تزداد تسعراً واحتداماً ، بعد ان اتخذ فيها من الاسلحة بعض ضروب تستحق أن نخصها بالعناية . تلك أسلحة من المهين أن نبحثها وأن نحيط بها علماً : لانك تراها انما وليته

(١) اي المسيح عليه السلام

وجهك فى ميدان حرب صورع فيه العلم . ولكنها فى ميداننا هذا قد استخدمت بطريقة جعلتها ارهف حداً وأمضى نصلا ، منها فى كل ميدان آخر . وما هذا السلاح المحدود الغراب سوى كلمتين : أولاهما كلمة « ملحد » ، والاخرى كلمة « كافر بالله » . كلمتان طالما وجهتا لكل انسان حاول مرة فى تاريخ الدنيا أن ينفع بنى آدم من أية طريق وبأية وسيلة . أما الجدول الذى يحوى أسماء هؤلاء الكفرة الملحدين ، فتنطوى دفتاه على أسماء أعظم من سارت به قدم من رجال العلم والمنقطعين للدرس والمستكشفين والعاملين على هناء الانسانية . سدد ذلك السلاح القوى الى صدور أمثال اسحق نيوتن وباسكال ولوك وماتون ، وحتى الى صدر فينيلون وهووارد .

لم يبق من البراهين التى أقامها الباحثون على وجود الله من برهان نقل فى منازل البقاء ليصل الى رجال الاعصر الحديثة ، سوى ما أقام « ديكارت » — Descartes — مستمكناً من نفوسهم وعقولهم . ومع كل هذا فقد حاول لاهوتيو البروتستانت فى هولاندا أن يوقعوه تحت آلات العذاب ، وأن يلقموه للموت لقمة سائغة ، بتهمة أنه كافر بالله . وعلى هذا السنن سار لاهوتيو الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى فرنسا ، فانهم خيبوا له كل أمل فى الحياة ، ولم يغفلوا عن أن يحرموه من كل ما كان يستحق من تشريف وتمجيد بعد موته .

لم تعد هذه « النعوت » لتتخذ سلاحا فى عصر التمدين الحديث[1]

---

(١) لقد رأينا انه كثيراً ما تتخذ سلاحاً في مصر وفي القرن العشرين يتسلح بها نواب وفقهاء (مترجم)

فانها سهام مسممة ، بل كرات متفجرة طالما أشعلت فى الجماهير نار الكراهية والحقد ، وكم انتشر حولها من دخان اعاق العيون عن أن تنظر الى حقائق الاشياء كما هى . بل كم من مثل فى التاريخ يدلنا على أنها أحرقت نفس الأيدى التى أشعلتها . تلك سهام تقطع نياط الامهات المشفقات ، وتخطف أرواح الابناء وهم فى حجور الآباء ، وقد تصيب صميم القلب الخافق والجسم جثة هامدة ، لانها لا تترك من ورائها سوى جروحاً مسمومة فى قلوب أولئك الذين هم كانوا اليهم أكثر حباً وعليهم أشد اشفاقاً ، حذر أن يفوتهم الخلاص الاخروى ، أو أن ينصب عليهم الغضب القدسى . ولا مرية فى أن هذا السلاح ، خلال ذلك الزمان ، ولو أنه كثيراً ما بلغ من الحدة مبلغاً اقض مضاجع الآباء المشفقين وأفزع الامهات المشفقات ، كان فيه بعض الضعف والانحلال . لانه كثيراً ما كان يصيب المتدين بضربات أقسى من تلك التى كانت تصيب المعتدى عليهم . على أن الحال لم تكن على هذه الصورة فى أيام « غاليليو » . فان هذا السلاح كان فى عهده على أشد ما ظهر حدة ونسميا للقلوب والأفكار

على أن رئيس أساقفة « بيزا » لم يستنكف أن يتخذ من عدد الحرب ما هو أحط من ذلك وأدنى . فان هذا الرجل ، الذى لم تكسب كاتدرائيته من الشهرة ما سوف يبقى ذكرها الى آخر الدهور ، الا باستكشاف « غاليليو » لسنة من سنن الطبيعة الكبرى وصل اليها من مرآى قنديلها يهتز الى الجانبين أمام مذبحها ، لم يكن من اولئك الاساقفة الذين جبلوا من طينة « بوروميو » — Borromeo — أو

« فينيلون » — Fènèlon — أو « شفيروس » — Cnverus — فان من سوء حظ الكنيسة ، بل ومن سوء حظ الانسانية كلها ، أن يكون رئيس أساقفة « بيزا » فى ذلك العصر رجل متعصب دساس ، دبر باحكام طريقة الاحاطة بالفلكى الكبير والقبض عليه .

كتب « غاليليو » بعد أن حرمت الكنيسة مستكشفاته ، الى صديقه « كاستللى » والى الغراندوقة « كريستين » كتابين أراد أن يظهر فيهما أن ما وصل اليه من الحقائق الكونية من المستطاع جعلها توافق ظاهر التنزيل . ولقد حاول رئيس أساقفة « بيزا » باشارة من محكمة التفتيش فى روما ، أنه يحصل على الكتابين ، وأن يظهرها عند الحاجة ، برهانًا على أن « غاليليو » قد نفث سموم الهرطقة فى تضاعيف اللاهوت ، وفى تضاعيف المتون المنزلة ، وبذلك يقع بين براثن محكمة التفتيش . لهذا مت رئيس الاساقفة الى « كاستللى » أن يريه الخطاب الاصلى المكتوب بخط « غاليليو » نفسه . ولكن « كاستللى » رفض . وهنا تظاهر كبير الاساقفة « لكاستللى » إفكًا وزورًا بما يحمل فى نفسه من كبير الاحترام لنبوغ « غاليليو » وأنه مشوق لانه يعرف أكثر مما عرف عن مستكشفاته ، على الضد مما كان يكتب به الى رئاسة محكمة التفتيش من الطعن والتحريض ضد « غاليليو » . تلك حقيقة كشفتها البحوث الحديثة منذ عهد قريب . ولما أن أخفق فى حيلته هذه ، خلع قناع الرياء ، وأعلن الحرب صراحًا

ان رواية الوقعة التى دارت من حول « غاليليو » ، جانب

لتحطيمه ، وجانب لنصرته ، لشيء يلذ سماعه ، لو لم يكن فيها من الامثال أسوؤها ، ومن الرذائل أشنعها . كانت دسائس من جانب يقوم من الجانب الآخر ما يفسدها ، وكانت مؤامرات في ناحية يدبر في ناحية أخرى ما يحبطها ، وكان كذب وكان تجسس ، ومن وراء كل هذه الدنايات جماهير غفيرة من قساوسة وأساقفة ورؤساء أساقفة وكرادلة ، وبابوان هما بولص الخامس paul v واربان الثامن Urpan VIII تغلي مراجل صدورهم ، متجادلين متشاحنين ، مولولين منادين بالويل والثبور ، وعظائم الامور .

غير أن القوات المتناحرة كانت شديدة المرة . ففي سنة ١٦١٥ دعي « غاليليو » ليقف امام محكمة التفتيش في روما ، وبذلك تهيأت تلك الحفرة العميقة التي طالما عمل العاملون على حفرها تحت قدميه . وعهد الى فئات منوعة من لاهوتيي محكمة التفتيش أن يبحثوا قضيتين استمدتا مما كتب « غاليليو » في كلف الشمس ، فظلوا يبحثون شهراً من الزمان ، ثم أصدروا قرارهم فقالوا بأن : —

« القضية الاولى » قضية أن الشمس ثابتة في مركز النظام الكوني وأنها لا تدور حول الارض ، تجديف مضاد للبديهة ومناقض لقضايا اللاهوت ، وأنها هرطقة لمعارضتها تصريحا لنصوص الكتاب المقدس . واما القضية الثانية ، قضية أن الأرض ليست في مركز النظام الكوني ، ولكنها تدور من حول الشمس ، فأمر مناقض للبديهة منقوض في الفلسفة ، وفيه من وجهة النظر اللاهوتي منافاة للمعتقد الصحيح »

هنا تدخل البابا بولص الخامس بنفسه فى الأمر مرة ثانية ، وأمر أن يقف « غاليلو » أمام محكمة التفتيش ليجيب على التهم الموجهة اليه ، فوقف أعظم عالم أقلته الارض فى زمانه ، أمام أعظم لاهوتى أظلته السماء فى القرن السابع عشر . وقف « غاليليو » أمام « بيلارمين » . وشرح « بيلارمين » لغاليليو خطأ رأيه ، وأمره أن يقلع عنه . أما « ده لودا » — De Louda — فقد تزود من البابا بخطاب حمله الى محكمة التفتيش يأمر فيه بان يلقى الفلكى العظيم فى أعماق سجون التفتيش ، ما لم يقلع عن رأيه ، ويعلن عن فساده . وهنا أمر « بيلارمين » « غاليليو » أن يذعن :

« باسم قداسة البابا ، وباسم كل المجامع التابعة للبلاط المقدس ، مقلعا عن الاعتقاد بالرأى القائل بأن الشمس مركز النظام الكونى وأنها ثابتة ، وان الارض تتحرك ، وان لا يلقن هذا الرأى لاحد او يدافع عنه او ينشره بأية وسيلة شفويا او تحريراً »

فاستسلم « غاليليو » لقضاء القوة ، وأذعن لهذه الارادة ، وتعهد بأن يظل مطيعا لها ، امينا عليها وفيا بعهدها

حدث هذا فى سنة ١٦١٦ . وبعد ذلك باسبوعين تحرك « مجمع الفهرست » ، كما تثبت ذلك الخطابات والمستندات التى ظهرت حديثا ، تحت تأثير البابا بولص الخامس ، مصدراً بلاغا جاء فيه — « ان المذهب القائل بحركة الارض المزدوجة ، حول نفسها ومن حول الشمس فاسد ، فضلا عن انه مناقض تماما لنصوص الكتاب المقدس » . وان هذه الفكرة محظور تلقينها للناس او الدفاع عنها . وفى هذا البلاغ نفسه

حرمت ولعنت كل كتابات « كوبرنيكوس » — « وكل الكتابات التى تثبت حركة الارض » . وكذلك حرم على الناس قراءة كتاب « كوبرنيكوس » القيم ، حتى يحور بما يلائم ما ترى محكمة التفتيش من رأى فى نظام الكون ؛ وكذلك كتابات « غاليليو » و « كبلر » قد شملها البلاغ بتحريمه كل الكتب التى تثبت دوران الارض ، وان لم تذكر باعلامها .

ولقد اثبتت هذه النواهى فى الفهرست [1] . اما المقام البابوى نفسه ، مقام القاضى المعصوم من الخطأ المبرء عن الزلل ، بل المعلم الذى يوحى لأهل الدنيا بما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فوقع على صدر الفهرست بالخاتم البابوى المعروف ، مباركا تلك النصائح بتصديقه القدسى عليها وإجازته لها

وظل « غاليليو » بعد صدور هذا الحكم زمانا فى روما . ومن الظاهر انه لم تمكث بها الا ليجد لنفسه مخرجا من المصاعب التى احاطت به ، ولكنه لم يلبث غير قليل حتى تحرجت به الحال لما كان يعاينه من اضطهاد السلطات الكنسية له ، فعاد الى « فلورنسا » اذ دعى اليها ، وظل قابعا فى صومعته بالقرب من المدينة لا يحرك ساكنا ، مكبا على عمله كل اكباب ، من غير انه ينشر شيئا ، اللهم الا خطابات كان يبعث بها سراً بين حين وآخر الى أصدقائه فى اطراف أوروبا

(١) فهرست او جدول الكتب المحظور قراءتها على المؤمنين

غير انه لم يلبث على ذلك غير قليل حتى تبدلت الحال . فان الكردينال « بربرينى » — Berberini — وكان يتظاهر بحرية الرأى والاخلاص لغاليليو ، اصبح بابا متخذاً لنفسه اسم « اربان الثامن » فتجددت الآمال فى صدر « غاليليو » ، وأخذ يعلن أنه لا يزال حريصاً على معتقده فى صحة مذهب « كوبرنيكوس » . وهنالك تجددت الحوادث القديمة ، إذ طلب الى « غاليليو » أن يعود الى روما ثانية ، واجتهد البابا « إربان الثامن » أن يخدعه عن مذهبه ، آخذاً على نفسه مؤونة التعب لكى يظهر للفلكى الكبير خطأ ما يذهب اليه بالدليل والبرهان . ولكن كثيراً من المعارضين لم يجدوا فى أنفسهم من سعة الصدر ما وجد البابا ، إذ ظهرت كتب عديدة تهاجم هذا المذهب. كتب لم يراع واضعوها أبسط ما تتطلب الرجولة من صفات ، لأنهم وهم ينشرون مؤلفاتهم ، كانوا يعلمون علم اليقين بان « غاليليو » كان ممنوعاً بالقوة من ان يدافع من نفسه . ومن أجل أن تقيم الكنيسة برهاناً جديداً على ضعفها وعجزها عن أن تمضى قوامة على بث التعاليم العليا ، قطعت عن « غاليليو » راتبه كاستاذ فى جامعة « بيزا » ، ومن ثم كثر اللغط من حوله والجدال . بل بدأت المعاول تحفر من تحت قدميه هوة جديدة . فكما أن رئيس أساقفة « بيزا » قد حاول من قبل أن يخدعه بكلمات حلوة ، ليستجمع ضده دلائل يسلمه بها الى محكمة التفتيش ، كذلك فعل من بعد الأب « غراسى » — Grassi — وبعد أن أخفق فى عدة محاولات أراد بها أن يخرجه من الصمت الى الكلام بالتمليق طوراً ، وبالوعد طوراً آخر ، فاجأه بان أعان أن

آراءه — » تسوق الى إنكار الوجود الحقيقي لسر الاوخارستيا » ، أى تناول القربان المقدس

فى الهجوم الاخير على « غاليليو » تناصرت قوات عظمى لتصب عليه ناراً حامية . تلك نار قد ترى فى كل الميادين التى يكون فيها العلم طرف قتال . وما هى فى الحقيقة الا طريقة الاتهام العام. ففى سنة ١٦٣١ قام الأب « ملشوار انخوفر — melchon Enchofer — المنتمى الى اليسوعيين ، واستجمع من حوله كل ما استطاع من قوة ، لينحي بها على كاهل « غاليليو » معلناً « أن القول بحركة الارض أسف كل ضروب الهرطقة واكبرها إثما ، وأشدها فى الدين قدحاً ، واقذعها قذفاً ، وان ثبات الارض معتقد مقدس ثلاثاً ، وان البرهنة على فناء النفس الانسانية وعدم خلودها وانكار وجود الله ، وامتناع التجسد ، أشياء يمكن أن يتسامح فيها ، قبل أن يتسامح فى البرهنة على ان الارض تتحرك »

أما فى الجانب الآخر من أوروبا فقد ارتفع صوت تجاوبت من حوله اصداء قوية ، اذ أخرج اللاهوتى « فروماندوس » — Fromandus — من بين جدران كاتدرائية « أنفرس » مقالته التى سماها « ضد ارسطارخس » — anti-Aristarchus — ونشرها فى الناس . وبدأ أول صفحة منها بلعنة « كوبرنيكوس » مثبتاً أن الوحى العلمى الجديد لم يكن سوى توسع فى شرح نظرية وضعها من قبل فئة من الوثنيين . وأعلن — « ان التنزيل يقاوم « كوبرنيكوس وأنصاره » . ومن أجل ان يثبت أن

الشمس تدور من حول الارض رجع الى المزامير التى تتكلم فى الشمس وفى إشرافها — « كما تخرج العروس من خدرها » . ولكى يبرهن على ثبات الارض رجع الى سفر الجامعة — Ecclesiastes — مستنداً الى نص يقول بان الارض ثابتة الى ما لانهاية [١] — ومن أجل أن يظهر فساد نظرية « كوبرنيكوس » من طريق المشاهدة تراه يقول بان هذه النظرية لو كانت صحيحة فلا بد من أن يستمر الهواء هابّاً من جهة الشرق على الدوام ، وان البنايات المشيدة فوق الارض ، بل الارض نفسها ، كان ينبغى أن تطير هائمة في الفضاء بقوة اندفاع عظيمة تستلزم أن يتهيأ الناس بمخالب كمخالب القطط ، حتى يستطيعوا أن يبقوا فوق

(١) كلام الجامعة ابن داوود الملك في اورشليم . قال الجامعة «باطل الاباطيل الكل باطل . ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس . دور يمضى ودور يجيء والارض قائمة الى الابد . والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع الى موضعها حيث تشرق . الريح تذهب الى الجنوب وتدور الى الشمال . تذهب دائرة دوراناً والى مداراتها ترجع الريح . كل الانهار تجري الى البحر والبحر ليس بملآن . الى المكان الذي جرت منه الانهار الى هناك تذهب راجعة . كل الكلام يقصر . لا يستطيع الانسان ان يخبر بالكل . العين لا تشبع من النظر والاذن لا تمتلىء من السمع . ما كان فهو ما يكون والذي صنع فهو الذى يصنع وليس تحت الشمس جديد . ان وجد شيء يقال عنه أنظر : هذا جديد . فهو منذ زمان كان من الدهور التى كانت قبلنا . ليس ذكر للاولين والآخرون أيضاً الذين سيكونون لا يكون له ذكر عند الذين يكونون بعدهم » • عن سفر الجامعة الاصحاح الاول

ظهرها بان يثبتوا مخالبهم فيما تصل اليه من الاجسام . ولم يلبث عند هذا . بل عمـد الى « أرسطوطاليس »و الى القديس « توماس اكوناس » مستعيناً باللاهوت والعلم معاً ، لـكى يبرهن على أن الارض يجب أن تثبت فى المركز ، وأن الشمس يجب أن تدور من حولها .

على ان مقاومة نظرية « كوپرنيكوس » لم تقتصر على المتعصبين من أهل الدين . فان رجالا عظام القدر كبار الخطو مثل « جان بودن » — Jean Bodin — فى فرنسا وسير «توماس برون» — sir Thomas Browne — فى انجلترا ، قد أعلن كلاهما ، أن مذهب « كوپرنيكوس » مناف لنصوص التوراة والانجيل .

* * *

٤ — انتصار الكنيسة على غاليليو

نشر كتاب المحاورات لغاليليو سنة ١٦٣٢ — عداء البابا إربان الثامن — محاكمة غاليليو مرة ثانية أمام محكمة التفتيش — قسمه وتعهده — اضطهاد غاليليو من بعد ذلك — الاساليب التى اتبعت لتحطيم نظرية كوپرنيكوس — تشويه ذكرى غاليليو — عداء البروتستانتية لعلم الفلك الحديث والمدافعون عنها.

***

بينما كانت أخبار الانتصار على « غاليليو » وعلى الحق الثابت كشف له عنه ، تنهال من كل ناحية وتتجاوب بأصدائها نواحى أوروبا، كان الفلكي الكبير مكباً على كتابة مقالة قصيرة ، وضعها فى صورة محاورة أورد فيها كل البراهين التى تؤيد نظريتى « كوبرنيكوس » و« بطليموس » وكذلك البراهين التى تنقضهما ، معلناً خضوعه لكل مايمكن أن تفرض محاكم الكنيسة من الاوامر ، اذا سمح له بطبعها ونشرها . وفى النهاية، وبعد مناقشات طويلة استغرقت ثمانية أعوام ، رضى رؤساء الدين أن تطبع تلك المقالة ، وعلق طبعها على شرط مزرٍ ، هو أن يكتب الاب « ريشياردينى » — Ricciardini — رئيس البلاط المقدس، مقدمة تتفق وما يرى فى الامر من رأى ؛ وأن يوقعها « غاليليو » ، وفيها استعرضت نظرية « كوبرنيكوس » على زعم أنها أضغاث أحلام ، ونزعات خيال ، وليست بشيء جدى ينافى مذهب « بطليموس » الذى حققت محاكم التفتيش صحته بعناية البابا « بولص الخامس سنة » ١٦١٦ ،

ظهرت رسالة «غاليليو» الجديدة التى سماها «المحاورة» Il Dialogo

سنة ١٦٣٢ . وصادفت نجاحا باهراً ، لأنها هيأت مؤيدى مذهب « كوبرنيكوس » بأسلحة جديدة ، مرهفة النصال ، محدودة الغراب ، أما المقدمة فلم يبق فى أوروبا موضع قدم لم تحدجها فيه العيون بنظرات السخرية ، أو ترسل اليها النفور فيه بسمات الازدراء ، على الرغم مما كان فيها من روح الورع والتقوى . وكان هذا سبباً فى أن يثير انفعال أعدائه . وهنالك هب اليسوعيون والدمنيكيون ، بل والاغلبية العظمى من رجال الدين من مراقدهم ، وعادوا الى النار القديمة ينفخون فى رمادها ، فيوقظون لهبها ، ويسعرون ضرامها ، لتبلغ ألسنتها إلى حد لم تبلغ اليه من قبل . وفى مركز حلقتهم وقف البابا « إربان الثامن » ليشرف بهامة الجبار على ما يترامى حواليه من لهيب الفتنة الذى اضطرم ، بعد أن كاد يكون رماداً ، لنزكيه بما يبعث به قلبه من وقود الحقد والكراهية . وهذه القوات العظيمة ناءت بجماعها على كاهل « غاليليو » .

مست هذه النار « غاليليو » فى موضعين . الاول — مقامه العالى وعزة نفسه ، جزاء له على أن يضع براهين البابا التى فاه بها لدى محاولة اقناعه بفساد مذهبه فى فم شخص من أشخاص المحاورة . وجعله البراهين التى نقضها فى فم شخص غيره . والثانى — شعوره الدينى . ولقد كان ما مسه من الضر فى الثانية ، أبلغ مما مسه فى الاولى . ولطالما كرر ذو القداسة المعصوم لكل من وقعت عليه عينه من الناس ما فى الكتاب المقدس من نصوص التنزيل التى تثبت اثباتاً قاطعاً وبلا شبهة من تأويل ، أن الشمس والسيارات انما يدرن من حول الارض ، وأن انكار ذلك إنكار للوحى نفسه . ولا شبهة فى أنه لو صح أن يقال بأن رجلا من رجال

الدين كان فى ذلك العصر أبعد من غيره عن التأثر بروح الحق واليقين، فان « إربان الثامن » كان أبعد الناس جميعاً عن تلك الروح تلقاء هذا الامر كله .

من حول « إربان الثامن » نراكمت أعظم كتلة كونها سوء الحظ وأربتها التعاسة التي أحاطت بالكنيسة القديمة فى كل عصورها . فلو أنه كان واسع العقل متسامحاً مثل « بنيدكت الرابع عشر Benedict XIV » أو لو أنه فقه كيف تكون الاستقامة والاعتدال مثل « بيوس السابع Pius VII » ، أو لو أنه حاز شيئاً من صفات العلم والاستغراق فى الدرس مثل « ليو الثالث عشر Leo XIII » ، لما ناءت الكنيسة تحت أحمال تلك الفضائح التى حوطت قضية « غاليليو » ، ولاصبح فى مستطاع المدافعين عنها أن يفخروا أنها فتحت بلا خوف ولا رهبة ، باب عصر جديد ينعم بخيراته أبناء آدم ، بدل أن يلجؤا الى تلك الضروب المختلفة من المواربة والخداع ، ليلقوا عن أكتافها مسؤولية تلك الاضرار العظمى التى أصابت الانسانية .

ولكن الامر لم يكن كذلك . فان « اربان الثامن » لم يكن بابا لاخير . بل كان أميراً من بيت « بربريني Berberini » فاخذته العزة بالاثم ومضى مغضباً ، كيف أن براهينه تناقش بين الناس علناً وبلا حجاب !!

أثمرت أول الدسائس التى دبرها أعداء « غاليليو » ثمرة مباشرة الاثر ، اذ حرم بيع كتابه ولكنهم سرعان ما رأوا أن هذه الوسيلة غير مجدية نفعاً ، لان الطبعة الاولى من الكتاب كانت قد انتشرت فى كل بقاع أوروبا . وهنا تضاعف سخط « اربان الثامن » وزاد غيظه ،

ولم يكن لديه من سبيل يتبعه الا أن يضع « غاليليو » ومؤلفه بين يدى محكمة التفتيش . وعبثاً حاول « كاستللي » البنيديكتى أن يقنع غيره بأن « غاليليو » يحترم الكنيسة ، ولا يهزأ بمبادئها . بل سدى ضاعت كل جهوده فى سبيل أن يثبت لرجال الكنيسة « أنه مامن شيء يمكن عمله الآن ، من شأنه أن يمنع الارض عن الدوران » . ولكنه طرد مغضوباً عليه مقصياً به عن الكنيسة ، وقسر « غاليليو » على أن يقف أمام تلك المحكمة الهيبة المخيفة واحداً فرداً ، بلامدافع أو نصير . وهنالك عذب مراراً عديدة بأمر البابا « اربان الثامن » . وهذه حقيقة طالما خفى على العالم أمرها ، ولكنها عرفت الآن وفضح سرها . وكذلك اتضح من المستندات التى حفظت حتى اليوم عن محاكمته ، أنه حمل على أن ينكر مشايعته لمذهب « كوبرنيكوس » تحت تأثير التهديد والوعيد ، وأنه سجن بأمر البابا . بيد أن رؤوس محكمة التفتيش يرجعون فى كل هذا الى السلطة البابوية . وكل تلك الجهود العظيمة التى بذلت فى سبيل أن تخفى الكنيسة الاجرا آت قد ذهبت سدى . وكل العالم اليوم انما يعلم علم اليقين بأن « غاليليو » قد أهينت كرامته ، وسجن ، وهدد تهديداً هو العذاب الجسمانى بعينه ، وأنه قسر أخيراً على أن يعلن جاثياً على ركبتيه ، الاعتراف الآتى :

« أنا غاليليو ، وفى السبعين من عمرى ، سجين جاث على ركبتى ، وبحضور فخامتك ، وأمامى الكتاب المقدس الذى ألمسه الآن بيدى ، أعلن أنى لاأشايع ، بل ألعن وأحتقر ، خطأ القول ، وهرطقة الاعتقاد

بان الارض تدور » (١)

انه ولا شك قد غلب على أمره ، لانه قسر على أن يظهر أمام كل الاجيال القادمة بمظهر الحانث فى قسمه بعد مغلظ الايمان . ومن أجل أن يتم انتصارهم عليه ، وأن ينالوا مابقى له من شرف النفس ، اضطر على رغم منه أن يقسم بان يبلغ الى محكمة التفتيش أمر كل رجل من رجال العلم يمكن أن يعرف عنه أنه يؤيد هرطقة القول بدوران الارض

ولقد أثار قسم « غاليليو » هذا عجب الكثير من الناس ، حتى أن ذلك كان سبباً فى أن ينكر عليه بعض أبناء عصره لقب « الشهيد » . غير أن هؤلاء الرامين عن قوس الشعور بما يقولون ، لم يقدروا ظروف الرجل قدرها . فقد كان شيخا كبيراً ، عمر الى السبعين من السنين المثقلة بالهموم والاحزان ، وقد حطمته آمال الدنيا ومخاوفها ، وهدمته متاعبها وواجباتها ، وكم سعى متاهفا من « فلورنسا » الى « روما » مكبا على وجهه ، ونصب عينيه تهديدات البابا بانه اذا تأخر عن القدوم « أخذ فى الاغلال » . وكان فوق ذلك مريض الجسم والعقل ، سلم الى أعدائه بيد الغراندوقة التى كان من الواجب أن تحميه وأن تحيطه بعنايتها ، ولم يكد يبلغ روما حتى احتوته غرف التعذيب وانصبت عليه الآلام ألوانا . ولقد كان يعرف جيداً ماهى محكمة التفتيش . وكان يلوح له شبح « جيوردانو برونو » بين اللهيب ماثلا أمامه كأنما ذلك كان بالامس الفارط ، وفى نفس تلك المدنية ، ومن أجل « هرطقة »

---

(١) يروي أن غاليليو بعد أن أعيد بعد اعترافه الى السجن ضرب الارض بقدمه قائلا — ولكنها تدور (م)

العلم والفلسفة . وكان يتذكر أنه من قبل ثمانية أعوام أحبط برئيس أساقفة « سبالاترو » — Spalatro — « ده دومينيس » — De Dominis — وسلم الى محكمة التفتيش متهماً « بهرطقة العلم » وزج بين جدرانها حتى مات في جوف السجن ، وأنه احرق بعد موته مع ما كتب على مرأى من المؤمنين .

ولقد استمر اضطهاد « غاليليو » كل أيام حياته . كلا . بل بعد مماته . لقد بقى في المنفى بعيداً عن أسرته ، بعيداً عن أصدقائه ، مقصياً به عن صناعته النبيلة ، وقسر على أن يظل خاضعاً لعهده بأن لا يتكلم في نظريته . ولما أن توسل الى أعدائه ، وهو بعد يعانى أشد آلام المرض وأعظم تباريح السقام ، مقرونة بأقسى الآلام النفسية التى سببتها الكوارث التى نزلت بأسرته ، طالباً ان يمنح من الحرية قدراً ضئيلاً ، كان التهديد بالقائه في غيابات السجن على ملمس العذاب جواباً . ولما أن عرفت لجنة خاصة عينتها السلطات الدينية بانه أصبح أعمى لا يبصر ، وانه ذهب ضحية المرض والحزن ، منح بعض الحرية ، ولكن بحدود جعلت تلك الحرية استعباداً . ولقد أجبر على أن يواجه هجمات أعدائه على نفسه وعلى نظرياته ، هجمات الازدراء والسخرية والتضليل ، من غير أن ينبس ببنت شفة او يحرك بالرد لساناً . ورأى الذين يدعون الصداقة والحب والاحترام ، ينزل بهم العذاب الصارم ، والظلم الفادح . فنفى « كاستلى » . ورأى « رينيارد » رئيس البلاط المقدس ، و « شيامبولى » — Ciampoli — سكرتير البابا ، يبعدهما « إربان الثامن » عن وظيفتيهما مخفورين ، ورأى محاكم التفتيش

فى « فلورنسا » يوبخ افذع توبيخ لانه أمر بطبع كتابه . وعاش ليرى الحقائق التى استكشفها تكتسح من كل الكليات الكنسية ومن كل جامعات أوروبا ، بل ليرى عضو محكمة التفتيش يأمر بأن يستبدل كل نعت طيب يرد به ذكره فى أى كتاب يراد طبعه ، بأخبث النعوت وأحط الذكريات .

ولقد أخذ رجال الكنيسة يعدون العدة بعد ذلك ليتموا تحطيم نظرية « كوبرنيكوس » ، وان يهدموا البراهين التى اقامها « غاليليو » على صحتها . ففى ١٣ يونيه سنة ١٦٣٣ أمر المجمع المقدس ، بعد موافقة البابا الذى كان قائماً إذ ذاك ، أن يرسل الحكم الصادر ضد « غاليليو » وكذلك إقراره الى كل « قاصد رسولى » — Nuncio — فى أوروبا بأجمعها ، والى كل رؤساء الاساقفة والاساقفة وأعضاء محاكم التفتيش فى ايطاليا . وفى هذا المستند التاريخى صدرت الاوامر مشددة بان يعلن الحكم والقسم معا — « الى كل القساوسة » وأن يحيط به فضلا عنكم كل أساتذة الفلسفة والرياضيات ، حتى يعرفوا لماذا حاكمنا « غاليليو » وأن يحيطوا علما بمقدار ما فى هذه الخطيئة من خطر فيجتنبونها ، وليبتعدوا جهد مستطاعهم عن انواع العقاب التى لا بد من ان تنزل بهم اذا ما وقعوا فى حالة تشبه حالة غاليليو »

وكان من نتيجة هذا ان اجتمع كل أساتذة الفلسفة والرياضيات والفلك فى مختلف الجامعات فى انحاء أوروبا وفرى عليهم هذا الصك . ولقد كان هذا العمل برداً وسلاماً على قلوب اللاهوتيين جميعا . فكتب

عميد جامعة « دوى » — Douay — ذاكراً رأى « غاليليو » الى القاصد الرسولى فى بروكسيل يقول —

«لقد ظل أساتذة جامعتنا على معاداتهم لتلك الفكرة المتعصبة عاكفين ، حتى انهم لم يتركوا فرصة تمر دون أن يعبروا عن رأيهم فى أنه من الأوفق ان تزول تماما . ففى جامعتنا الانجليزية « بدوى » لم نوافق مرة على ترويج هذه المتناقضات ، ولن نوافق على ترويجها فى المستقبل » .

ثم تقدم رجال الكنيسة خطوة أخرى . فقد صدرت الاوامر لاعضاء محكمة التفتيش ، وفى ايطاليا على الاخص ، بأن لا يسمحوا باعادة طبع شىء من كتب «غاليليو» أو مايشابهها من الكتب . وكذلك طلب الى اللاهوتيين ، بعد ان سكت « كوبرنيكوس وغاليليو وكبار » ان يدحضوا براهينهم وينفضوا أفواههم بالقلم واللسان . وهنالك فاضت الكنيسة على أوروبا بسيل عرم من البراهين الناقضة لمذهب « كوبرنيكوس »

ومن أجل ان يصبح العمل تاما كاملا ، ثبت فى الفهرست الكنسى امر يحرم « كل الكتابات التى تثبت دوران الارض » . وأمضى البابا امراً ، على اعتبار انه المعصوم عن الخطأ وانه المعلم الملهم قدسيا ، والقائم حفيظا على الدين والآداب والمعتقد ، مقيداً بذلك الديمونة ضمير كل شخص اظله العالم النصرانى

من بين الكتب التى ظهرت بارشاد الكنيسة بعد إدانة «غاليليو» الرامية الى اقتلاع جذور النظرية الكوبرنيكية من عقول الناس ، نختار

كتابين اثنين ، تتحدثما مثــالا وعظة ، الاول كتاب خطته براعة «سيبيو شيارموني» — Scipio Chiarmonti — وأهدى إلى الـكردينال « بربريني » ، ومن بين البراهين التي أقامها ضـد دوران الارض يذكر البرهان الآتي :

«للحيوانات التي تتحرك أطراف وعضلات . . أما الارض فليس لها أطراف ، ولا عضلات . . فهي على ذلك لاتتحرك . انها الملائكة التي تحرك زحـل والمريخ والشمس وغيرها في دورتها . فاذا كانت الارض تدور ، فينبغي أن يكون لهـا ملاك في مركزها يدفعها الى الحركة . ولـكن لايأوى في مركز الارض الا الشياطين . فلابد من أن يكون شيطانا ، ذلك الذى يعطى قوة الحركة للارض . »

« إن السيارات والشمس والاجرام الثوابت انما تتضمنها فصيلة واحـدة ، هي فصيلة النجوم . وظاهر أنه من الخطأ الفاحش ، أن توضع الارض ، وهي مباءة القاذورات ، بين تلك الاجرام السماوية ، التي هي أشياء قدسية نقية صافية »

أما الـكتاب الثـاني الذى اختاره من بين ركام تلك الـكتب المتشـابهة ، فـكتاب « بولاكو » — Polacco — المسمى « الـكاثوليكي ضد كوبرنيكوس » — Anticopernicus Catholicus — وقد عمد فيه كاتبه أن يوجه لطريقة « غاليليو » » سهماً مسدداً . وفيه يقول .

« بنص الـكتاب المقدس دائمـا على أن الارض ساكنة ، وأن الشمس والقمر ماضيان في حركتهما . ولـكن إذا رأينا يوما أنهما ثابتان

لا يتحركان ، فان الكتاب المقدس ينص على أن ذلك انما يكون لمعجزة كبرى » .

« إن هذه الكتابات يجب أن تحظر حظراً باتا . لانها تبشر بمبادىء في موقع الكرة الارضية ودورتها تناقض نصوص الكتاب المقدس ، وتنافي التفسير الكاثوليكي لتلك النصوص ، وتزعم بأن هذه المبادىء حقائق ، لا مجرد فروض تخيلية » .

ولما تناول كتاب « غاليليو » قال فيه إنه « مستمد من روح كوبرنيكوس » — وأنه — « عند ما تضح هذا لاعضاء محكمة التفتيش زج « بغاليليو » في السجن وقسر على أن يعلن عدم متابعته لهذه الطريقة الخاطئة وأن يعلن عن فسادها »

أما سلطة الكرادلة في إصدار قرارهم فقد تناولها « بولا كو » بالكلام مبرهناً على انهم ما داموا « موضع استشارة البابا » وانهم « اخوته » فان عملهم يكون واحداً ، في حين أن البابا لا تفارق عنهم الا بكونه معصوماً وأنه محبو بعلم لادني قدسي

وبعد أن أظهر أن كل ما في الكتاب المقدس من الاسانيد الوثيقة ، وكل المنكرات التي فاض بها البابا والكرادلة ، تناقض نظريات الفلك الحديثة ، حاول أن ينقض النظرية بدليل مقتطع من المشاهدات الطبيعية فقال — « اذا سلمنا بان الارض تتحرك ، لما امكننا أن نعلل السبب في أن سهماً يطلق رأسيا في الهواء يعود الى الهبوط في نفس المكان ، بينما تكون الارض وكل ما عليها حسب التعاليم الجديدة ، مندفعة في الوقت نفسه بسرعة فائقة ، متحركة نحو

الشرف . ومن ذا الذى لا يرى أن فوضى عظيمة فى نظام الاشياء من اللازم أن تترتب على مثل هذا الحركة؟ »

ثم عمد الى الغيبيات الفلسفية مقتطفا منها بعض البراهين فقال — « ان حركة الارض حسب نظرية « كوبرنيكوس » أمر مخالف لطبيعة الارض ذاتها . لانها ليست فقط متبردة صلبة ، بل إنها تحوى فى عناصرها طبيعة البرودة أيضا . ولا خفاء أن البرودة تقاوم الحركة ، بل انها تفنيها بتة ، كما هو الظاهر فى الحيوانات، فانها تعجز عن الحركة إذا بردت »

ولم ينس بعد كل هذا أن يلجأ الى أساليب التفكير اللاهوتى كآخر سهم فى كنانته فيقول : « مادام فى مكنتنا ان نثبت من نصوص التنزيل ان السماوات تتحرك من فوق الارض ، وما دامت الحركة الدائرية تستلزم وجود شىء ثابت من حوله تحصل الدورة ، إذن فالارض ثابتة فى وسط النظام الكونى »

على اننا لا نستطيع أن نأتى بصورة حقة تبين لنا طبيعة الجلاد الذى قام بين العلم واللاهوت، من غير أن نعود فى ذلك إلماما الى مالقى « غاليليو » بعد موته من عنت أعدائه . فقد طلب الى رجال الكنيسة أن يدفن فى مقابر أسرته فى « سانتا كروتشى » — Santa Croce — فرفضوا . وأراد أصدقاؤه أن يقيموا فوق قبره أثراً تذكاريا فلم يسمح لهم . وقال البابا « إربان الثامن » « لنيكولينى » — Nicolini — وهو السفير الذى كلفه بأن يعرض بعض المطالب الخاصة بغاليليو الميت عليه — « انه لاسوأ مثل يعطى للناس أن نسمح بتكريم رجل وقف من

قبل أمام محكمة التفتيش الرومانيـة لترويج فـكرة مثل فكرته المملوءة بالخطاء والكفران . ولم يقصرها على نفسه بل أقنع بها غيره فاحدث بذلك أعظم فضيحة عانت أمرها النصرانية » . ونفذت ارادة البابا ورجال محكمة التفتيش ، فدفن « غاليليو » من غير تكريم بعيداً عن أسرته ، ومن غير خدمة دينية ، ومن غير أن يقام على قبره نصبا ، أو تاريخا يشير الى العظمـة المخبوءة فى ذلك الرمس الذى ضم رفاته . ومضى على ذلك أربعون عاماً جرأ بعدها « بيروزى » — Pierozzi — أن ينقش على قبره تاريخا يشير الى حيث دفنت تلك العظام النبيـلة . وبعد مائة سنة استطاع « نيللى » — Nelli — أن ينقـل رفاته الى « سانتا كروزى » ليضعها فى مكان لائق بها ، وأقام عليهـا نصبا . وكانت النار لا تزال متسعرة والعداء لا يزال مستحكما ، فقد طلب اى رجال محكمة التفتيش أن يحولوا دون هذا التكريم « لرجل اتهم بمثل ما اتهم به « غاليليو » من السيئات والخطيئات » . وعلى ذلك رفضت تلك السلطات الكنسية أن يكتب على قبره أى تذكار من قبل ان يعرض نصه على هيئتهم المختصة بمراقبة المطبوعات ! ! !

على ان روح التعصب والبغضاء لم تكن قد خبت نارها حتى ذلك العهد ، وبعد موت « غاليليو » بمائة عام . ولم يرحيل من اجيال البشر جماعة فئة من رجال الدين فيها مثل « ماريني » — Marini — و « ده بونالد » — De Bonald — ورالى — Rallaye — و « ده جابرباك » — Da Gabriac — اخذوا على عواتقهم ان يشوهوا الحقائق ، وان يختلقوا النظريات التى تسود ذكرى « غاليليو » زوراً ليسلم شرف الكنيسة . ولـكن

الأغرب من هذا ان متونا تاريخية للتدريس كانت منتشرة بين طلاب العلم كل انتشار، قد عمد كاتبوها، خدمة للكنيسة، ان يشوهوا بكل طريق مستطاع كل الحقائق التي كونها الزمان من حول «ساليليو» وانى لعلى يقين من ان الكنيسة لم يعدم ضدها في زمان من الأزمان اعداء فكانوا اشد لدادة لها، واعظم نيلا منها، من اولئك الذين احتلقوا هذه الاشياء وروجوها بين الناس. فانهم بعملهم هذا قد مهدوا السبيل لكي يفلتوا من العقول الكبيرة المفكرة كل ما لها من الاحترام لذلك النظام الديني الكبير، والذي كان يظن خطأ بأن هذه الكتابات تخدم اغراضه العليا

ولم تكن الكنيسة البروتستانتية باقل نشاطا وحذقا في مقاومة المبادىء الجديدة في علم الفلك من الكنيسة الرومانية. فان الكتاب المقدس الذي وضع اصوله اوائل المصلحين من اتباع «لوثر» قد انتقل الى الاجيال التالية كأقدس ميراث، وأثمن تراث، ولم يزد في القرن التالي الا قيمة وتقديسا، وعلى الاخص تحت تأثير «كالوفياس» — Calovius — فان سعة علمه وصلابته المستمدة من الروح الكاثوليكية، قد عقدت له لواء الزعامة على الاوربيين. بيد انه رفض كل رفض ان ينزل على حكم العلم الصحيح والحقائق الثابتة لاجئاً الى اللاهوت مستنداً الى القول الدائم في رجوع الظل على مزولة الملك حزقيا [1] —

(١) «في تلك الأيام مرض حزقيا الملك للموت. فجاء إليه إشعياء بن آموص النبي وقال له: هكذا يقول الرب: أوص بيتك لأنك تموت ولا تعيش. فوجه حزقيا وجهه الى الحائط وصلى الى الرب وقال: آه يارب اذكر

—Ezekaiah— وفى وقوف الشمس ليوشع ، منكراً دوران الارض نافيا كل ما ظهر من آيات العلم الحديث ، على اعتبار انها مناقضة للتنزيل . وحتى اليوم — فى القرن العشرين ، قرن النور والمدنية — يردد اللوثريون فى امريكا براهين « كالوفاس » ، وعلى الاخص من كان منهم ذا نزعة كاثوليكية فى ميوله الدينية

أما فى بقية فروع الكنيسة البروتستانتية وشعبها الكثيرة ، فقد رأينا أن الكلفينيين والانغليكانيين وعلى الجملة كل الشيع البروتستانتية ، كانوا جميعاً فى موقف المعارضة لحقائق العلم الجديدة . ولقد وقع فى انجلترا أن أعلن دكتور « سميث » ـ Dr Smith ـ وهو من أعظم اللاهوتيين ، أن « الجمعية الملكية » انما هى جمعية تعمل ضد الدين ، وأن أعضاءها ملحدون . وكان من بين « البيورتانيين » ـ Puritans ـ العلامة « جون أوين » ـ John Owen ـ الذى أذاع أن مستكشفات « نيوتن » « قد قامت على ظواهر غير ثابتة ، وأنها مبنية على فروض عقلية تعارض

كيف سرت امامك بالامانة وبقلب سليم وفعلت الحسن فى عينيك . وبكى حزقيا بكاء عظيما » .

« فصار قول الرب الى اشعياء قائلا اذهب وقل لحزقيا . هكذا يقول الرب اله داوود ابيك . قد سمعت صلاتك . قد رأيت دموعك . هأنذا اضيف الى ايامك خمس عشرة سنة . ومن يد ملك اشور انقذك وهذه المدينة . واحامى عن هذه المدينة . وهذه لك العلامة من قبل الرب . على ان الرب يفعل الامر الذى تكلم به . هأنذا ارجع ظل الدرجات الذى نزل فى درجات آحاز بالشمس عشر درجات الى الوراء . فرجعت الشمس عشر درجات من الدرجات التى نزلتها » . عن الاصحاح الثامن والثلاثين من سفر اشعياء .

النصوص الصريحة التي جاء بها الكتاب المقدس ». وانك لتعجب اذ تعرف أن الشاعر «ملتن» - Milton - الذائع الصيت قد وقف متراوحا بين الناحيتين . ففي أول كتابه الثامن من قصيدته المشهورة « الفردوس المفقود » يتعلق بلسان آدم مكرراً ما اعترضه من صعاب في فهم النظام البطليموسي فيرسل اليه ملك يعيد على سمعه ما أجاب به رجال الكنيسة في تفسير ذلك النظام الكوني . ولكن الظاهر أن «ملتن» رجع بعد قليل الى النظر في نظرية « كوبرنيكوس » نظرة تقدير وتحليل (١)

ان النزعة الانجليزية الى روح الكثلكة ما زالت تبرهن على وجودها . ففي سنة ١٧٢٤ طبع «جون هتشنسون» - John Hatchinson - كتاب « مبادىء موسى » Moses' principia وفيه بث مذهباً فلسفياً حاول أن يقيم به فكرة في النظام الكوني يستمد أصولها من الانجيل . فحمل على مبادىء «نيوتن» معلناً أنها تؤدي الى انكار وجود الله ، وبذلك فتح للكنيسة باباً تدخل منه الى الطعن في العلم الحديث ، وجاراه في ذلك «هورن» - Horne - و«دنكان فوربس» - Duncan Forbes - و«جونس» - Jones - و «نيلاند» - Nayland - غير انه ظهر في الميدان رجل أعظم من هؤلاء جميعاً . فان « جون وزلي » - John Wesely - باجوئه الى تلك الطريقة التي تفرض على العقل أن يمضي عاكفاً على نصوص التنزيل لا يعدوها ، قد حمل على أن يعلن . «أن صناعة السحر اذا لم تكن حقيقة واقعة ، فلن يصح لدينا من شيء جاء به الانجيل » . بل انه مما يدلك على

(1) Or she from west her silent course advance,
Within offensive pace, that spinning sleeps
On her soft axle, while she paces even
And bears the soft with smooth air along.

حقيقة تلك العقاية ، أن هذا الباحث بعد أن اقتادته خطواته الى القول بفساد نظرية بطليموس واقرار نظرية « كوبرنيكوس » على وجه عام ، انقلب أزاء مستكشفات « نيوتن » شاكا غير ثابت اليقين . ومن حسن الحظ أن كرامة محتدة ، ونبالة أرومته ، قد حالت بينه وبين أن يتردى فى مهاوى الحقد ، أو أن يذهب ضحية لروح العداء ، أو أن يمضى متأثراً بشيء من موحيات التعصب المذهبي ، التى كان من شأنها أن تعوق خطى الذين يأتون من بعده عن بلوغ الحق واليقين .

فى ظلمات ذلك الخطاء الذى أرخى بسدوله حول أساليب التفكير اللاهوتى ، بدأت أنوار الحق تشع فى جو انجلترا وأمريكا على السواء . فانه مما يستلفت النظر أن « كوتون ميذر » — Cotton Mather — على ما كان فيه من النزعة الاورثوذكسية فى الاعتقاد بحقيقة السحر قد قبل سنة ١٧٢١ النظرية الحديثة فى علم الفلك ، مع كل ما يترتب عليها من النتائج

وفى العام التالى قامت دلائل قوية على أن الروح العلمية الحديثة قد أخذت تجد لها طريقا الى الجزر البريطانية . فان « توماس بارنت » — Thomas Burnet — على الرغم من أنه حاول أن يثبت فى الطبعة السادسة من كتابه « النظرية المقدسة فى أصل الارض » سنة ١٧٢٢ ما يذهب اليه الكتاب المقدس فى ثبات الارض فى وسط الكون ، فانه انذر قارئيه فى المقدمة انذاراً أخاذاً بالالباب ، اذ ذكر ذلك الخطاء الفاضح الذى جره القديس « أوغسطين » على الكنيسة تلقاء مذهب « الانتبود » (١)

(١) لم نعثر على كلمة عربية تعبر عن اصطلاح - antipode - فعربناه : ومعناه الساكنون فى الجهة المقابلة للجهة التى نسكنها من الارض .

antipodes – ثم قال «اذا أمكن البرهنة بالدليل القاطع خلال بضعة السنوات الآتية أو اثناء الجيل المقبل على أن الارض تتحرك بطريقة نافية لكل شك فان أولئك الذين قاموا فى وجه هذا المذهب متخذين من نصوص التنزيل أسلحة تقدموا بها فى ميدان المناقشة ، سوف يجدون من الاسباب التى تدعوهم الى طلب التوبة والغفران ؛ ما كان يجد القديس «أوغسطين» للتكفير عن خطئه لو كان اليوم حيا»

ومن حظ الانسانية أن البروتستانت لم يجدوا فى يدهم من هيئات القوة التى يقاومون بها آراء «كوبرنيكوس» ما كان يجد رجال الكنيسة القديمة . ومع كل هذا فقد كان فى بعض الوسائل التى تذرعوا بها لمحاربة العلم ما يتعذر عليهم الدفاع عنه ، دفاع الكاثوليك عن وسائلهم . ففى سنة ١٧٧٢ سافر من انجلترا البعث المشهور تحت قيادة الكابتن «كوك» – Cap Cook – لتحقيق بعض أغراض عامة وكان أعظم حجة من العلماء الذين انتخبوا ليرافقوه دكتور «برستلى» – Dr Priestly – وكان قد انتدبه السير «يوسف بانكس» – Sir Joseph Banks – لهذا الغرض . غير أن رجال الدين فى اكسفورد وكمبردج ، تدخلوا فى الامر زاعمين أن «برستلى» لم يكن كامل اليقين فى حقيقة التثليث ، وان هذا ربما يؤثر على دراسته الفلكية فيفسدها . وعلى هذا رفض «برستلى» وأعيق عن ان يرافق البعث ، فضاع بذلك كثير من الفوائد التى كانت تنتظر منه .

على أن وجهة النظر الكاثوليكية فى الفلك قد ظلت حية فى نواح أخرى من الكنيسة البروتستانتية . فانك تجد أن «ليبنتز» فى المانيا

قد هاجم نظرية « نيوتن » فى الجاذبية مستندا الى براهين لاهوتية ، ولو أنه وجد فى تلك النظرية شيئا من المساوئ فى أنها ربما تؤيد مذهب « لوثر » فى اتحاد طبيعتين أو أكثر من طبيعة واحدة أو اصطلاحا « تداميج الطبائع » Consubstantiation

أما فى هولاندا فقد كانت الكنيسة « الكالفينية » شديدة العداء ، قويه المراس ، فى مقاومة المذهب الجديد . غير أن لدينا برهانا يثير السخرية على أن المذهب « الكالفينى » كان عاجزاً على أن يقاوم الوحى العامى حتى فى مرابضه الأصلية . فان « بلاير » - Baer - قد طبع فى امستردام سنة ١٦٤٢ كتابه فى فائدة « الكرات » ، ومن أجل أن يجمل نفسه مع الفئة الناجية ، فصرجزء من كتابه على شرح نظرية بطليموس والجزء الآخر على شرح نظرية « كوبرنيكوس » تاركا للباحث كل حرية فى أن يختار بين الناحيتين .

على ان الجهود التى بذلت فى الكنيسة البروتستانتية لإيقاد نار الحرب على العلم لم تكن قد نفدت حتى عهد قريب جداً . فقد حاول رجال الكنيسة فى انجلترا أن يطفئوا مصباح العلم سنة ١٨٦٤ لو لم ينصرف « هرشل » - Herschel - و « بورنج » — Bowring — و « دى مورجان » De Morgan - الى نصرة العلم ، فوضعوا رجال الكنيسة فى موضع لم ينلهم فيه الا السخرية والازدراء . وكذلك التأم جمع رجال الدين اللوثريين فى برلين سنة ١٨٦٨ ليعارضوا حركة العلم الحديث . وكفى بذلك امثالا . ولكن من حسن الحظ انه كان فى المانيا إذ ذاك « باستور كنالك » — Paston Knak — فانه ذهب فى برهنته على فساد

نظرية « كوبرنيكوس » الى انها لا تلائم فى ناحية من نواحيها حقيقة الاعتقاد فى الانجيل . فكان ذلك سبباً فى ان يبدد شمل المجمع مشيعاً ببسمات الاحتقار ، ونظرات السخرية

لقد رفضت الكنيسة الكاثوليكية ، فى حركتها الحديثة التى قاومت بها علم الفلك الجديد ، وفى بعض البلاد التى بلغت من التمدين مبلغاً كبيراً ، أن تتعظ ببعض الاخطاء الكبرى التى وقعت فيها بعض شعب الكنائس البروتستانتية ، وتردت فى حمأتها اسفافا وبلا تحفظ

وعلى الرغم من ان الكنيسة القديمة قد ارتكبت خطأ كبيراً فى السماح بنشر كتب ومتون عديدة لم يكن الغرض منها الا تشويه عصر « غاليليو » ببث كثير من الاضاليل ، وكان من وراء ذلك أن ضاعت الثقة بتعاليمها التى كانت تحاول ترويجها بين فئة من ناشئتها وصفت بحب العلم والاستعماق فى النظر والاستبصار ، فانها ظلت بعيدة عن معرة الاستمرار فى العكوف على جعل تعاليمها والايمان بنصوص الكتاب المقدس ، وقفاً على قبول النظرية البطليموسية فى نظام الكون

غير أن الأمر لم يكن كذلك فى المذهب « اللوثرى » بامريكا . فقد طبع سنة ١٨٧٣ بمدينة « سانت لويس » وبمطبعة المجمع اللوثرى فى مقاطعة « ميسورى » — Missouri — كتاب (١) ذاع أن مؤلفه كان رئيساً لمجمع المعلمين فى احدى الكليات اللوثرية

---

1 Astronomische Unterredung

لم يظهر فى العصور الاخيرة من طعن فى نظام الفلك الجديث ، فكانه اقذع مما جاء فى هذا الكتاب ، أو اكثر تضليلا . ففى أول صفحة من المقدمة يتساءل مؤلفه ، بعد أن لخص مجمل النظريتين «أيهما الحق » ؟ ثم يقول — «ان من السهل على أن أدرر أيهما الحق ، لو كان الامر مقصوراً على انه استنتاج عالت فيه العقل الانسانى حريته.ولكن الله الرحيم ، قد أوحى الينا بالحقيقة فى الأنجيل . فان كل ما فى الكتاب المقدس دلائل وبراهين تقنعنا بان الارض هى الجرم الرئيسى «Hoap Kurper»فى نظام الكون ، وانها تقف غير متحركة . وان الشمس والقمر لم يوجدا الا ليمداها بما تحتاج اليه من ضوء »

ولقد مضى المؤلف بعد هذا مستنداً الى نصوص الكتاب المقدس ، لا ليظهر بطلان نظرية «كوبرنيكوس» ونواميس نيوتن وحدها ؛ بل ليظهر اخطاء الكثيرين ممن هم أعظم من انبت العصر الحديث من رجال الفلك . ثم يقول . « لا يسبقن الى حدس أحد أنى ابحث عن الحق ؛ فى اية ناحية هو . اهو فى الأنجيل ام فى اقوال رجال الفلك ؟ كلا . فانى أعلم ذلك حق العلم . لان ربى القادر لا يكذب أبداً . ولا يخطىء أبداً . ولا يخرج من فيه الا الحق . ولا حق سوى ما تكلم به فى حقيقة نظام الكون والارض والشمس والقمر والنجوم »

ثم يقول .

« ومن أجل أن ما جاء به الكتاب المقدس من حق منغمر تحت هذا ، فلذلك أرى أن السؤال المتقدم على جانب عظيم من الخطر .

فإن رجال العلم وغيرهم يلجؤون الى فكرة مضللة ، محصلها ان الله إنما يعلمنا نظام الخلاص فى الآخرة ، لا نظام الكون فى هذه الدنيا »

ومما يلذ ملاحظته ، أن بناء مثل هذا المعتقد السمح حياً قائماً على فنون أصيلة من مراسيم العبادة ، لم يكن السبب فيه تعاليم بثها راهب من رهبان الكنيسة القديمة ملىء غيرة على الدين ، بل استمدت عناصر البقاء من دخل استاذ مشهور تابع لشعبة من شعب البروتستانتية ، لا تفخر بشيء ، فخرها بأنها من ناشرات النور والعرفان

كذلك لم تعلن الكنيسة القديمة تلك الحرب الشعواء على مؤسسي العلم الحديث بعد موتهم ، وحدها وبلا شريك

ففى العاشر من شهر مايو سنة ١٨٥٩ دفنت رفاة « اسكندر فون همبولت » — Alexander Von Humboldt — أما مجهوداته فتعد من مفاخر القرن التاسع عشر ، ولذلك كانت جنازته من أفخم ما وقعت عليه عين فى برلين . وكان من بين الذين انتهزوا فرصة الشرف ، بأن يكونوا من المشيعين ، الامير ولى العهد ، الذى صار فيما بعد الامبراطور غليوم الاول . ولكن مع كل هذا لم يكن بين المشيعين أحد من رجال الدين اللهم الا من خصص منهم للقيام بالخدمة الدينية ، وقد كانت تعرف بابتعادها عن الروح الارثوذكسية

* * *

٥ — نتائج الانتصار على غاليليو

فرح رجال الكنيسة بانتصارهم — إسكات ديكارت — اضطهاد كامبانيلا وكبلر — المقاومة وانتصار العلم — حدوث اللاهوتيين — المحاولات التي اتبعت لتأجيل تراجع الكنيسة

* * *

نرجع الآن الى الكلام فى النتائج التى ترتبت على قضية « غاليليو » .

بعد أن فاز رجال الكنيسة على « غاليليو » حيا وميتا ، وبعد ان استفادوا هذا الانتصار فى اخضاع أساتذة علم الفلك فى كل أوروبا لآرائهم ، لم يسعهم الا أن يعلنوا ابتهاجهم ، ويعبروا عما يخامر قلوبهم من لذة الانتصار . وكثيراً ماعات صيحتهم بأنهم اقتلعوا جذور الهرطقة والالحاد والكفر بالله ، باقتلاعهم جذور المذهب القائل بأن الأرض تدور دورة مزدوجة ، حول محورها ومن حول الشمس ، موجهين الى محكمة الكنيسة أخص عبارات الشكر والتبجيل باطاعتها وتنفيذها للارادات الشفوية التى أصدرها أحد البابوات ، والاوامر الكتابية التى وجهها اليها آخر . ولقد عرفنا من قبل أن تلك الكتب المرذولة التى تعلم الحق الجديد قد وضعت فى فهرست الكتب التى يحظر على النصارى قراءتها . وقد صدرت هذه الفهرست بأمر بابوى يلعن كل من يمس هذه الكتب من أصحاب المعتقد النصرانى ، مذيلا بتوقيع البابا التى كان متربعاً فى كرسى « القديس بولص » فى ذلك العهد

على ان الخسائر التى أصابت العلم من جراء انتصار النزعة اللاهوتية لأ بلغ من أن يسبر الانسان غورها لدى أول نظرة يلقيها على الموضوع . ولنذكر فى هذا الصدد امراً واحداً . فلقد كان فى أوروبا فى ذلك العصر مفكر من أولئك المفكرين الذين قلما تجود بامثالهم بطون الامهات . كان فى أوروبا « رينيه ديكارت » . وعلى الرغم مما فى استنتاجاته من الخطأ الكبير ، فان ثمار الحق التى احتوت عليها تلك الاستنتاجات كانت كثيرة منوعة الصور . وكان قد أنجز شيئاً كثيراً لخير الانسانية حتى ذلك العهد . فان وصفه للمذهب الدردورى — The theory of vortices — فى الطبيعة — وهو فرض وجود مادة متجانسة فى الفضاء تحكم حركتها النواميس الكونية كقاعدة لاصل النظام الطبيعى المنظور ، ولو لم يكن سوى نظرية فرضية ، فانه قضى كل قضاء على النظرية القديمة فى أصل الكون ، نظرية القبة الصلبة التى تظلل الارض ، وتحريك السيارات فى دورتها بأيدى الملائكة . تلك النظرية التى بلغت من التأثير فى العقول مبلغاً كبيراً ، حتى ان « كبلر » نفسه قد أفسح لها فى عقله مجالا . ولقد بعث المحاربون فى سبيل العلم فى ذلك النابغة روحاً ، فغدى حاملا للعلم ، جامعا فى ثنايا عقله الكبير كل البحوث العلمية التى ذاعت فى عهده . وكان لا بد من أن تحدث نتائج ابحاثه عصراً جديداً فى تاريخ الدنيا . وكان غرضه أن يجمع كل فروع المعرفة والفكر فى مقالة واحدة فى حقيقة العالم ، ومن أجل أن يصل الى ذلك ظل أحد عشر عاما طوالا مكبا على درس علم التشريح وحده . غير ان نهاية « غاليليو » قد أفقدته كل

أمل ؛ وانتزعت من قلبه كل تشجيع . وهنا خيل اليه انه فقد المعركة ، فترك تصميمه فارا من الميدان فرار من لا أمل فى أوبته

غير أنه لم يمض غير قليل حتى ظهر للعالم أجمع أن انتصار الكنيسة واستظهارها على أعدائها لم يكن فى الحقيقة الا هزيمة مروعة . ففدانهالت البراهين الناصعة من كل مكان على أن « كوبرنيكوس » و « غاليليو » كانا على حق . وعلى الرغم من أن البابا « إربان الثامن » وأعضاء محكمة التفتيش قد أبقوا « غاليليو » فى عزلة تامة بعيداً عن كل ما يحيط به ، ممنوعا حتى عن الكلام فى دورة الارض المزدوجة ، وعلى الرغم من اللعنة التى وجهت الى كل ، « الكتب التى تبرهن على دوران الارض » ، وتثبيتها فى الفهرست ، وعلى الرغم من أن الامر البابوى كان لا يزال معلقاً فيها ، مقيداً لضمائر المؤمنين الذين يحاولون فهم العلم الحديث ، وعلى الرغم من أن الكليات والجامعات التى كانت تحت حكم الكنيسة قد أجبرت على أن تعلم النظرية القديمة ، فقد استبان لكل ذوى الالباب من أهل ذلك العصر ، أينما كانوا وحيثما حلوا ، أن انتصار الكنيسة لم يكن فى الحقيقة الا كارثة مجتاحة ، حوطت نتائجها المنتصرين .

هنالك فتح الرواد لأنفسهم باباً جديداً . فان « كامبانيلا » — campanella — فضلا عما كان فى آرائه من الغموض ، كتب « دفاعا عن غاليليو » . وقد وقع تحت آلات التعذيب فريسة سبع مرات متتالية ، لارتكابه مثل هذه الهرطقة وغيرها ، فى موضوعات السياسة والدين .

ثم ظهر « كبلر » - Kepler - فقاد أنصار العلم الى ميادين جديدة حازوا فيها النصر والفخار . فان « كوبرنيكوس » على نبوغه وعبقريته

وسعة عقله ، لم يستطع أن يخلص أساليب التفكير العلمي تخليصاً تاماً من نزعات اللاهوت وقواعده . فان مذهب « ارسطوطاليس » ومذهب القديس « توما اكويناس » في أن الدائرة وذلك الشكل الهندسي ، هو أتم كل الاشكال وأكمل الاوضاع الهندسية ، قد أفسد عليه بعض نواحي مذهبه ، وترك فيه ثغرات مفتوحة ، لم يتوان أعداء العلم في أن يلجوها. غير أن « كبلر » قد رأى الخطأ ، فلم يلبث ان فاض على العالم ، بما خص به من نبوغ كبير وتفوق عظيم ، بثلاثة نواميس لا تزال تقترن باسمه الى اليوم ، وبذلك أتم بناء تلك القاعدة العلمية التي لم يهدمها أحد حتى الساعة. وكثيراً ما كان يتكلم ويفكر كرجل ملهم بما يقول . وكانت المواقع التي اخترق صفوفها محنة أليمة . فقد أنذره المجمع الاكليروسي البروتستانتي في « ستوتجارت » بان يقلع . « عن أن يقذف عالم المسيحية في مهاوى الفوضى بما يبث من خيالات مسفة » . ومن ثم أمر في حفلة رسمية . « بان يوفق بين نظريته في الكون وبين نصوص الكتاب المقدس » . ولقد وبخ مرة واستهزىء به أخرى ، ثم سجن . ولقد نامت عليه كل القوات الكنسية بكلاكلها . البروتستانت في « ستيريا » — Styria — « وفورتمبرج » — Wurtemburg — والكاثوليك في النمسا وبوهيميا . ولكن تبعه اذ ذاك « نيوتن » « وهالي » — Halley — و « برادلي » — Bradley — وغيرهم من كبار الفلكيين ، ولم يبق للعلم من كل هذا الا الفخر والانتصار.

غير أن هذا الجهاد كله لم ينه المعركة . ففي خلال القرن السابع عشر كله ، وفي فرنسا ، وبعد كل البراهين الناصعة التي أتم بها « كبلر » علم

الفلك الحديث، لم يجرأ أحد أن يعلن نظرية «كوبرنيكوس» أو يبث حقائقها علناً، حتى أن «كاسيني» - cassini - الفلكي العظيم، لم يستطع أن يعلن اقتناعه بها ودفاعه عنها. وفي سنة ١٦٧٢ عدد الأب «رتشيولي» - Riccioli - اليسوعي البراهين التي تؤيد نظرية «كوبرنيكوس» والبراهين التي تنقضها، فوجد أن ستاً وأربعين برهاناً تؤيدها، وسبعاً وسبعين تنقضها. وانك لتجد حتى بعد أن ولج العالم باب القرن الثامن عشر، وبعد أن أثبت سير «اسحاق نيوتن» نظرياته بزمان طويل، أن «بوسيه» - Bossuet - أسقف «مو» - Meaux - وأعظم لاهوتي انبتته فرنسا، قد مضى معلناً، أن النظرية الجديدة في الفلك مناقضة للتنزيل.

ولم تظهر دلائل تدل على أن الجو سوف تنكشف غياماته سراعاً خلال ذلك القرن. ففي انجلترا طبع «جون هتشنسون» كما رأينا من قبل كتابه «مبادئ موسى» - Moses' principia - سنة ١٧٢٤، ومضى موقناً بأن التوراة العبرية عبارة عن مذهب كامل في الفلسفة الطبيعية، وأنها مناقضة للمذهب «النيوتوني» في الجاذبية. ولقد رأينا من قبل أن هذا اللاهوتي قد تبعه جيش عرمرم من رجال الكنيسة ينحون نحوه، ويألفون لفه. وطبع اثنان من مشهوري الرياضيين في فرنسا سنة ١٧٤٨ في الفرنسوية كتاب «المبادئ» — Principia — الذي ألفه «نيوتن». غير أنهما حذرا من أن يقعا فريسة في براثن المراقبة الكنسية، وضعا للكتاب مقدمة كانا يعتقدان أنها خطأ فاضح وتزوير لا مبرر له. وبعد ذلك ثلاثة أعوام فاه «بوسكوفتش» — Boscovich — الرياضي اليسوعي المشهور بهذه الكلمات :—

« أما أنا ، فمع شديد احترامي للكتاب المقدس ولقرارات محكمة التفتيش المقدسة ، اعتبر أن الارض ثابتة لا تتحرك ، ولكن مع ذلك لا أرى بأساً من أن ألجأ الى السهولة في الشرح والتعبير ، فاعتبرها متحركة وأن أسوق براهيني في هذا السبيل . لانه قد برهن أخيراً على أن كل الظواهر تؤيد هذا الفرض » .

أما في ألمانيا فقد طالت الحرب مناظبة شعواء طوال النصف الاول من القرن الثامن عشر ، وعلى الاخص في البقاع التي عمرها البروتستانت . فقد أغرق دكاترة اللاهوت اللوثريين ألمانيا في فيضان مجتاح من الكتب والمقالات ليبرهنوا على أن نظرية « كوبرنيكوس » لا يمكن أن يوفق بينها وبين نصوص التوراة . وكذلك نجد في كثير من المعاهد اللاهوتية ، وفي كثير من الجامعات التي خضعت السلطة الكنسية ، أن رجال الدين قد ذهبوا بكل طارف من العلم وتالد . ومع كل هذا فانا نرى في أواسط القرن الثامن عشر على فئة من رجال الكنيسة المتنورين ، قد شعروا شعوراً تاماً بأنهم فقدوا الموقعة وباؤوا بالخسران .

ففي سنة ١٧٥٧ أخذ البابا « بنيدكت الرابع عشر » أنور البابوات جميعاً وأحدهم ذهناً وأغزرهم علماً ، يبحث الامر بنفسه ، فقرر مجمع الفهرست - Congregation of the Index - سراً على إثر ذلك ، أن الكنيسة تسمح لمبادىء « كوبرنكوس » أن تذيع وأن يتناولها المؤمنون بالدرس . غير انك تجد بعد هذا أن الفلكي المعروف «لالاند» -Lalande- قد حاول عبثاً سنة ١٧٦٥ أن يحمل رجال الكنيسة في روما على أن يخرجوا كتب « غاليليو » من الفهرست :

ناهيك بأن السلطات التي ظلت قوامة على المعاهد في أوروبا الكاثوليكية ، وعلى الاخص في اسبانيا ، قد حظرت ، حتى أواسط القرن التاسع عشر ، تدريس المذهب النيوتوني . ففي سنة ١٧٧١ رفض مجلس جامعة « سلامانكا » أشهر كل الجامعات ، وأعرقهن قدما ، أن يدخلوا تدريس الفوسيقى في برامج الجامعة قائلين — «إن « نيوتن » لا يعلم من شيء يمكن أن يخرج رجالا عظاماً في المنطق أو الغيبيات وكذلك « غاسندي » - Gassendi - و «ديكارت» فإن كليهما لا يتفق والحقائق المنزلة ، كما يتفق ارسطوطاليس».

أما تهمة الانتقام من الموتى فقد بقيت حية ردحا طويلا من القرن التاسع عشر . ففي الخامس من شهر مايو سنة ١٨٢٩ اجتمع جمهور غفير في مدينة « فارسوفيا » - Warsaw - ليجددوا ذكرى كوبرنيكوس تكريما له ، وليدشنوا تمثاله الذي صنعه «ثورولدسن» - Thorwaldsen - .

لقد عاش «كوبرنيكوس» عيشة مسيحية ملؤها الورع والتقوى . ولقد نال حب الناس واحترامهم لما جبل عليه من صفات الاشفاق والرحمة وحب التصدق لوجه الله ، ولم يقف أحد على عبارة واحدة يصح أن تتخذ موضعا للطعن في معتقده الديني . وكان قسيسا في كنيسة «فروئنبرج» - Frauenburg - ونقشت على قبره أشد الجمل النصرانية مسا للقلوب ونبلا من الوجدان . فأصبح من الطبيعي أن ينتظر الناس في احتفال «فارسوفيا» أن يقوم رجال الدين بخدمة دينية ، ومنظمو الاحتفال يضعون أنظمته على هذه الفكرة . وعلى هذا سارت تلك المظاهرة الكبرى الى الكنيسة وانتظر الناس قيام رجال الدين بواجبهم . فمضت ساعة ولم يظهر

منهم أحد. بل لم ينشأ أحد منهم أن يظهر. ومن هذا تجد أن «كوبرنيكوس» الرحيم المتصدق الورع، ذلك الذى يجب أن يعتبر من أنبل الاشياء التى وهبها الله للعلم والدين معا، كان لا يزال واقعا تحت سخط الكنيسة ورجالها. بل ظل كتابه بعد ذلك خمسة أعوام مدرجا فى الفهرست، معدوداً من الكتب التى تحظر الكنيسة قراءتها على المؤمنين.

وطبعت من الفهرست نسخة سنة ١٨١٩ وكانت كتب «غاليليو» و «كوبرنيكوس» لا تزال مدرجة فيها، كما كان شأن الطبعات التى سبقتها. ولكن وقعت سنة ١٨٢٠ أزمة شديدة، وحرج كبير. فان القس «سيتيل» — Settele — أستاذ علم الفلك فى جامعة روما، قد كتب متناً للتدريس أخذ فيه نظرية «كوبرنيكوس» على أنها من الحقائق التى لا يشك فيها. وهنالك رفض «انفوزى» — Anfossi — رئيس البلاط المقدس ومراقب المطبوعات أن يسمح بطبعه ما لم يراجع «سيتيل» كتابه ويذكر أن نظرية «كوبرنيكوس» ليست أكثر من فرض. وعلى هذا لجأ «سيتيل» الى البابا «بيوس السابع» فأمر بان يعرض الامر على مجمع وزراء الفاتيكان المقدس. وفى ١٦ أغسطس سنة ١٨٢٠ صدر قرار المجمع بانه من المسموح «لسيتيل» أن يلقى نظرية «كوبرنيكوس» على انها حق ثابت، وعزز البابا هذا القرار. ولقد كان هذا القرار مثاراً لكثير من المناقشات. وبعد لأى اتفق كرادلة محكمة التفتيش المقدسة فى ١١ سبتمبر سنة ١٨٢٢ على ان نشر الكتب التى تؤيد حركة الارض وثبات الشمس، على ما يقول به كبار علماء الفلك فى العصر الحديث، أمر مسموح به فى روما. وصدق البابا

« بيوس السابع » على هذا القرار ، ولكن ظل الفهرست من غير أن يعاد طبعه ثلاثة عشر عامًا بعد هذا ، حتى طبع سنة ١٨٣٥ ، إذ رفعت منه أسماء الكتب التي كانت تبرهن على نظرية دوران الأرض وتدافع عنها

ولكن النزاع لم يكن قد انتهى بعد . فإن كل حركة من حركتي الأرض قد قامت عليها براهين جديدة تثبتها لأعين الناظرين ، كما لو كانت كل البراهين القديمة غير كافية لاثباتها . فإن اختلاف موقع النجوم الثوابت ؛ أي اختلاف الموقع الذي يشاهد فيه النجم من سطح الارض، عن الموقع الذي يجب أن يكون فيه فيما لو شاهدت من مركز الارض ، ذلك الناموس الذي استكشفه « بيسل » — Bessel — وغيره من الفلكيين سنه ١٨٣٨ ، قد أثبت دروان الارض حول الشمس إثباتًا قاطعًا ، كما أن تجربة « فوكول » — Foucalt — في الرقاص — Pendulum — قد أظهرت للعين اظهاراً جليًا ان الارض تدور حول محورها . ومن أجل أن يعلن عن هذا الامر ويذيع حقيقته أجرى الاب « سكشي » — Secchi — الفلكي المعروف، وهو من اليسوعيين هذه التجربة علنًا في احدى كنائس روما سنة ١٨٥٢ ، أي بعد مضي مائتين وعشرين عامًا على تلك الجهود التي بذلها اليسوعيون انفسهم في سبيل أن تنصب لعنة الكنيسة على رأس « غاليليو » العظيم

* * *

٦ — تراجع الكنيسة بعد انتصارها على غاليليو

سهولة تراجع اللاهوتيين من البروتستانت — الصعوبات التي اعترضت الكنيسة القديمة — اتخاذ عصمة البابا سلاحاً ضد نظريه كوبرنيكوس — محاولات يراد بها اخفاء الحقيقة — المحاولة الأولى : في ان غاليليو لم يتهم لاثباته دوران الارض ، بل لانه حاول اثبات هذه النظرية بنصوص التوراة — سهولة القضاء على هذه المحاولة — المحاولة الثانية : في ان غاليليو لم يتهم من أجل الهرطقة ، بل لعدم احترامه البابا — فساد هذا الزعم — المحاولة الثالثة : في ان الامر كله لم يخرج عن كونه جدالاً وقع بين الاساتذة الارسطوطاليسيين والاساتذة الذين اتبعوا الاسلوب التجريبي الحديث — المحاولة الرابعة : في ان اتهام غاليليو كان موقوتاً — المحاولة الخامسة : في ان غاليليو كان فريسة للبروتستانت والكاثوليك على السواء — الجهود التي بذلت لتسويد سمعة غاليليو من الوجهة الاخلاقية — الجهود التي بذلت لاخفاء مستندات محاكمة غاليليو — اخفاق هذه الجهود — المحاولة السادسة : في ان الباباوات بصفتهم هذه لم يحرموا هذه النظرية مطلقاً ولم يلعنوها — نقض هذا الدليل بنفس كلام المدافعين عن الكنيسة — نقض اعداء الكاثوليك لهذه المزاعم — مجهودان في سبيل التوفيق — نيومان — دي بونالد — تأثير كل هذا على المفكرين من العلماء — ليس هذا الخطأ براجع الى الكاثوليك اكثر من رجوعه الى البروتستانت — ليس في الدين بل في اللاهوت

« * »

إن كل تاريخ يكتب في انتصار علم الفلك على اللاهوت المذهبي ، لا محالة يكون ناقصاً ، ما لم يحط فيه كاتبه بتلك الانهزامات المتتالية التي انتابت الكنيسة متراجعة عن كل مواقفها السابقة في قضية « غاليليو »

إن تراجع أهل اللاهوت من البروتستانت لم يكن صعبا . فلقد كفاهم قليل من المهارة فى تأويل التوراة ، مع نزر يسير من الدقة فى تطبيق تلك الحكمة المعروفة التى تنسب الى الكردينال « بارونياس » — Baronius — حيث قال انه ليس من شأن الانجيل أن يعرف الناس حركات الاجرام السماوية كيف تسير ، بل من شأنه أن يعرفهم كيف يسيرون هم الى الملكوت السماوى ، مضافا الى ذلك استعمال بعضه من تلك الجمل الخطابية التى تتفجر بالرياء ضد الذين اضطهدوا رجال العلم وطاردوهم

غير أن انهزام الكنيسة القديمة كان أشد مراسا وأصعب متناولا ، فان تراجع علماء اللاهوت الذين دافعوا عن الكنيسة مبررين أعمالها قد استغرق قرنين كاملين

وعلى الرغم من كل ما قال هؤلاء المدافعون ، لم يبق ظل من الشك فى أن عصمة البابا قد اتخذت فى كل الحالات، وبلا استثناء ، سلاحا مرهفا ضد القول بحركة الارض المزدوجة . ولقد أظهرت المستندات التى حفظت فى قضية «غاليليو» والتى طبعت أخيراً أن « بولص الخامس » قد ساعد فى سنة ١٦١٦ بكل ماأوتى من قوة وجهد ، تلك الحركة التى رمت الى لعن « غاليليو » واتهامه ، ولعن كتب « كوبرنيكوس » وكل من يعلم مذهب دوران الارض حول محورها ومن حول الشمس ، وكذلك كان الحال فى اتهام « غاليليو » سنة ١٦٣٣ ، وفى كل الاجراءات التى أدت إلى ذلك الاتهام ، كان « إربان

المأمن » رجال الساعة وبطل الرواية . ولم يكن من المستطاع أن يحاكم « غاليليو » بغير اجازة منه .

حقيقة أن البابا لم يوقع القرار الذى صدر ضد نظرية « كوبرنيكوس » فى ذلك الوقت . ولكن ذلك حدث فيما بعد . وفى سنة ١٦٦٤ أضاف « الاسكندر السابع » الى الفهرست الذى يحرم على المؤمنين كتب « كوبرنيكوس » و « غاليليو » — « وكل الكتب التى تؤيد نظرية دوران الارض » — أمراً بابويا وقعه بنفسه يلزم قطيع الكنيسة الخضوع لما جاء فى ذلك الفهرست ، ولقد أيد هذا الامر ، بعبارات جلية وبكل ماتحتمل الالفاظ من معانى الحزم والشدة والعصمة من الخطأ ، تحريم — « كل الكتب التى تبرهن على دوران الارض وثبات الشمس » .

بهذا وبكثير غيره أصبح موقف الكنيسة الرئيسية دقيقا خطيراً وكانت أول حركة ذات بال لجأ اليها المدافعون عن الكنيسة قولهم ان « غاليليو » لم يامن ويتهم لانه آمن بدوران الارض ، بل لانه أراد أن يؤيد هذا القول بنصوص من التوراة . وفى هذا القول قليل من عنصر الحق . فانه من المحقق أن كتب « غاليليو » التى أرسل بها الى « كاستللى » والى الغراندوقة « كريستين » والتى حاول أن يثبت فيها أن مذهبه الفلكى لايعارض التوراة ولا ينافيها ، قد أورى زناد التعصب الدينى فى قلوب رجال اللاهوت . ولقد أفادت هذه المراوغة زمانا ما فى تحقيق الاغراض التى رمت عليها . فان الثابت أن « ماليت دوبان » البروتستانتى Mallet de Pan ، قد جدد هذه النغمة بعد اتهام « غاليليو »

بمائة وخمسين عاما ، متخذا منها عضداً يستند اليه فى سبيل الوصول الى نظره ردى كان ينشدها من رجال الكنيسة القديمة .

على أنه ليس من شىء هو أبعد عن أحكام بديهة العقل الاولية من أن يلجأ كاتب فى هذا العصر الى مثل هذا اذا ما أراد أن يدافع عن الكنيسة ، بعد أن ز مرت المستندات الاصلية التى حفظت فى قضية « غاليليو » بين جدران قصر الفاتيكان ، ولم تنشر الا منذ عهد قريب. فان خطابات « غاليليو » الى « كاستللي » والى الفراندوقة « كريستين » لم تطبع الا بعد اتهامه . وعلى الرغم من أن رئيس أساقفة « بيزا » قد عمل جهده لكى تتخذ هذه الخطابات وثائق ضد «غاليليو» فانها لم تذكر سنة ١٦١٦ الا عرضا ، ولم تذكر البتة فى سنة ١٦٣٣ . أما الاشياء التى استند اليها رجال المجمع المقدس سنة ١٦١٦ الذى التأم بحضور البابا « بولس الخامس » فى اتهام « غاليليو » على اعتبار أنها — « منافية للبديهة وخطأ فى اللاهوت وهرطقة صريحة ، لانها تناقض نصوص الكتاب المقدس » — فقضية « أن الشمس هى المركز الذى تدور الارض من حوله » . أما الذى اعتبر أنه — « مناف للبديهة وخطأ فى الفلسفة ، وأن أقل ما فيه من وجهة النظر اللاهوتى أنه مناقض للمعتقد الصحيح » — فقضية « أن الارض ليست مركز النظام الكونى وأنها متحركة ، وأن لها دورة يومية »

وكذلك اذا رجعت الى أمر البابا « إربان الثامن » الذى نفذه رجال المحكمة التفتيش سنة ١٦٣٣ . فانك تجد أن « غاليليو » قد أجبر

على أن يقسم منفصلا من «خطأ القول ، وهرطقة الاعتقاد ، بان الارض تدور »

أما الشيء الذي حظرته الفهرست باجازة الأمر البابوي الذي أصدره « الاسكندر السابع » سنة ١٦٦٤ فكان — « كل الكتب التي تعلم دوران الارض وثبات الشمس » . وكذلك نجد أن ما احتوته الفهرست المصدر بالأمر البابوي والذي يقيد ما جاء به ضمائر المؤمنين ، والذي ظل اكثر من مائتي عام ، مصبوباً عليه لعنة الكنيسة فكان — « كل الكتب التي تؤيد القول بدوران الارض »

وعلى هذا ترى أن « غاليليو » لم يتهم مرة لانه حاول — « أن يوفق بين آرائه ونصوص التوراة »

وبعد أن أخفقت الكنيسة في هذا الميدان ، وعجزت عن أن تجد فيه ما يمكن أن يكون دفاعاً معقولا عن تصرفاتها، رجع المدافعون عنها الى الاستتار حول القول بان « غاليليو » لم يحاكم من أجل الهرطقة بل لعنادة وقلة احترامه للمقام البابوي .

وكذلك لقيت هذه الاضلولة الجديدة فرصة أخرى للبقاء زمانا ما. ومما لاشك فيه أن « إربان الثامن » وهو من أكثر من رأت روما من البابوات أنفة وتشامخاً ، قد خدعه بعض أعداء « غاليليو » بحجة أنه لم يقم نحوه بكل ما يلزم من واجبات الاحترام الرسمية . أولا — لان « غاليليو » ظل أمينا على مذهبه متعلقا به حتى بعد إتهامه سنة ١٦١٦ وثانيا — لانه أشار في كتابه « المحاورة » سنة ١٦٣٢ الى البراهين التي أقامها البابا لنقض مذهبه الفلكي

غير أنه مما لا يحتمل شكا أن الالتجاء الى التأول بأن اصدار قرار خطير النتائج كذلك القرار الذى صدر ضد « غاليليو » كان راجعا الى نزعة شخصية قامت فى نفس حبر الكنيسة الاعظم ، لا التجاء الى شىء ليس من شأنه أن يحوط مذهب العصمة البابوية بالكثير مما يتطلع اليه الراغبون فى بث هذا المعتقد فى قلوب الناس .

وفضلا عن هذا فان الالفاظ التى استعملت فى درج الجمل نفسها تدل على سخافة استدلال أولئك الذين حاولوا الدفاع عن الكنيسة . فان هذه الجمل قد تضمنت دائما كلمة « هرطقة » ولم تستعمل كلمة « احتقار » مطلقا . هذا فيما يختص بالمسألة الاولى . أما المسألة الثانية ، فان ما تنطق به المستندات الرسمية لم يبق طريقا لمؤول ، ولا سبيلا لمفسر . فان هذه المستندات نفسها تظهر «غاليليو» دائما بمظهر الخاضع المنيب لقداسة البابا ، وانه تلقى براهين قداسته بصبر وطول أناة . ولا ريب فى انه قد فاض بكثير من عبارات الغضب والاحتقار فى وجه الذين حاولوا اهانته وتعمدوا القدح فيه . غير أن الاعتقاد بان ذلك كان السبب فى محاكمته ، لامر فيه من الاسفاف ما فيه . وهو فوق ذلك ينزل بالبابا « بولص الخامس » والبابا « اربان الثامن » و « بيلارمين » وغيره من اللاهوتيين ، وأعضاء محكمة التفتيش الى منازل الفجرة الآثمين ، لانهم تناقضوا تناقضا صريحا فى تعيين الاسباب التى حملتهم على أن يقفوا ذلك الموقف من « غاليليو » . وعلى هذا لم يجد المدافعون عن الكنيسة من هزيمة هى أشبه بالانتصار ، إلا بان يفروا من ذلك الميدان فراراً

أما الاضلولة الثانية فدارت رحاها حول القول بأن اضطهاد «غاليليو» وما كان. لم يكن السبب فيها الا ذلك الصراع الذى قام بين الاساتذة الارسطوطاليسيين من جهة، الاساتذة المؤيدين للطريقة التجريبية الحديثة من جهة أخرى. غير أنهم هوجموا فى موقفهم هذا وهزموا فيه بايسر ما يتصور. فقد قيل لهم اذا كانت هداية الكنيسة وإرشادها أمور من المستطاع أن تنزل الى ميدان يتصارع فيه أساتذة الجامعات، وأن تتخذ وسيلة يتذرع بها حزب من الاحزاب لتحريم الاعتقاد بحق قامت كل البراهين الكونية مؤيدة له، فكيف يمكن أن يصدق مع هذا أن الكنيسة فى ذلك الوقت كانت تفضل أى نظام انسانى دنيوى غير معصوم عن أن يزل ويخطىء، وأن يكون مقوداً بعصبة من الجاهلين لا بطبقة منتقاة من الرجال الكاملين؟ واذا صح أن يكون هذا البرهان سديداً، فانه يدل على أن حالة الكنيسة كانت أسوأ بكثير مما قال فيها أعداؤها. وهنا، بين صيحات الفرح التى كانت تبعث من أفواه فئة لم ينبض لهم من الخزى عرق، ولم يهتز لهم من الخجل عصب، لجأ المدافعون عن الكنيسة الى وسائل أخرى.

قال بعد هذا أن اتهام «غاليليو» كان «موقوتاً». على أن فى هذا الموقف من الضعف ما لا يدانيه ضعف فى موقف آخر، عمد اليه رجال الكنيسة. لان الكلمات التى استعملها قرار الاتهام نفسه برهان كاف لنقض هذه الاباطيل. بيد أن الاعتذار عما يمان رؤوس الكنيسة صراحة وباجازة من حبرها الاقدس ازاء مذهب من المذاهب بقولهم «مناقض لنصوص الكتابية المقدسة». أو «مناف للمعتقد الصحيح»

أو « خطأ ومضاد للبديهة من وجهى النظر اللاهوتية والفلسفية » . كما كان موقفهم ازاء مذهب « غاليليو » ، بأنه كان من الامور الموقوتة أو المشروطة على شيء ما ، لاسفاف هو بمثابه القول بان الحق الذى تستمسك الكنيسة بعراه ، عرضة لان يغشاه الباطل حيناً بعد حين . ومن هـذا الميدان فر المدافعون عن الكنيسة أيضاً كما فروا من غيره .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل قام نزاع وثار جدل ، كان فى بعض وجوهه أغرب من كل ما تقدمه وأعجب . فقـد قيل « بان ضمائر الكاثوليك فى تحطيم « غاليليو » لم يكن بأكبر من ضمائر البروتستانت لانهم كانوا أكثر من لاهوتى الكاثوليك سعياً فى حمل البابا على أن يأتى ما فعل » .

ولكن اذا كان فى مستطاع البروتستانتية أن تجبر المقام البابوى على أن يمتد نفوذه الى هذا الحد فى مسأله من أخطر المسائل التى انطوى تحتها كثير من مشكلات الدين والسياسة بالغة الاثر ، فاذا يكون أمر الاعتقاد « بعصمة البابا » وبان سلطته البابويه وحكمته الارشادية فى مسائل الدين جميعها ، محوطة بالعنايه القدسية من أن ينالها خطأ أو ينتابها زلل ؟

وبينما كان اللاهوتيون يتراجعون من موقع بعد موقع ، كان من ورائهم جمع من الجيوش الصغيرة العدد الضئيلة الأثر ، فاضت على العالم النصرانى بصور من الاضاحيك والتعريض ، وألوان من السفسطة . واتحدت وجهت كل الجهود اذذاك الى غرض واحد هو تسويد ذكرى « غاليليو » من ناحية أخلاقه الشخصية . ولم ينس أعداؤه أن يعيدوا الى الحاء

ذكرى ما كان فى أخلاقه من الشذوذ فى عهد صباه ؛ بل عمدوا الى تضخيم الصغائر ، وتكبير التافه من أمره . غير أن كل هذا كان ضئيل الأثر ، قليل الجدوى ، حتى انك تجد أن أعداء « غاليليو » ؛ حتى فى منتصف القرن التاسع عشر ، أى فى سنة ١٨٥٠ ، قد رأوا أن التراجع ضرورى مرة أخرى ، ولكن الى مواقع أخذوا يرسلون منها قذائف جديدة ، خصت بشىء من المهارة والدقة .

ان الوسائل الجديدة التى لجأت اليها اليها الكنيسة تستحق عناية الذكر . كانت المستندات الاصلية عن محاكمة « غاليليو » قد احضرت الى باريس خلال غزوات « نابوليون بونابرت » فى ايطاليا . ولكن الحكومة الفرنسوية ردتها الى روما سنة ١٨٤٦ ؛ بعد أن أخذت تلك الحكومة وعداً صريحاً من السلطات البابوية بطبعها ونشرها . وفى عهد الى المونسنيور . « مارينى » - Marini - أن يكون واسطة نشرها على العالم .

كان هذا اللاهوتى من طابع اولاء من رجال الكنيسة الذين طالما رموا الكنيسة ، كما رموا العالم ، بالبلايا والسيئات . فعلى الرغم من الوعد الصريح الذى وعد به البلاط البابوى ، شاءت حكمة « مارينى » أو شاء غروره ؛ أن يكون أداة فى يد السلطات الرومانية ، تنكث بذلك العهد الكبير . وبكثير من الحذف والتحوير فى كثير من المستندات ، قد هيأ الاسباب لكل ضروب السفسطة والجدل الكلامى التى أريد بها تأييد عصمة البابا وصيانتها ، كما أريد بها تحطيم سمعة « غاليليو » ، أن تبقى جلية واضحة ، دون الحق الثابت . وكان « مارينى » أول من بث تلك الضلالة الكبيرة ، ضلالة أن « غاليليو » لم يحاكم ويحرم من

جراء هرطقته ، بل لقلة أدبه .

والظاهر أن الأثر الاول الذى أحدثه كتاب المونسنيور « ماريني » كان مفيداً فى الاحتفاظ بخط الرجعة الذى اتخذه المدافعون عن الكنيسة. ولقد كان فى مساعدة كتاب من أمثال « وارد » - Ward - أثراً فى وضع حائل يحول بين السلطات الرومانية وتذمر العالم الحديث .

غير أنه بعد قليـل من الزمان ظهر باحث هو نقيض المونسنيور « ماريني » نزعة وأخلاقا . كان هذا الباحث رجلا فرنسويا ، هو مسيو « ليبنوا » - L'Epenois - على أن « ليبنوا » كان مخلصاً للكنيسة وفيـا بعهدها ، كما كان « ماريني » ولـكنه لم يكن كماريني من حيث القدرة على الـكذب والبهتان . فانه فى سنة ١٨٦٧ وصلت يد «ليبنوا» الى مستندات قضية « غاليليو » فى قصر الفاتيكان ، فنشر كثيرا من أشدها أهميـة وأعظمها خطراً ، من غير أن ينقص منها أو يزيد اليها ، مسوقا الى ذلك بنزعة الانصاف وحب الحق، لا بشعور الورع، ولا موحيات التقـوى الكاذبة.

وبذلك تصدعت كل الحصون التى شيدت على ما جاء بكتـاب المونسنيور «ماريني». فتراجع عنها المدافعون عن الـكنيسة الى مواقع أخرى. أصبح المدافعون عن الكنيسة بهذا على حافة الهاوية . ولهذا أخذوا يعدون العدة لاقتحام موقعة داصلة ، بل لقتال اليأس والقنوط . فبدؤوا يحيون فـكرة أن البابوات والـكنيسة قد أهينت كرامتهم واستهزىء بهم قروناً طوالا ، معلنين أن بابوات روما « كبابوات » لم يحرموا قط آراء « كوبرنيكوس » و « غاليليو » ومذاهبهم الـكونية ، بل حرموها ولمنوها بصفتهم الشخصية كأناس يجوز عليهم الخطأ ، كما يجوز الصواب .

وعلى هذا لا تتقيد الكنيسة بأعمالهم ، وإن الاتهام والتحريم كانا من عمل الكرادلة وأعضاء محكمة التفتيش ومجمع الفهرست . لهذا غابت النيابة المقدسة يد البابا عن أن توقع على قراراتهم ! ! ! وما من شيء هو أبلغ تعبيرا ، وأفصح بيانا ، عن روح اليأس التي تمكنت في قلوب المدافعين عن الكنيسة ، من أمثال هذه المراوغات الغريبة . فإن الحقيقة الواقعة أن قرار الاتهام الرسمي الذي أذاعه «بلارمين» سنة ١٦١٦ يعلن صراحة وبدقة ، أنه إنما يصدر ذلك الاتهام « باسم قداسة البابا » .

وعلى الرغم من هذا ، فإنك تجد منذ عهد «إربان الثامن» ومن بعده أن سلطات الكنيسة خلال القرن السابع عشر برمته ، قد مضت معلنة أن القرار كان باسم البابا والكنيسة . فإن « إربان الثامن » قد أعلن أن قرار سنة ١٦١٦ من عمل البابا « بولص الخامس » والكنيسة ، وأن قرار سنة ١٦٣٣ هو من عمله والكنيسة معا . كذلك قال البابا « اسكندر السابع » في أمره البابوي - Speculatores domus Israel - الذي أصدره سنة ١٦٦٤ في صراحة وبيان ، أنه يلعن ويحرم كل الكتب التي تؤيد مذهب دوران الأرض .

ولما أراد « غاسندي » - Gassendi - أن يدافع عن فكرة أن القرار ضد « كوبرنيكوس » و « غاليليو » لم تجزه الكنيسة ، قام ثقة لاهوتي هو الأب «ليكازر» - Lecazre - عميد جامعة «ديجون» ، وناقضه صراحة ، معلنا «أنه لم تكن ثمة من الكرادلة ، بل هي سلطة الكنيسة العليا التي اتهمت « غاليليو » ، وعلى هذا الرأي وافق من بعد البابا وبقية السلطات الكنسية ، بالكلام طورا ، وبالبحث العميق طورا آخر»

ولما حاول « ديكارت » وغيره أن يتكلموا في هذا الشأن ، قوبلوا بالاحتقار والازدراء . فإن الأب « كاستللي » وهو من أكبر أنصار « غاليليو » بل من المخلصين له الوفيين بعهده وكان عالماً بما سوف يترتب على ذلك القرار ، لايغفل عن عامه بيد من وضع ، قد ظهر في كتابه الذي وجه به إلى السلطات الكنسية مقتنعاً بأنه من عمل الكنيسة وحدها وبلا شريك. وكذلك الكاردينال « كويرينغي » Querengym في خطاباته ، والسفير « جويشارديني » - Guicciardini - في بلاغاته و « بولاكو » - Polacco - فيما كتب مدحضاً أقوال رجال الكنيسة ، والمؤرخ « فيفياني » في ترجمته عن حياة « غاليليو » ، وكلهم كتب تحت عين الكنيسة وبوحيها ، قد مضوا على الاعتقاد بأن البابا والكنيسة كلاهما اتهم غاليليو » ولم يرتفع من جانب « روما » صوت واحد ينكر ذلك أو يعارضه . ناهيك بأن محكمة التفتيش ، ومن ورائها « بيلارمين » أكبر لاهوتيي ذلك العصر ، قد قنعوا بهذا الرأي . وفضلاً عن حقيقة أن « بيلارمين » قد أعلن صراحة بأنه يفهم قرار الاتهام « باسم قداسة البابا » فلدينا الفهرست الروماني ، متضمناً قرار الاتهام أكثر من مائتي عام ، وهو مصدر بأمر بابوي واضح الغرض ، فرض أن هذا الاتهام صادر بموافقة كل التابعين للكنيسة ، وأنه مقيد لضمائرهم وخطرات نفوسهم ، صابًا اللعنة الأبدية على — « كل الكتب التي تؤيد مذهب دوران الأرض » . على أنه سرعان ما ظهر أن التغرير بالنفس في مواجهة كل هذه الحقائق ، مضافاً إليها أن « غاليليو » قد أجبر على أن يقسم مقاطعاً عن « هرطقة الاعتقاد بدوران الأرض » خضوعاً لأمر كتابي من البابا ، كان بلا طائل أو جدوى .

لدينا تاقاء مايدعى المدافعون عن الكنيسة من أن البابا غير مسؤول، مجموعة هذه البراهين التى أدلينا بها ، مشفوعة بالامر البابوى الذى أصدره « الاسكندر السابع » سنة ١٦٦٤ . وهذا كاف فى التدليل على أن الموقعة قد ربحها العلم ، وخسرها اللاهوت .

عند هذا الحد وقف ذلك الصراع الكبير ، وعدل عنه رجال على المذهب الكاثوليكى خصوا بسعة الصدر وحسن النية . ففى سنة ١٨٧٠ اعتقد رجل من رجال الكنيسة الانجليزية ، ومن أخص المتعصبين للمذهب الكاثوليكى الرومانى ، هو الموقر مستر « روبرتس » - Rev. Mr. Roberts - أن الوقت قد حان للاعتراف بالحق ، فطبع كتاباً عنوانه « قرارات الحبر الاعظم ضد دوران الارض » وفيه أثبت أن السلطة البابوية استعملت كل وسائلها ، ومن بينها العصمة من الخطأ ، ضد نظرية دوران الارض . ولقد أظهر هذا الكاثوليكى الامين على الحق ، من المستندات الاصلية المحفوظة فى قصر الفاتيكان ، أن البابا « بولس الخامس » قد ترأس المحكمة التى أصدرت قرار الحظر ضد فكرة دوران الارض سنة ١٦١٦ والتى أجبرت « غاليليو » على الاقلاع عن مذهبه . وأثبت أن البابا « إربان الثامن » قد عمل جهد ما يستطيع سنة ١٦٣٣ لتوطئة الظروف لاتمام الاتهام الاخير ، متخذاً على نفسه عبء كل مسؤولية فى المستقبل . ودلل فى النهاية على أن البابا « اسكندر السابع » قد استخدم معتقد العصمة البابوية لتحريم « كل الكتب التى تبرهن على دوران الارض » ، بذلك الامر البابوى - Speculatores domus Israel - الذى أضيف الى الفهرست . وقال بعد ذلك إنه بناء على

القواعد التي وضعتها سلطات الكنيسة العليا ، وعلى الاخص في عصر البابا « سكتوس » الخامس و « بيوس » التاسع ، لم يكن ثم مهرب من الوصول الى هذه النتائج .

ولقد حاول كثير من اللاهوتيين أن يتقوا قوة براهين مستر « روبرتس » بوسائل غير مجدية . فلجأ البعض مثل دكتور « وارد » - Dr. Ward - ودكتور « بووى » - Bouix - الى مفارقات دقيقة ، وجمل خطابية منمقة ، وخفف آخرون مثل دكتور « جرمياه مورفى » - Geremiah Murphy - عن أنفسهم ثقل الصدمة بحماسيات مزخرفة . وكانت نتيجة كل هذا أن أبرزت المطابع طبعة أخرى من كتاب مستر « روبرتس » أكثر اقناعا من سابقتها ، وأنصع برهانا . وفضلا عن هذا الكتاب ظهرت مقالة من قلم ذلك الكاثوليكي النابه مستر « سانت جورج ميفارت » - St. George Mivart - اعترف فيها بأن موقف مستر « روبرتس » ثابت لا يتزعزع ، معلنا ان الله القادر على كل شيء قد أوقع البابا والكنيسة في ذلك الخطأ الفاحش تلقاء نظرية « كوبرنيكوس » ليعلمهم أن العلم خارج عن ميدانهم ، وأن القوامة على الحقائق العلمية متروكة للعلماء وحدهم دون غيرهم .

وفضلا عما تذرع به رجال الكنيسة من محاولات أرادوا بها حل تلك المعضلة ، وعلى الرغم من توسلاتهم ، فقد كفت صلابة مستر « جورج ميفارت » وأمانته لانهاء الخلاف الجدلي من بين الكاثوليك على قدر ما اتسمت لآرائه عقول النابهين منهم .

أما اذا أردنا أن نعيد هذه الذكرى للاذهان مرة أخرى خلال

هذا العصر الحديث ، فلا يسعنا الا أن نذكر جهدان صرفا نحو التوفيق بين الكنيسة والعلم ، في ذكرهما فائدة ولذة ؛ لانهما يدلاننا على مقدار ما تولى اللاهوتيون من حيرة في القرن التاسع عشر

اما الجهد الاول فبذله « جون هنرى نيومان » — John Henry — Neuman — في تلك الايام التي تسكع فيها متراوحاً بين الكنيستين الانغليكانية والرومانية . قال في احدى خطبه في جامعة اكسفورد

« تقول التوراة بان الشمس تتحرك ، وأن الارض ثابتة . ويقول العلم بأن الارض تتحرك وأن الشمس ثابته . كيف يمكننا أن نعرف أى الفريقين في جانب الحق قبل أن نعرف ما هي الحركة ؟ فاذا كانت آراؤنا في الحركة ليست سوى نتيجة اتفاقية تقتضيها حواسنا الحاضرة فكلا الفرضين غير صحيح ، وكلاهما صحيح . كلاهما غير صحيح من الوجهة الفلسفية ، في حين أن كليهما صحيح لتأدية بضعة أغراض عملية في النظام الذى توجد فيه كليهما »

وانك لن تجد في كل ماظهر من المؤلفات المضادة للاهوت أنفسها من قول هو أكبر من هذا مجابة للشك ، ومخيبة لليقين . ومن أجل أى غرض أراد هذا اللاهوتى أن يرمى شباب اكسفورد في أعماق ذلك الشك القاتل باتقاء وجود أى أساس للحق أو في أنه موجود وجوداً مطلقاً ؟ لا لشيء . سوى أن ينقذ من الدمار أسلوباً محطما من أساليب الفكر ، شاءت الاقدار أن يولد ذلك اللاهوت في أحضانه .

وأما الجهد الثاني فقد أوحى به الى « ده بونالد » ونما على صفحات

« الدبابن رفيو » يسمى أحد متابعى الكردينال « نيومان » ، على ما عرف من أمره . ولم يكن ذلك الجهد بشىء اللهم الا التراجع من خط القتال بخدعة توجه ملامتها الى الله الواحد القهار . قيل — « غير أنه يمكننا أن نشك فى ان الكنيسة قد اعاقت خطا العلم عن أن تمضى فى التقدم والارتقاء ، انقول بأن الذى أعاقها هو ذلك الظرف الذى اقتضى أن يضع الله كثيراً من متون التوراة فى قالب يشعر ظاهره بانكار دوران الارض . غير أن الله هو الذى فعل هذا لا الكنيسة . وفضلا عن هذا ، فان الله ما دام قد رأى ان الصالح فى أن نعاق خطا الحقائق العاسية عن أن تنبعث فى طريق النشوء زمانا ، فليس من لوم على الكنيسة ، حتى ولو صح ما ترمى به ، اذا هى احتذت المثال الذى اختطته يد الله واتخذته إماماً »

ولم تبعث هذه البراهين من شىء فى نفوس المفكرين قدر ما بعثت فيهم من عوامل الاشفاق ، وبواعث الرحمة بقائليها . على أن لهذا الامر شبيه فى التاريخ . وما يشبهه الا تلك الجهود التى بذلها مستر « جوس » — Mr Gosse — فى سبيل التوفيق بين علم الجيولوجيا وسفر التكوين بأن فرض أن الله ، لغرض يخفى علينا ولا نستطيع ادراكه ، قد خدع المفكرين خديعة كبرى ، بأن خط على لوحة الارض كل مظاهر النشوء خلال عصور متطاولة فى القدم ، بينما أن الحقيقة أنه خلقها فى ستة أيام ، كل منها نهار وليل لاغير

على أن تدليل « ده بونالد » كتدليل « نيومان » كلاهما جهد القانط اليائس ، الذى تمثل فى لاهوتيى الكنيستين . الانغليكانية

والرومانية ، لتفوزا بإنقاذ شيء من اللاهوت المذهبي القديم ، أن تناله ، كما نالت غيره ، معاول الهدم والتحطيم

ان هؤلاء وأمثالهم لم يغرسوا في قلوب المفكرين من أهل الحرية الا فكرة واحدة ، فكرة أن هنالك صراعا ضروريا بين العلم والدين مثلهم في ذلك كمثل رجل يربط نفسه ، وهو فوق اليابسة ، في مرساة سفينة أخذت تغرق بين لجات اليم المتلاطمة . فانهم ربطوا بين النصرانية وبين تلك الفكرات الخاطئة بأقوى خيوط استطاعوا أن يحيكوها من قواعد المنطق . ولو أن الغلبة قد تمت لهم ، لقضي على تقدم العلم والمعرفة قضاءه برما :

* * *

وقد نتساءل من جهة أخرى : ماذا فعل العلم بالدين ؟ لم يفعل من شيء بل ان « كوبرنيكوس » لم يفلت من يد الكنيسة الا بالموت و « جيوردانو برونو » أحرق حيا كجبار من جبابرة الكفر والالحاد . و « غاليليو » سجن وأهينت كرامته كأخبث من أقات الارض من الزنادقة . و « كيبلر » اتهم بانه « يحاول أن يرى مملكة المسيح في احضان الفوضى بتخيلاته الفاسدة » . « ونيوتن » هوجم ولمز لانه « أنزل يد العناية عن عرشها » . ومن طريق هؤلاء أسس العلم للدين دعامة أقوى من دعاماته الاولى ليقوم عليها ، وزوده بحقائق وتصورات أنبل مما كان بين يديه ، وأهدى سبيلا .

تحت ظلال المذهب الفلكي القديم نشأ فلكي الامراء « الفونسو أوف كاستيل » Alfonso of Castille وهنالك رأى ما في نظرية بطليموس

من منافاة للهدى والرشاد ، وكان على جهل بغيرها ، فرمى العالم الاوروبى بقذيفة من الكفر والالحاد اذ قال بانه لوكان حاضراً يوم خلق العالم لاقترح للكون نظاما أقوم من نظامه وأدنى الى الحكمة . وتحت ظلال المذهب الفلكى الحديث قال « كيبلر » مملوءاً ايمانًا — « انى لاأستطيع أن أبلغ بفكرى الى معرفة فكر الله » . على أن الفرق بين الروح الدينية المنبعثة من صدر هذين الرجلين ، هو فى الواقع أكبر مقياس يقاس به مقدار ماأنتج العلم فى ذلك الصراع الكبير ، من فائدة للدين .

وما من شىء هو أبعد عن فضيلة الاقساط فى القول من أن تخص الكنيسة الرومانية بطابع خاص من اللوم والتقريع فى كل تلك المقاومة التى لقيها العلم من اللاهوت . فان الكنيسة البروتستانتية ، ولو أنها لم تستطع أن تبلغ فى كل الحالات من القوة مابلغت نظريتها ، الا أنها تستحق من التقريع قسطا أوفى ، فان اضطهاد « غاليليو » وأنصاره قد وقع فى أوائل القرن السابع عشر ، فى حين أن اضطهاد مخالف السلطات البروتستانتية لامثال روبرتسون شميت ، وونشيل ، وودرو ، وتوى ، وشباب أساتذة بيروت ، كان فى نهاية القرن التاسع عشر ! ! ! وكذلك لاننسى أن أنواع الاضطهاد التى أتاها الكاثوليك كانت ملائمة كل الملاءمة لتلك المبادىء التى عكف عليها الدينيون اذ ذاك ، كاثوليك وبروتستانت ، فى نواحى العالم كله . اما الاضطهادات التى ارتكب جريمتها البروتستانت فكانت لاسباب بعيدة جهد البعد عن تلك المبادىء التى تبعها البروتستانت ، أو التى يزعم البروتستانت انهم يتبعونها ، بل ولم ترتفع من ناحية صيحة بالاحتجاج الى تلك المبادىء فكانت أعلى من صيحة تلك

الفئات التى اضطهدت رجالا من أنبغ رجال العصر ، وهم فوق ذلك نصارى تكونت جريمتهم فى نظر هؤلاء بأنهم كانوا من صفاء النفس ورجاحة العقل بحيث فقهوا حقائق العلم التى ذاعت لعهدهم ، وحملتهم شجاعتهم وأمانتهم على أن يعلنوا ثقتهم بها .

وليس من العدل فى شيء أن تلهج البروتستانتية بلوم الكثلكة لأنها حرمت تعليم حقائق علم الفلك فى جامعات أوروبا الكاثوليكية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . فى حين أن العلم الحقيقى المنتزع من أبحاث الجيولوجيا والبيولوجيا والانثروبولوجيا قد أنكرت حقائقه كما حرم تعليمه ، فى جامعات أمريكا البروتستانتية وكلياتها خلال القرن التاسع عشر .

كذلك ليس من حق البروتستانتية أن تشير بشيء من الاحتقار للفهرست الكاثوليكى ، ولا أن تعلق أهمية كبرى على أن كل كتاب ذا شأن فى عالم العلم ظهر خلال ثلاثة القرون الفارطة قد ضم إليه ليحرمه المؤمنون ، مادمنا نرى أن شباب عصرنا الحاضر يغذون فى الجامعات البروتستانتية الامريكية « بفتات من الخبز مشبع بعصير الكنيسة » أكثر مما يغذون بلباب المعرفة الصحيحة ، وأنهم لا يعطون الا ما وافقت عليه سلطاتهم ؛ فى حين أنهم يظلون بعيدين عن الفكرة الحديثة فى العلم ، تلك التى بنها فى العصر الحديث رجال من أمثال داروين وسبنسر وهكسلى ودريبار وليكى وغيرهم .

أما ما يحق للبروتستانتية أن تفخر به فهو أن بعض نواحيها التى عثات فيها نزعتها التعصبية قد تحررت بالفعل . غير أن الكثلكة يحق

لها أيضاً أن تشير الى حقيقة أن البابا « ليو » الثالث عشر Leo XIII قد أحدث تغييراً كبيراً ، ملؤه النبالة وكرم الاخلاق ، تلقاء مناقشة المستندات القديمة مناقشة حرة ؛ وأن أيام المونسنيور « ماريني » قد انقضت وعفت آثارها ، فإن مكتبة الفاتيكان ، بما تنطوي عليه من المادة التاريخية ، قد فتحت أبوابها للباحثين من الكاثوليك والبروتستانت . بل قد أعطى هذا الحق لكل الناس على اختلاف نزعاتهم الدينية وتباين مذاهبهم .

أما الاخطاء القديمة ، فان العالم المتمدين جميعه قد وقع في أغلاط كبيرة تلقاءها ، تساوى فيها الكاثوليك والبروتستانت . ان تلك الأخطاء لم تكن اخطاء الدين . انها اخطاء المذاهب اللاهوتية التي استمدتها من نصوص الكتاب المقدس عقول خصت بالكثير من قصر النظر وضعف التدليل ، وهي فوق ذلك مناقضة للكلمات الحكيمة والاعمال الرشيدة التي تؤثر عن مؤسسي المسيحية . على أن تلك المذاهب كثيراً ما ينسبها الجاهلون الى نزعة الدين نفسه . واذ قال أحد مشهوري اللاهوتيين من رجال الكنيسة الانغليكانية المعاصرين قولة حق أشار فيها الى — « أن هؤلاء اللاهوتيين لما اعيوا عن التمييز بين الفجر وبين الضوء المنبعث عن حريقة امتدلهيبها ، قد انصرفوا وهم أعداء النور والضياء » .

الفصل الثاني

علم الجغرافية

١ — صورة الأرض

الفكرة الاولى فى أن الأرض سهل منبسط — الكلدان — المصريون — الفارسيون — العبرانيون — تطور الفكرة فى كروية الارض عند اليونان — معارضة الكنيسة القديمة ـ تطور الفكرة فى النظرية المقدسة المستمدة من التوراة والانجيل ـ قوزماس إنديكوبلوستس يكمل النظرية المقدسة ـ تأثيرها في الفكرة النصرانية ـ نماء الفكرة فى كروية الأرض ـ أريدور و بيده يقبلان النظرية ـ الجدال في سببها وانتصارها .

* * *

نجد بين كثير من القبائل المتوحشة بقايا فكرة أولية فى أن الارض عبارة عن قرص منبسط ، أو خوان مسطح ، عرشه السماء ، أو أن السماء قبة أو خيمة عظيمة تظلله ، وأن السماء ترتكز على الجبال ، كأنها أعمدة تحملها . ولا مرية فى أن مثل هذا الاعتقاد طبيعي صرف . فانه يوافق ظواهر الاشياء . ومن أجل هذا غزى ذلك المعتقد نواح كثيرة من مختلف المذاهب اللاهوتية .

ولقد نما هذا الاعتقاد وبلغ نهاية التطور فى عصور المدنية المصرية ومدنية الكلدان . أما النقوش الاشورية التى قرئت حديثاً ، فتمثل الآله

« مردخ » - Marduk - وقد أخذ فى البدء بخلق السماوات والارض . والأرض مستقرة على الماء ، وفى جوفها « وادى الموت » . ومن فوقها تنتشر السماء ، وهى عبارة عن قبة مسدولة عند آخر الافق من كل الجوانب مستقرة على قواعد برزت من « الثبج العظيم » الذى يحيط بالارض من جميع جهاتها .

وفى كلا الجانبين ، الشرقى والغربى ، من تلك القبة السماوية أبواب ، تدخل منها الشمس فى الصباح ، وتنزلق خارجة منها فى المساء . ومن فوق هذه القبة محيط عظيم ، ينحدر فى ذلك المحيط الذى يغشى الارض عند آخر الافق من جميع جهاتها ، وتقوم السماء كفاصل يفصل بين الارض وبين ذلك الثبج المتلاطم فوقها ، أن يصعقها انقضاضاً . ومن فوق كل هذا ، من فوق السماء والمحيط الذى يعلوها ، تكون عليون ، أو جوف السماوات العليا .

أما المصريون فاعتقدوا بأن الارض مائدة منبسطة مستطيلة الشكل وأن السماء عرشها ، وهى عبارة عن قبة زرقاء من المعدن الصافى . وفى أركان الارض الاربعة تقع العمد التى تحمل هذه القبة مستقرة عليها ، ومن فوق هذه السماء الصافية تكون « المياه المتلاطمة التى تعلو السقف العظيم » . وكانوا يعتقدون بأن العالم عندما كان عماء - Chaos - ، استطاع أحد الآلهة بقوته المفرطة أن يرفع المياه الى العلاء وأن ينشرها من فوق القبة الزرقاء . وفى السطح الاسفل من تلك القبة أو السقف أو السماء الصافية ، أو ما شئت فسمها ، تعلق النجوم لتنير الارض ، وأن المطر انما يصيب الارض اذا فتحت نوافذ السماء فانحدرت مياه المحيط الاعلى منها . وهذه

الفكرة ، وغيرها من الفكرات ذات الآصرة بها ، قد استمكنت من معتقد الفئات الكهنوتية في مصر ، وتغلغلت في صميم لاهوتهم وفي علومهم المقدسة . وما تلك المعابد التي لاتزال قائمة حتى اليوم بعروشها المنمقة بالنجوم ، والكوكبات والسيارات ، والاشارات الدالة على مناطق البروج ، الا رمزاً حياً على ذلك المعتقد القديم .

ونجد في بلاد فارس نظريات جغرافية قد قامت على أمثال هذه التصورات ثم اندمجت في الدين المقدسة .

ومن هذه المآخذ ومن غيرها ، أعرق منها قدما ، انتقل الميراث الجغرافي الى العبرانيين . وانك لتجد في كتبهم المقدسة جملا عديدة ، خصت بالكثير في رائع التصور وجمال الوضع ، ترجع بك ، اذا ما وقفت عليها ، الى كانا الذكريين المتقدمين حدثنا بهما . فانك كثيراً ما تعثر على قولهم — « أساس الارض من فوق الماء » — « وينابيع الغور الأبعد » — و « الدائرة المحيطة بسطح الغور » — و « القبة الزرقاء » — و « أركان الارض » — و « أعمدة السماء » — و « نوافذ السماء وأبوابها » — الى غير ذلك من الميراث .

فلما أن ضربت الانسانية بقدمها الثابت في مدارج المدنية ، اختمرت فكرات جديدة ، ونشأت آراء بكر ، وعلى الأخص في نشأت العقل اليوناني ، نشأت كروية الارض . ولقد روج هذه الآراء كثير من رجال المدرسة الفيثاغورية ، وافلاطون وارسطوطاليس ، وغيرهم : على أن هذه الفكرات كانت غامضة يكتنفها الابهام من نواح كثيرة ، وبالاخص المناقضات العقلية ، غير أنها كانت أول ماقرب من حرائم الحق نامطاء

شكل الارض وصورتها . وظلت هذه الجراثيم حية فى بيئة العقل متنقلة من جيل الى جيل ، حتى أسلم بها الزمان الى عقول اندمج فيها الاسلوب اللاهوتى فى الكنيسة النصرانية الاولى لدى إبانها ، فبدأت هذه الجراثيم تشق لمناحى الحياة الدنيا طريقاً مفتحمة أسياج اللاهوتيين ، متخذة عقول مجموعة صغيرة من النابهين المفكرين ميداناً لجهادها ، فأبرزوا الى الوجود فكرة أن الارض كرة تارة أخرى .

من آباء الكنيسة عصبة خصت بالكثير فى بعد النظر وسعة العقل ، سلطت عليها تقاليد المدرسة الفيثاغورية ترجيحاً ، وفكرات افلاطون وارسطوطاليس تحقيقاً ، أرادوا أن يذعنوا للقول بأن الارض كرة ، لو لم تذعر الاغلبية العظمى من ذلك الرأى جانحة الى انكاره . فقد خيل اليهم أنه مهدم لنصوص التوراة . وما عنوا بذلك فى الواقع الا أنه مهدم للتفاسير التى فسروا بها التوراة ، لا للتوراة نفسها . وكان « إيوسيبيوس » -Eusebius- أو من حمل السلاح وأعلن الحرب .

مضى « إيوسيبيوس » مقتنعاً بما جاء فى الانجيل من قرب فناء الارض وهلاك أهلها ، ولذلك تراه فى كل ما كتب قائماً بأنه ليس من شأنه أن ينقض الفكرة فى كروية الارض لانها غير صحيح علمياً ، بل لان التفكير فى مثل هذه الاشياء جهد ضائع وعمل بائر . قال موجها الكلام الى الباحثين : « إننا لا يجب أن نفكر فى مثل هذه الاشياء ، لا لأننا نجهلها ، بل لاننا نزدرى عملا تذهب نتائجه سدى . ولهذا يجب أن نوجه بأرواحنا فى سبيل أتم نفعاً وأسرع انتاجا » . وقال « باسيل » - Basil - الذى عاش فى « قيصرية » -Caesarea- « إنه لمن أتفه الاشياء

أن نعرف اذا كانت الارض كرة أو اسطوانة أو قرصاً أو انها مقعرة الوسط » . وأشار « لاكتانتيوس » - Lactantius - الى فكرة الذين يشغلون أنفسهم بعلم الفلك فقال بأنها فكرة « مرذولة معدومة النفع ، بعيدة عن الذوق » ، رافضاً القول بكروية الارض مستنداً الى التوراة والعقل معاً . وكذلك استغل القديس « يوحنا كريسوستوم » -John Crysostom - نفوذه ضد هذا المعتقد. ولم تكن مقاومة « افرايم سيروس » - Ephraem Syrus - أكبر جهابذة الكنيسة السورية القديمة ، والذى كان يدعى دائماً « قيثارة الروح القدس » بأقل عناداً وعسفاً .

غير أن خواص أهل العلم الأنجيلى ، ومنهم آباء ، ومنهم أساقفة ذوو شهرة ، من أمثال « تيوفيلوس » - Theophilus - الانطاكى فى القرن الثانى و « كليمان » - Clement - الاسكندرى فى القرن الثالث ، وغيرهم عديد تتابعوا خلال القرون المتتالية ، لم يقنعوا بأن يظهروا بمظهر الرافضين لنظرية قر رأيهم على أنها نظرية وثنية قديمة لا غير ، بل أخذوا يكونون ، مستندين الى أناجيلهم ، نظرية نصرانية جديدة ، تكونت على مر الزمان ، بأن أضافت اليها احدى الكنائس فكرة ، وزودتها أخرى بغيرها ، وهكذا دواليك حتى بلغت كمالها ومنتهاها . ولقد عمدوا الى ما وصل اليهم من التقاليد الكثيرة التى نقلت اليهم عن العالم القديم والى الآية السابعة من الاصحاح الاول من سفر التكوين [١] فضموا

(١) « وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه. وليكن فاصلا بين مياه ومياه. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك . ودعا الله الجلد سماء . وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً

نابتى اليقين بما جاء فى التوراة من اشارات فى أن الارض كانت عند خلق العالم مغطاة بقبة صلبة القوام أو — « قبة زرقاء » — وأضافوا الى ذلك ما عثروا عليه فى سفر أشعياء والمزامير ، والتى جاء فيها أن السماوات منتشرة « كستار » أو « كخيمة يعيش فيها الاحياء » . إذن فالكون عبارة عن منزل ، أسفله الارض وعرشه القبة الزرقاء ، التى يعلق فيها الواحد القهار الشمس لتحكم النهار ، والقمر والكواكب لتحكم الليل . وأما السقف أو العرش فعبارة عن أرض سفلى لطابق أعلى فيه صهريج ، يقول فيه أحد نقاد اللاهوتيين إن شكله يقارب شكل « حوض الحمام » المعروف ، ويحتوى على « المياه التى هى كائنة من فوق القبة الزرقاء » . أما تلك المياه فقد تنصب على الارض بيد الله وملائكته من « نوافذ السماء » فتكون مطراً ، رذاذاً أو مدراراً . ولقد رجعوا فى حركة الشمس الى الاستشهاد بمقطوعات كثيرة فى سفر التكوين ، مزجوها بالغيبيات الميتافيزيقية مزجاً تختلف نسبته ، وظنوا بأن مجموع ما استمدوا من التوراة والانجيل كاف لأن يثبت بأنصع برهان وأقوى دليل ، أن الارض لا يمكن أن تكون كروية الشكل .

فى القرن السادس انتهى ذلك التفصيل بما يصح أن يعتبر نظاماً كاملا فى حقيقة الكون ، مستمدة أسسه من نصوص التوراة والانجيل . كان واضع هذا النظام الراهب المصرى « قوزماس إنديكوبليوستيس »

« وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء الى مكان واحد ولتظهر اليابسة . وكان كذلك . ودعا الله اليابسة أرضاً . ومجتمع المياه دعاه بحراً . ورأى الله ذلك أنه حسن ــ الخ الخ . عن الاصحاح الاول من سفر التكوين .

Cosmas Indicopleustes - والحقيقة أن مصر قد ظلت نبعاً فياضاً ينضح بمختلف الآراء اللاهوتية التي انتحلتها كثير من الديانات القديمة. والواقع أن « قوزماس » قد نجح في أن يلزم الكنيسة الاولى تلك المعتقدات المصرية العتيقة التي نمت في تضاعيف الكهنوت المصري في حقيقة العالم، كما ألزم الكنيسة كاهن مصري آخر هو « أتناسيوس » - Athansius - المصري فكرة الاقانيم الثلاثة المندمجة في خالق واحد، يحكم نظام الكون كله.

قال « قوزماس » بأن الارض عبارة عن معين منبسط، تحيط به بحار أربعة. ويبلغ اربعمائه يوم سفراً طولا، ومائتى يوم عرضاً، وفي حدود هذه البحار الاربعة الخارجية تقوم جدران عظيمة القدر هائلة الحجم، تحوى كل ذلك البناء الكبير وتحمل من فوقها تلك القبة السماوية، وقد ثبتت أطرافها الى أعلى الجدران بمادة فيها صفة الالتصاق.

قام هذا النظام على طريقة التفكير اللاهوتية وعلى العلم اللاهوتي، وظن أنه أحكم نظام وصل اليه العقل الانساني ؛ وأنه أكثر النظم انطباقا على حقائق التوراة والانجيل. ولقد أيقن قوزماس، وغيره من مفسري عصره، بأن حقائق الاصحاح التاسع من رسالة العبرانيين «١» لدى

(١) « ثم العهد الاول كان له أيضاً فرائض خدمة والقدس العالمي. لانه نصب المسكن الاول الذي يقال له القدس الذي كان فيه المنارة والمائدة وخبز التقدمه. ووراء الحجاب الثاني المسكن الذي يقال له قدس الاقداس فيه مبخرة من ذهب وتابوت العهد مغشى من كل جهة بالذهب الذي فيه قسط من ذهب فيه المن وعصا هرون التي افرخت ولوحا العهد. وفوقه كاروبا المجد مظللان الغطاء. أشياء ليس لنا الآن أن نتكلم عنها بالتفصيل

الكلام فى الهيكل، يفتح مغاليق النظام العالى أمام العقل البشرى . وعلى هذا اعتقد أن الكون قد وضع على مثال الهيكل العبرانى ؛ فهو إذن أشبه بعابة مستطيلة الشكل . ولما أن عمد الى ايضاحه رجع الى سفر أشعياء حيث يقول — « الجالس على كرة الارض وسكانها كالجندب الذى ينشر السماوات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن » . [1] والى مقطوعة من سفر أيوب تذكر « عمدان السماء » . ولقد كون من مجموع هذا نظاما، متخيلا أنه قد أوحى اليه بأسرار العالم ومغمضات الكون الأوسع .

أما تلك العابة العظيمة فتنقسم الى قسمين أو دورين أحدهما فوق الآخر . ففى الدور الاول يعيش الناس وتتحرك الكواكب . وهو يمتد ارتفاعا الى القبة الصلبة الاولى ؛ أو القبة الزرقاء، التى يعيش من فوقها الملائكة الذين وكل اليهم، كجزء من عملهم، أن يدفعوا عنهم ثم يجذبوا اليهم الشمس والسيارات رواحا وجيئة .

ثم يعود بعد هذا الى سفر التكوين مستندا الى الآية المعروفة —

ثم اذا صارت هذه مهيأة هكذا يدخل الكهنة الى المسكن الاول كل حين صانعين الخدمة، واما الى الثانى فرئيس الكهنة فقط مرة فى السنة — الخ الخ الاصحاح التاسع من رسالة العبرانيين .

(١) « ألا تعلمون : ألا تسمعون : ألم تخبروا من البداءة ألم تفهموا من أساسات الأرض : الجالس على كرة الارض وسكانها كالجندب الذى ينشر السماوات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن » — الاصحاح الاربعون من سفر أشعياء .

« وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه ، وليكن فاصلا بين مياه ومياه » [١] والى غير ذلك من الآيات . ثم ينتهى الى المزامير حيث تذكر « سبحيه يا سماء السموات ويأيتها المياه التى فوق السماوات » . [٢]

ولقد ترى « قوزماس » بعد التوسع الكبير فى هذه الآراء والنصوص بصب الجميع فى إناء واحد ليحمى عليها من وقود خياله حتى تنضج ، فتخرج نظرية قوامها أن فوق القبة السماوية الاولى ، حوض عظيم يحوى « المياه » . ثم يعود ثانية الى سفر التكوين مستنداً الى القول « بنوافذ السماء » ليضع نظرية أخرى يعالج بها سقوط المطر على الارض فيزعم بان الملائكة لا يقتصر عملهم على رفع الاجرام السماوية وجذبها رواحا وجيئة لتنير الارض ، بل انهم مكلفون فوق ذلك بفتح نوافذ السماء وغلقها ليطفئوا ظمأ الارض ويحيوا مواتها .

ولما أراد « قوزماس » أن يفهم كيف يتكون سطح الارض ، رجع الى أسلوب التفسير الذى أتبعه « أوريغن » ــ Origen ــ وغيره من آباء الكنيسة فى عصورها الأولى ، وأكب على درس مائدة الخبز المقدس ــ خبز التقدمة ــ التى تكون فى الهيكل العبرانى . ولقد أثبت

---

(١) الاصحاح الاول فى سفر التكوين

(٢) « هللويا ، سبحوا الربَّ فى السموات ، سبحوه فى الاعالى ، سبحوه ياجميع ملائكته ، سبحوه يا كل جنوده ، سبحيه يا ايتها الشمس والقمر ، سبحيه يا جميع كواكب النور ، سبحيه يا سماء السموات ويأيتها المياه التى فوق السموات لتسبح اسم الرب لانه امر فخلقت وثبتها الى الدهر والابد . ووضع لها حداً فلن تتعداه » ــ عن المزمور المائة والسابع والاربعين :

سطح تلك المائدة « لقوزماس » أن الارض سهل منبسط انبساطاً ، كما أثبت اتساعه أن عرض الارض هو بمقدار نصف طولها .

أما أركانه الاربعة فتمثل فصول السنة ، الصيف والشتاء والربيع والخريف ، وتشير الاثنى عشر رغيفا التى توضع فوقها الى شهور السنة . والفراغ الذى يحيط بتلك المائدة انما يرمز به الى المحيط العظيم الذى يغشى الارض من جميع جهاتها . ومن أجل أن يعلل حركة الشمس ، اعتقد « قوزماس » أن عند طرف الارض الشمالى يقع جبل عظيم ، خلفه يكون مقر الشمس أثناء الليل . غير أن بعض الذين علقوا على كتاباته قد أبدوا بعض الشك فى هذه الفكرة ، ليقولوا بان الشمس انما تدفع الى حفرة اذا جن الليل ، ثم ترفع منها عند تنفس الصباح .

وما من شىء هو ابعث على الانفعال الهادىء من تلخيص « قوزماس » لمجمل نظرياته الكونية ، اذ يقول « لهـذا نقرر مع « أشعياء » بان السماء التى تتضمن هذا الكون الفسيح عبارة عن قبة صلبة القوام ، ونقضى مع « أيوب » بأنها متصلة بالارض ، ونسلم مع « موسى » بان طول الارض أعظم من عرضها » . ولم ينه من مقالته هذه الا وهو يؤكد أن ليس موسى والانبياء وحدهم ، بل الملائكة والحواريون أيضاً ، متفقون على ما فى مذهبه من حق ، وأن الله فى اليوم الآخر سوف ينزل غضبه على كل من لايسلم به ، أو يتشكك فيه .

وهذه النظرية ، على الرغم من أنها مستمدة من نصوص التوراة ، فانها كما رأينا من قبل ، نتيجة تطور طويل فى الفكرة اللاهوتية ، أخذت بوادره تظهر فى ثنايا العقل الانسانى من قبل أن تكتب

أسفار التوراة والأنجيل والمزامير بزمان طويل . وليس من غرابة فى أن « قوزماس » وهو مصرى كما تعرف ، يعمد الى هذا المذهب الذى نشأ وترعرع على ضفاف النيل وفوق أرض مصر منذ أبعد عصور المدنية وعلى الصورة التى نراه ممثلا بها فى النقوش التى لا تزال قائمة على جدران المعابد المصرية القديمة ، وأن يشد ذلك المذهب من أطرافه مستعيناً بأسفار التوراة العبرانية ، حتى يخرج منه بمذهب يدمجه من تضاعيف المعتقد النصرانى . غير أن عالم اللاهوت بأجمعه كان على جهل تام بحقيقة ذلك التطور الاولى الذى بدأ فى عصور الوثنية . فان نظرية « قوزماس » قد قبلت على أنها وحى أنزل على قلبه ، وما لبثت أن اعتبرت فى عالم الدين كحصن حصين ثابتة أسسه على الاسفار المقدسة . ولقد وقف كثير من جهابذة الكنيسة أنفسهم على تنمية هذا المذهب ، عاملين على تقويته بكثير من نصوص الكتب المنزلة حيناً ، أو متوسعين فيه من طريق الاسلوب اللاهوتى حيناً آخر ، اما المؤمنون فاعتبروه هبة عظمى حباهم بها الواحد القهار . ولقد ظل هذا المعتقد ثابتاً حتى نهاية القرون الوسطى . فانك ترى « يوحنا سان غنيميانو » ــ John st Genemiano ــ قد بذل أقصى الجهد فى الدفاع عنه ، والنضح عن حياضه . ولقد حذى حذو « قوزماس » فى أن يتخذ الهيكل العبرانى لآرائه عمادا ، مظهرا كيف أن الفكرات الحديثة فى شكل الارض وسعتها وزينتها من الممكن التوفيق بينها وبين النصوص الانجيلية المنزلة .

من هذا المعتقد القديم فى حقيقة الكون وأنه عبارة عن سكن أو منزل ، السماء طابقه الاعلى ، والارض طابقه الأسفل ، فاضت آراء

لاهوتية كثيرة حنيت بها الميثولوجيا الوثنية واليهودية والنصرانية؛ وفي تضاعيف تلك الميثولوجيا نغانات اساطير عن ذوات فانية ارادت أن تصل الى طابق الكون الاعلى، متسابقة من طابقه الاسفل . ومن اخص هذه الاساطير تلك الأسطورة اليونانية التى نشأت حول اسم « ألويدا » — Aloidae — الذى حاول أن يصل الى السماء بأن يجمع الجبال اكداساً بعضها فوق بعض ، ولكنها تحطمت وسقطت للحضيض . ومنها الاساطير الكلدانية والعبرانية فى ذلك الجبار الذى أراد أن يبنى فى « بابل » ـ Babel ـ « برجا يصل من فوق قمته الى السماء » ـ ذلك البرج الذى تدل الحى اليوم ، على متقدم ؛ من عايين لمتتبع له نظره ويراه ، فأمر باختلاف الالسنة واللغات ، ليمنع اتحاده ، ويبعد بانيه عن غرضه . ومنها الأسطورة الهندية فى تلك الشجرة التى أرادت أن تبلغ الى السماء ارتفاعا واعاقها « براهما » ـ Brahma ـ ومنها الاسطورة المكسيكية فى أولئك الجبابرة الذين أرادوا أن يبلغوا السماء ببناء هرم « شولولا » ـ Cholula ـ والذى انصبت عليه من السماء نيران جعلته قاعا صفصفا .

ولقد كانت هذه الفكرة الجغرافية سببا فى انتشار اساطير ظلت حية وارفة الظل آلافا من السنين ، فالصعود الى السماوات العلى ، والهبوط منها ، ورفع الاحياء إلى السماء ، وانتقال الموتى اليها بعد أن يقضوا نحبهم فى هذه الحياة الدنيا ، والتبشير السماوى ، وقبض الذوات الفانية فى السماء ورجوعهم الى الأرض ، وطيران الملائكة فى الفضاء بين الأرض والسماء ، والصواعق المنقضة منها . والرياح الزعازع المنبعثة على الارض

من جوانبها ، والاصوات التي تخاطب من الطابق الاعلى رجالا في الطابق الأسفل ، وفتح أبواب السماء أحيانا لانزال الرحمة والخير على العباد الصالحين ، والاشارات والعجائب التي تظهر في السماء لارهاب الاشقياء الطالحين ، إلى غير ذلك من صنوف العلاقات ، من المعتقد الوثني في هبوط الآله الى الارض لتأدية كل صنوف الرسالات الشفوية ، ونزول الحي القيوم الى « جنة عدن » ليتنزه لدى اعتدال الهواء اثناء النهار ، الى معتقد النصارى في انقضاض « القديس بولص » على سوق « البندقية » ليحطم الاغلال ، التي صفد بها عبد من العبيد ، كل هذه الاشياء صور مختلفة تشكلت فيها الاساطير الدينية التي قامت على تلك الفكرة الجغرافية ، متطورة من صورة الى اخرى على مر الاجيال.

غير أن خطا النشوء والتطور في تلك الفكرة لم تقف عند هذا الحد. فمن الطبيعي أن يعتقد كل من ينظر في حقيقة العالم هذه النظرة ، بان السماء ما دامت علاءً ، فان جهنم (١) لابد من أن تكون حضيضا. وأن الرفع الى الاولى يناظره الاهباط الى الثانية . وما دامت جهنم على ماترى من القرب الى الارض ، فانه من الطبيعي أن يستطيع سكانها أن يتدخلوا في أعمال اهل الدنيا تدخلا مباشرا دائما ، وأن يكون تدخلهم موضوع بحوث مستفيضة تحتويها بطون الكتب خلال القرون الوسطى. ولقد كان لهذا الموضوع من عبقرية « دانتي » نصيب وافر ، فانه استطاع بما خص به من قوة الوصف أن يجاوز سر هذا التصور ، تصور جهنم

(١) جهنم اصلها « جوهنو » او « وادي هنو » وأصل الكلمة كلداني على الارجح « معرب »

وسكانها ، مصبوناً فى قالب واضح من لغته الساحرة ، حتى لقد ظلت بعض الصور التى تقلبت فيها هذه الفكرة سياجاً حصيناً صد البحوث الجغرافية عن أن تنبعث فى سبيلها المحتومة زماناً . فان كثيراً من السياح الذين لم تكن لترهبهم الانواء ولا قوة القرصان ، قد انثنوا عن عزمهم خائفين من أن تبتلعهم وسفينتهم فوهة من فوهات جهنم ، التي كان يعتقد فى ذلك الزمان اعتقاداً عاما ، بانها تقع فى عرض المحيط الاطلانطيقى ، وعلى مسافة غير معروفة من شاطىء أوروبا. وكان هذا الخوف الذى استمكن من قلوب السائحين المقتحمين لمخاطر البحار ، صعوبة من اكبر الصعاب التي قامت فى وجه « خريستوف كولمبوس » لدى أول شروعه من رحلته المبرورة . ولقد عثرت فى كتاب هو بمثابة متن مختصر ، اراد واضعه أن يعبر فيه عن حقائق العلم فى صورة محاورة كتبت فى القرون الوسطى ، على السؤال والجواب الآتيين :

— لماذا تكون الشمس شديدة الاحمرار عند المساء ؟

— لانها اذ ذاك تكون مواجهة لجهنم !

غير أن جرثومة الحقيقة العامية ، التى فرخت فى العقل الانسانى خلال العصور الاولى ، كانت لاتزال حية . جرثومة الاعتقاد بالحقيقة الجغرافية الكبرى فى كروية الارض . وعلى الرغم من أن العديد الاوفر من آباء الكنيسة الاولين ، وعلى الاخص « لاكتانيوس » قد نصبوا أنفسهم للقضاء على هذه الحقيقة وتحطيمها مستندين الى الاقوال المنسوبة الى « أشعياء وداود والقديس بولص » فان الفكرة الصحيحة التى تكونت فى عقل « إيودكسس » — Eudoxus — وأرسطوطاليس لم تنس ولم يلفظها

العقل الانسانى فى القرون الوسطى . ولقد أيد هـذه النظرية « كليمان الاسكندرى » و « أوريغن » ، كما أجازها القديس « أمبروز » — st Ambrose — و « القديس أوغسطين - st Augustine - وبعد أن ظل نفوذ « قوزماس » قرناً من الزمان مبسوطاً على العقل الاوروبى مخيماً عليه بسلطانه ، عادت هذه النظرية فاستمدت روحاً وحياة من إيزيدور الاشبيلى » — Isidore of Seville — وهو من أكبر رجال الكنيسة الذين عاشوا فى جنوبى أوروبا ، ومن الذين ضحوا كثيراً من حقائق العلم انتصاراً لوحى اللاهوت ، ولكن هذه النظرية شذت عن القاعدة اتفاقا . وفى القرن الثامن صادفت هذه النظرية تعضيداً آخر . إذ أعلن « بيده » — Bide — وكان من أوسع رجال الكنيسة نفوذاً فى شمالى أوروبا ، متابعته لها . وعبثا ما كان من أمر الذين يؤيدون النظرية المقدسة فى شكل الارض ، فان الحياة الجديدة التى نمت فى تضاعيف الحق القديم الموروث عن العالم الوثنى ، قد زادت قوة ، على الرغم مما أعان عليها من الحرب ، وصنوف الاضطهاد طويلا . ولقد أذعن للحقيقة رجال ثقاة عاشوا فى أواخر القرون الوسطى أمثال « البرت الكبير » — Albert the Great — والقديس « توماس أكويناس » -st Thomas Aquinas- و « دانتى » — Dante — و « فنسنت بوفيه » — Vincent Beauvais — ، اذ شعروا بضرورة الاعتقاد بكروية الارض ، كما انك كلما تقدمت على الزمان خطوة بالغا حدود العصور الحديثة ، ألفيت أن العديد الاوفر من المفكرين قد قبلوا هذه الحقيقة واعترفوا بصحتها . أما القائمون بحركة « الاصلاح البروتستانتى » فلم

يذعنوا لهذه الحقيقة كل اذعان بداءة ذى بدء . فان «لوثر» Luther «وميلانكوتون» Malanchoton و«كالفن» Calvin كانوا نابتى اليقين فيما يوحى به ظاهر التوراة . حتى انك لنجد أن « زونيجلى » Zwingli على الرغم مما خص به من سعة الفكر كان جامداً كل الجمود ازاء هذه الحقيقة ، ومضى قانعا بما أوحى به آباء الكنيسة من آراء فى القبة السماوية العظيمة أو السقف ، الذى يفصل بين السماء والارض . بل اعتقد بما كانوا يقولون به من وجود ذلك اللج العظيم المعلق فوقه والملائكة ؛ ومن تحته الارض والناس .

وكان الفرض الذى رمى اليه زعماء الاصلاح البروتستانتى من النظر نظرة مستقلة فى هذا الموضوع العام ، هو الانصراف مع تأملات فاسدة فى الكون وفى تضمنه لجنة الخلد ، وفى حقيقة الخطاب الذى دار بين الافعى وبين حواء ، وأمثال ذلك .

ولقد زادت الحالة سوء خلال الزمان الذى عقب حركة الاصلاح مباشرة فان التفسيرات التى فسر بها « لوثر » و « ميلانكوتون » آيات التوراة قد أصبحت فى نظر أتباعهم مقدسة كنصوص التوراة نفسها . ولما ان جرأ « كالكست » - Calixt - لدى تفسيره المزامير ، على أن يناقش المعتقد الثابت فى حقيقة « أن المياه الكائنة من فوق السماء إنما يحويها وعاء عظيم تعضده قبة صلبة القوام » لم يزل الا الطرد من الكنيسة منبوذاً جزاء هرطقته .

فى الجزء الاخير من القرن السادس عشر فسر « موساوس » Museaus - عبارات سفر التكوين على اعتقاد ان الله خالق السماء باعتبار

أنبا سقف أو قبة ، وتركها ثلاثة أيام تهتز متراوحة اهتزاز الرقاص ، حتى وضع الارض من تحتها فنبتت . غير أن الفكرة العامية فى حقيقة صورة الارض ربحت الموقعة وتم لها النصر . فان أكثر المؤمنين ثقة بما تنم عليه ظاهر الاسفار المقدسة لم يلبثوا أن اضطروا الى اتباع طريقة التوفيق بين هذه الحقيقة ، وبين نظرياتهم اللاهوتية ، جهد ما استطاعوا .

تخطيط الكرة الارضية

اعتقاد كل أمة من الامم القديمة بان مكانها المقدس هو مركز الارض — اعتقاد العبرانيين بان أورشليم مركز الارض — قبول هذا المعتقد في العالم النصراني — تأثير معتقدات عبرانية أخري — يأجوج ومأجوج — الرياح الاربعة — ووقوف المياه كتلة واحدة .

* * *

ثبت عند كل أمة من الامم القديمة ، على وجه الاطلاق ، اعتقاد بان مدينتها الكبرى ، أو مكانها المقدس ، هو بالضرورة مركز الارض .

فاعتقد الكلدانيون بان « بيت آلهتهم المقدس » هو المركز . في حين أن المصريين خططوا الارض على صورة شبح بشرى ، مصر قلبه وطيبة وسطه ومركزه . اما الاشوريون فكانوا على أن المركز « بابل » والهنود على أنه جبل « ميرو » Mount Meru اما اليونانيون ، فاعتقدوا بانه جبل « أولمبوس » . Olympus أو معبد « دلفوس » Delphi والمسلمون على أنه مكة وحجرها المقدس . (١) ولا يزال الصينيون يسمون أمبراطوريتهم حتى اليوم « الدولة الوسطى » . واتباعا لهذه القاعدة ، وعلى مقتضى نزعات العقل البشرى بخيل الى العبرانيين بان أورشليم مركز الدنيا .

وينص سفر « حزقيال » Ezekiel على أن أورشليم انما تقع في

(١) الحجر الاسود

مركز الارض ، وكل ماعداها من بقاع العالم يقع خارج المدينة المقدسة . وظل هذا الاعتقاد خلال كل « عصور الايمان » معتبراً عند جميع الناس وحياً أنزله الواحد القهار ليعرف الناس صورة الارض من طريقه . ولقد أعان « القديس جيروم » — Jerome — أكبر ثقاة الكنيسة الاولى فى العلم الانجيلى ، معتمداً على ماأتى به « حزقيال » من أن أورشليم لايمكن أن تكون فى مكان ، مالم تكن فى مركز الارض . ورجع من بعد ذلك « رابانوس موراس » Rabanus Maurus وكان رئيس أساقفة فى القرن التاسع ، يجدد من شباب هذه الفكرة ، ويبعث فيها حياة جديدة . وفى القرن الحادى عشر أخذ « هيو أوف سان فيكتور » — Hugh of st Victor — ايؤيد هذا المذهب بنصوص استمدها من التوراة . ثم أعلن البابا « إربان » فى خطابه العظيم فى « كليرمون » — Clermont — ليحرض الفرنجة Franks على القيام بالحروب الصليبية « بأن أورشليم هى فى مركز الارض لاوسط وذكر سيزاريوس أوف هيستر باخ Ceasarius of Heisterbach وكان من مشهورى اللاهوتيين فى القرن الثالث عشر ، معلناً « أنه كما يكون القلب فى مركز الجسم ، كذلك تقع أورشليم فى وسط أرضنا المسكونة » واتقا من « أنه لهذا السبب صلب المسيح فى مركز الارض . » وقبل « دانتى » — Dante — هذه الخرافة على أنها حقيقة واقعة ، وبثها فى تضاعيف أشعاره الخالدة ، وكذلك تجد فى كتاب السياحة المنسوب الى القديس « يوحنا منديفيل » — John Mandville — وكان كثير الذيوع خلال القرون الوسطى ، أن أورشليم انما تقع فى مركز الارض ، وأنه إذا رشق هناك فى الثرى رمح بحيث يكون أفقيا تماما ، فانه لايلقى

بظل ماعلى خط الاعتدال .

ولقد أصبحت تقريرات « حزقيال » مثال ماتحتذى أهل الاورثوذكسية من واضعي الخرائط الجغرافية في العصور الاولى . وامدت الخرائط الجغرافيه التي وضعت إذ ذاك ، وعلى الاخص خريطة العالم المحفوظة في كاندارئية « هيرفورد » - Hereford - والخرائط التي وضعها «إندريابيانكو » — Andrea Bianco — و « مارينو سانوتو » - Marino Sanuto - وكثير غيرهما ، الى نتيجتين : أولاهما هي أن تثبت أهدا الاعتقاد في أذهان الناس ، وثانيهما : هي أن يبعث المعتقد العام من السبيط في همم الباحثين الذين حاولوا أن يثبتوا خطأ هذا المذهب ، ما تقعد بهمتهم طويلا .

على أن المفكرين في القرون الوسطى لم يقفوا عند هدا الحد . فإنهم خضوعا لوجهة النظر التي سادت في تلك الازمان ، والتي كانت تلزم الناس الاعتقاد بأن الحقائق الفوسيقية ، لا ينبغي أن يبحث عنها في حيز خارج عن ذلك الحيز الذي حددته المقولات اللاهوتية ، تطور ذلك المذهب تطورا خطيراً ، محصله أن اس موضع الصليب في مدينة القدس هو الذي يحدد مركز الارض الجغرافي لاغير ، بل أن في هذه البقعة التي قام عليها الصليب نبتت الشجرة التي حملت تلك الثمرة المحرمة في جنة الخلد . وعلى هذا تجد أن العلم الجغرافي قد بلغ حداً استطاع عنده الباحثون أن يصبوه في قالب محبوكة أطرافه على المعتقد اللاهوتي .

ولقد فرح المؤمنون بما أتاهم به ذلك المذهب من علم . ولا يدلك على هذا من شيء مثل تلك الكتب التي نشرها مهاجرون هبطوا الى

فلسطين فى القرون الوسطى ، فان هذه الكتب تزودك فى طوال ثلاث العصور ببراهين ثابتة لديك حيناً بعد حين ، أن هذا المذهب قد أصبح من أعز الحقائق التى يفخر بها المؤمنون سواء أفى الجغرافيه أم فى اللاهوت . ولقد ظل هذا المعتقد ثابتاً حتى أواخر القرن السابع عشر ، حتى انك لتجد أن الكاهن الفرنسوى المشهور « إوجين روجر » - Eugene Roger - فى كتابه الذى تكلم فيه عن سياحته فى فلسطين عام ١٦٦٤ يعمد الى الاصحاح الثامن والثلاثين فى سفر « حزقيال » ، والى نصوص فى سفر « أشعياء » - Isaiah - ليثبت أن مركز الارض الحقيقى يقع فى نقطة على رصيف الكنيسة التى تتضمن القبر المقدس . وأن فى هذه النقطة نبتت الشجرة التى حملت الثمرة الملعونة ، وقام الصليب الذى صلب عليه المسيح .

ولم يكن هذا التصور الباطل وحده هو الذى شق لنفسه طريقاً الى الخرائط الجغرافية التى صنعت فى القرون الوسطى فهناك تصوران يظهران جليين على صفحة تلك العصور .

الاول — ذلك الفزع المبهم الغامض الذى القاه فى روع الناس اعتقادهم باطلا بيأجوج ومأجوج . وقليلا ما تجد فى العهد القديم — التوراة — من مقاطيع تفوق فى عظمتها وروعتها تلك التى أوردها « حزقيال » فى تعذيب هؤلاء الاعداء الالداء . ناهيك بتلك المقطوعة المعروفة فى سفر رؤيا « يوحنا » اللاهوتى - Apocalypse - فانها قد ربطت بين الشعور العبرانى تلقاء يأجوج ومأجوج ، وبين تصور جديد ثبتت أصوله فى صميم الكنيسة النصرانية الاولى . ولهذا تجد أن واضعى الخرائط

الجغرافية في القرون الوسطى قد عانوا أشد النصب في تصوير هذه المسوخ المفزعة، وتحديد مواطنهم على الخرائط. ومضت قرون طوال والناس يعتقدون أن أية خريطة جغرافية خالية من ذكرهم، لا يمكن أن تنال رضاء المحافظين من أصحاب الكنيسة.

أما التصور «المائي» فستمد مما ذكر في الاسفار المقدسة عن «الرياح الاربعة». ولقد قام على هذا التصور اعتقاد ثابت في حقيقة وجود هذه الرياح، فظهرت رموزها على الخرائط الجغرافية في صورة آدمية عظيمة الحجم، منتفخة الوجنات، ترسل رياحاً زعازع في اتجاه أورشليم.

ولقد نجد، حتى بعد ان زالت هذه التصورات واكتسحت من عالم الفكر الانساني، دلائل توحي الينا بين حين وحين، أن الناس قد عانوا أشد الصعاب وأمض الشكوك في رفض تلك الفكرة التي قامت على تفسيرات فسرت بها الاسفار المقدسة، والتي كانت تلزمهم الاعتقاد بأن سلطات السماء إنما تتدخل تدخلاً فعلياً مباشراً في تسيير الظاهرات الطبيعية الواقعة من حولهم. وآية ذلك، أنك تقع على خريطة جغرافية وضعت في القرن السادس عشر مثلت الارض بكرة، وفي كل من قطبيها ذراع مانو، وبجانبه ملاك يجد عاملاً على تحريك الارض بهذا الذراع حول محورها. وترى في خريطة أخرى أن يد الله قد امتدت من بين السحب رافعة الارض بحبل متين يفتله بين إبهامه وسبابته لتدور الارض حتى اذا ما انحدرت مع الزمان الى أواسط القرن السابع عشر الفينا «هايلين» Heylin - أشهر ثقاة الجغرافيين من الانجليز. قد نزع طافراً الى المزج

بين العلم واللاهوت . فقد حاول أن يجعل أحدهما يؤيد الآخر على الطريقة التالية .

« المياه مع الارض كتلة واحدة ، ولكن المياه أعلى من الارض. أولا — لان الماء ان كان جسما الا أنه أقل من الارض ثقلا . وثانيا — لان المسافرين بحراً قد لاحظوا أن سفنهم تسرع حركتها كلما أقدمت على الشاطىء كما تقل اذا مضت مبتعدة عنه ، وأن لاسبب لذلك الا أن المياه أعلى من الارض . وثالثاً — اذا وقفنا على الشاطىء نجد أن المياه تأخذ في الارتفاع شيئا فشيئا حتى اذا بلغت الافق ظهرت كتلا مستديرة تحجب ما وراءها . وعلى هذا لا يمكننا أن نعلل ارتفاع ماء البحر عن الارض من غير أن يغمرها ، الا بارادته القدسية التي اقتضت أن تقف المياه كتلة واحدة ، وأن لا تعود تغشى الارض مرة أخرى » .

٣ — سكان الارض

فكرة الانتيبود — معارضة الكنيسة لها — غريغوري نازيانزن — لاكتانتيوس — باسيل — امبروز — أوغسطين — بروكوبيوس الغزي — قوزماس — إزيدور — فرجيل السالزبورجي واعدامه بهذه الفكرة في القرن الثامن — العودة الى ترويجها من طريق وليم الكونشي والبرت الكبير في القرن الثالث عشر — نقولاوس أورسيم وقبوله لها — نهاية بطرس آبانو وسيكو داسكولي — بطرس دايلي وتوستاتوس — معارضة اللاهوت لكولمبوس — البابا اسكندر السادس وخط التحديد — غريغوري رايش وخريطته — ماجلان وانتصار العلم.

***

بينما كان المذهب في كروية الارض لايزال يهتز مراوحا بين متناوح رياح الفكر، بعث من العدم سؤال آخر خيل الى اللاهوتيين أنه أشد من كروية الارض خطراً وأبلغ أثراً. فان القول بكروية الارض قد أدى بطبيعة الحال الى التفكير في سكانها الآهلة بهم، وهنالك أفرخت جرثومة قديمة من جرائم الفكر الخالد، فانتعشت عائدة اليها الحياة في صورة فكرة، هي فكرة الأنتيبود — Antipode — ويقصد بهم الخلائق البشرية الذين يقطنون في الجهات المقابلة لمواطننا من كرة الارض.

ولقد لقيت هذه الفكرة في كلا العالمين، اليوناني والروماني، مؤيدين ومنكرين. وكان «شيشرون» — Cicero — و «بلينيوس» — Pliny — من مؤيديها. كما كان «أبيقور» — Epicurus —

و « لوكرشيوس » ـ Lucretius ـ و « باونارك » ـ Plutarck ـ من منكريها . وعلى هذا تنقلت هذه النظرية فى منازل الزمان حتى بلغت الى الكنيسة الاولى محتاجة الى حل يبلغ بها معارج اليقين .

ممن بادر من رجال الكنيسة الى الكلام فى هذه النظرية فى الشرق المداس « غريغورى » نازيانزن » ـ Gregory Nazianzen ـ فقضى مظهراً أن السفر بحراً الى ما بعد بوغاز جبل طارق مستحيل . ولقد جاراه فى الغرب « لاكتانتيوس » متسائلا — « هل يوجد من شخص عدم قوة التمييز الى درجة أن يعتقد بوجود أناس مواطىء أقدامهم أعلا من رؤوسهم ؟ وأن المزروعات والاشجار تنمو الى أسفل ؟ وأن المطر والجليد يصيب سطح الارض من تحت الى فوق ؟ وانى لشديد الحيرة كيف أقول فى أولئك الذين اخطؤوا فى الفكر مرة ، ثم مضوا على خطئهم عاكفين مدافعين عن شىء باشياء أخرى . وكلها باطلة »

وليس لنا أن نأسف على شىء من ذلك النزاع الذى رفع الوينه « غريغورى ولاكتانتيوس » فان هذين الرجلين ، مهما كانت منازعهما ، فانهما لم يفعلا من شىء سوى أنهما دافعا عن معتقدهما الموروث القائم فى رأيهما على القانون الطبيعى والمرجحات العقلية .

غير أنه لسوء الحظ لم تقف موجة المناقشة عند حدود العلم والفلسفة فلم تتخطاها ، فان كثيراً من مفكرى النصارى قد ظهروا فى الميدان ، متسلحين بنصوص من الاسفار المقدسة ، وسرعان ما أصبح النزاع لاهوتيا تجرى فى تضاعيفه أساليب أهل الفن . وعلى هذا تسعرت نيران التعصب ضد معتقد « الانتيبود » وأصبح أمراً مذهبيا صرفا .

وهبت الكنيسة العظمى تقاومه وتنوء عليه بقواتها، وفي المقدمة آباء الكنيسة، يقودون فيالق المؤمنين

لقد ثبت الاعتقاد عندهم جميعاً بأن الفكرة خطرة كما ثبت عند أكثرهم أنها محرمة منبوذة. اما القديسان « باسيل » — Basil — « وأمبروز » — Ambrose — فقد بلغ بهما التسامح الى حد أن يقولا ، بأنه من الممكن أن ينال الخلاص الاخروى ، رجل يرى أن الجانب الآخر من الارض مأهول بالناس والخلائق. غير أن العديد الاوفر من آباء الكنيسة قد أبدوا كثيراً من الشك في خلاص أولئك الذين يرون ذلك الرأى، على اعتبار أنهم فاسقين عن عهد الايمان.

اما البطل الاعظم الذى تكفلت من حوله قوة الدفاع عن وجهة النظر الارثوذكسية فكان القديس «أوغسطين» — Augustine — وعلى الرغم من أنه قد أظهر بعض الميل الى الاعتقاد بكروية الارض، فانه حارب فكرة وجود أناس على الجانب الآخر منها حرباً عواناً مستنداً الى القول بأن — « التوراة لا تذكر من أبناء آدم سلالة كهذه ». ولقد مضى قائلا بأن الله القادر على كل شيء لا يسمح للناس بأن يعيشوا في تلك البقاع، لانهم لا يستطيعون أن يروا المسيح لدى عودته ثانية هابطاً على الارض من السماء مجتازاً أطباق الهواء. غير أن أقوى ما لجأ اليه من البراهين، كان المزمور التاسع عشر، وما أيده من النصوص في الرسالة الى الرومانيين وانه لبرهان انتقل صداه من لاهوتى الى لاهوتى خلال ألف كاملة من السنين. رجع الى نص في ذلك المزمور يقول — « في كل

الارض خرج منطقهم والى أقاصي المسكونة كلماتهم » (١) . ومن ثم عمد ، باقصى ما أوتي من قوة ، الى حقيقة أن القديس « بولص » St Paul قد بنى نظرية من أقوى نظرياته اقناعاً ، وأشدها بالالباب أخذاً ، على هذا النص عند ما تكلم عن المبشرين بالانجيل ، وانه أعان بالايضاح تام في رسالته الى الرومانيين قائلا — « بلى . الى كل الارض خرج صوتهم والى أقاصي المسكونة أقوالهم » (٢) وعلى هذا تجده يصرح في اعتقاد ويقين بان هؤلاء المبشرين ما داموا لم يصلوا الى مقر « الانتيبود » فلا يمكن أن يكونوا موجودين على سطح الارض . ويترتب على هذا أن يكون المؤيدون لهذا المذهب إنما يفترون على الملك داوود وعلى القديس بولص ، ومن ثم على الروح القدس . وعلى هذا يكون أسقف « هبو » (١) — Hippo — العظيم قد أوحى الى الناس ، وظل وحيه هذا ألفاً من السنين ثابتاً في روعهم ، بأن التبشير بالانجيل مادام لم يصل الى الناحية المقابلة في الارض ، فان يمكن أن يكون هنالك من السلالة البشرية أثر ما .

ولقد كان لنفوذ « أوغسطين » وثبات قدمه في تفسير الاسفار المقدسة ، أثر كبير أوقف الكنيسة موقف الحزم الشديد ازاء مذهب « الانتيبود » . وهنالك اتفقت كل مدارس التفسير اتفاقاً تاماً ولم ينشب بينها خلاف ولا وقع بينها جدل . فكان اتباع مدرسة الاسكندرية على

(١) من المزمور التاسع عشر ص ٤٠٦ طبعة المطبعة الامريكانية
(٢) من الرسالة الى الرومانيين ص ٢١٤ طبعة المطبعة الامريكانية
(١) هو القديس اوغسطين

ما عرف عنهم من الجنوح الى المجاز والتأويل ؛ والمدعون الطريقة التفسير الحرفي في سوريا ، وانتفاتبوا اللاهوتيين — Eclectic Theologians — في الغرب شرع تلاشي هذا المذهب . ولقد ظل معتقد « أوغسطين » القائل السنين سائدا على الكنيسة وفي « كل مكان وآن وعند كل انسان » . معتقد أنه لا يمكن أن توجد ذوات بشرية على الجهة المقابلة من الارض ؛ فرض أن للارض جهة مقابلة . وكان العدد الاوفر من المؤمنين ، منذ بداءة القرن الرابع الى نهاية القرن الخامس عشر ، اذا ناقضهم مناقض أو أنكر عليهم حجتهم منكر ، يلجئون الى تلك الحكمة المهدئة ، التي كان لها أكبر الاثر على اعصاب « جون هنري نيومان » J. H. Newman في القرن التاسع عشر ، حيث كانوا يقولون — « الدين رب يحميه » .

وعلى الرغم من هذا فان المفكرين كانوا يظهرون على مسرح الزمان بين حين وحين . ومما يدلك على أن مذهب « الانتبود » كان لا يزال حيا ، أن « بروكوبيوس الغزي » Procapius of Gaza في القرن السادس قد هاجم ذلك المعتقد بكل ما أوتي من قوة العلم وناهض الحجة والقدرة على الاطناب ، وقضى بأنه اذا كان على الجهة المقابلة في الارض أناسا ، لوجب أن يذهب المسيح اليهم وأن يقضي صالبا في سبيل خلاصهم مرة ثانية ، ولا ينبغي أن يكون هنالك . مقدمة لوجوده اليهم . مثال من جنة الخلد وآدم والافعى والطوفان

وكذلك هاجم « قوزماس أنديكوبليوستيس » هذا المذهب بشيء من الحرارة خاص به ، موردا النصوص في إنجيل « لوقا » St Luke ليثبت أن وجود « الانتبود » منقوض لاهوتيا .

في أواخر القرن السادس عاش رجل كبير هو القديس « إزيدور الاشبيلي Isidore of Seville كان من المنتظر أن يعمل لصالح العلم عملا مجيداً. فلقد كان ثابت القدم في المعرفة بعلم القدماء وبآرائهم ، وكان من حرية الفكر بحيث أقدم كما رأينا من قبل على أن يعلن عن ثبات يقينه بكروية الارض ولكنه مع الأسف وقف عند هذا الحد فإن نفوذ النبي داود The Psalms والقديسين « بولص » « وأوغسطين » قد اتجه تلقاء معتقد « الانتيبود » . ولذلك نراه يترك كل المسألة على اعتبار أنها خارجة عن النواميس والقانون. ومن ثم يخضع العقل لليقين ، معلنا أن الناس لا يمكن بل ولا ينبغي ان يوجدوا في الجهة المقابلة من كرة الارض

لقد يخيل للبعض خطأ أن الحقيقة العلمية قد زالت وفنت ، تحت تأثير مثل هذا الاضطهاد الكبير . والواقع أنها ظلت مختفية كامنة في تضاعيف العقل البشري قرنين كاملين من الزمان . ولم تكد تشرق شمس القرن الثامن حتى أصبحت كروية الارض معتقدا عاما ثابتاً بين جلة المفكرين ، ورواد العلم ، وهنالك ظهر الاسقف « فرجيل السولزبرجي » — Virgil of Salzburg — يؤيد مذهب «الانتيبود » مرة أخرى .

كان في ألمانيا خلال السنين الاولى من القرن الثامن رجل من أرجح الرجال عقلا وأنبلهم نفساً هو القديس « بونيفاس » — Boniface — أما تثقيفه فكان على أتم ما في الامكان خلال تلك العصور . وأما مناعيه ومشقاته فقد استحق بها أن يعتبر خليفة الرسل والحواريين . وأما غيرته على الدين المسيحي ونبوغه في تعرف أصوله وقواعده قد أديا به ، على

قصد منه ورغبة ، الى الاستشهاد : وفى ذلك الوقت شغل عرش البابوية سياسى من أقدر الرجال ومسيحى من أعظم المسيحيين ، هو البابا « زاخارى » . غير أن « بونيفاس » ، وهذه صفاته ، لم يتماسك برهة فى أن يعلن أنه يربأ بالناس أن تقوم بينهم هرطقة القول « بالانتيبود » مرة ثانية ، معتقداً أنه لا يمكن أن يوجد أناس لا يستطاع أن نبلغهم وسائل الخلاص المسيحية . وهاجم من ثم «فرجيل» نادباً البابا « زخارى» الى معاضدته والاخذ بيده .

ولقد أجاب البابا على دعوة « بونيفاس » باعتباره معلم المسيحية المعصوم من الخطاء ، اجابة تجلت فيها القوة وشدة المراس . فذكر آيات من سفر « أيوب » (١) ، وحكم من « سليمان » يناقض بها معتقد « الانتيبود » ، معلناً أن هذا المذهب « عريق فى الضلال ، أصيل فى الاجرام ، مفسد النفس فرجيل ذاتها » وهدد بطرده من أسقفيته . وسواء أنفذ هذا التهديد أم لم ينفذ ، فان المعتقد اللاهوتى القديم ، مؤيداً بأوامر البابا القدسية ، ومحمياً بعصمته ، قد عاد الى الوجود ثانياً معتقد أن الارض مأهولة فى جانب واحد من جوانبها ، حتى لقد أصبح أكثر غوراً فى الوجدان الاورثوذوكسى ، وأثبت تأصلا فى عقلية رجال الكنيسة .

ولقد اعتبر هذا القرار نهائياً غير قابل للنقض ولا اعادة نظر ، حتى أن « فنسنت بوفييه » ، أكبر انسيكلوبيذى فى القرون الوسطى ، مضى قانعاً ، بعد صدور ذلك القرار بخمسة قرون كاملة ، بأن مذهب « الانتيبود » ينقصه البرهان ، لانه مناقض لنصوص التوراة . ذلك

على الرغم من أنه كان يعتقد بكروية الارض . ولكن المذهب قد ظل حيا ، على الرغم من كل هذا . وكما أنه كان قد ظهر الى عالم الوجود بجهد «وليم الكونشى» William of Conches ثم اختفى ، كذلك عاود الظهور ثانية خلال القرن الثاني عشر . تحت تأثير «البرت الكبير» Albert the Great أكبر رجال العلم فى ذلك العصر . ولكن الظاهر أنه تعمد أن يلغز أقواله تلافياً هذا المعتقد . فكان ذلك سبباً فى أن تختفي أنوار الحقيقة وراء ستار اللاهوت . وبعد مضى مائة عام ، اضطر « نيقولاوس الاورسيمى » — Nicolas Oresme — والذى كان جغرافيا للملك فرنسا أحد أقطاب العلم إذ ذاك ، أن يحنى رأسه لتعاليم التوراة كما فسرها القديس « أوغسطين » .

ولم يتقف الامر عند هذا الحد من الفساد . ففى أوائل القرن الرابع عشر خيل الى رجال الكنيسة فى ايطاليا أن الضرورة تقضى عليهم بأن يعالجوا أمثال هذه المذاهب بالمخالع والسندان(١). ففى سنة ١٣١٦ لم يفلت « بطرس ألبانو » — Peter of Albano — وكان مشهوراً كطبيب ، من يد محكمة التفتيش الا بأن أدركته الوفاة من قبل أن تمد يدها اليه ؛ تلافياً ما روج من مذهب «الانتيبود» وغيره من مذاهب العلم . وفى سنة ١٣٢٧ طرد « شيكو داسكولى » — Cecco d'Ascoli — وكان فلكياً ذا شهرة وعلم ، من أستاذية جامعة « كولونيا » وأحرق حياً فى « فلورنسا » ، لانه علم مذهب « الانتيبود » وغيره من حقائق العلم ، فظن بأنه ساحر ، وأنه يعلم السحر . ولقد خلد المصور « أوركانيا » — Orcagna — الذى

(١) من آلات التعذيب في القرون الوسطى

لا تزال نقوشه المفزعة قائمة حتى اليوم على جدران « كامبوسانتو » — Campo Santo — في « بيزا » ذكرى « سيكو » بأن صوره في جهنم ناتهمه ألسنتها النيرانية .

وانحدرت السنون . حتى اذا ما كان القرن الخامس عشر ، ظهر رجل من الافذاذ الذين كان ينتظر أن يجني منهم العالم الانساني خيراً كبيراً . فان « بطرس دايلي » — Peter d'Ailly — قد استطاع ، بما أوتي من بسطة العلم وقوة الفكر ، أن يصبح عميد الكلية القديس « دينيه » — St Die — في اللورين . وكانت مقدرته سبباً في أن تضحي تلك القرية مركزاً للفكرة العلمية في كل أوروبا ، ومن ثم اهلت به لان يكون رئيس أساقفة في « كامبري » — Cambray — ثم كردينالا . وفي أواخر القرن الخامس عشر طبع ما كان قد كتب الكردينال « دايلي » من قبل ذلك بزمان طويل تلخيصاً لجمل آرائه ومباحثه العلمية ، وهي مجموعة مقالات نشرت تحت عنوان « يوماجو ماندي » — Yomago Mundi — وهذه المقالات تعطينا أعظم مثال من المثل التي يرويها التاريخ في عالم عظيم أسدلت عليه أثواب اللاهوت . فانه عند ما بلغ في الكلام الى مذهب « الانتيبود » شرحه أو فى شرح وفصله أحسن تفصيل ، حتى انه ليخيل اليك بعد ذلك أنه سوف يعتزي بأنه حق ثابت . ولكن هنالك تقوم براهين القديس « أوغسطين » . والآيات الانجيلية ، وآيات المزامير وأقوال القديس « بولص » الى الرومانيين — « بلى . الى كل الارض خرج صوتهم والى اقاصي المسكونة أقوالهم » ، فما استطاع « دايلي » وقد أراد أن ينزل على حكم العقل ، أن يفيض على عالم العلم بشيء . وقد

تابعا حماته مذاهب اللاهوت ٠

غير أن مذهب « الانتيبود » بقى حياً يدب فى ثنيات العقل. بيد أن اللاهوتى الاسبانى الكبير ، « توستاتوس « – Tostatus – قدشعر بوجوب مقاومته فقضى بأنه مذهب « غير مأمون الجانب » . وكان ذلك، فى عصر « كولمبوس » ، وقد صب براهين القديس « أوغسطين » فى القياس المنطقى الآتى – « ان الرسل قد أمروا بأن يذهبوا فى كل نواحى الارض ليبشروا بآيات الكتاب المقدس . ولكنهم لم يذهبوا الى ذلك المكان الذى يقطن به « الانتيبود » ولم يبشروا بالآيات لكائن ما هناك . وعلى هذه المقدمات ، ينتج أن « الانتيبود » وهم لا حقيقة » .

وما الحرب ضد « كولمبوس » بشىء بعيد عن الاذهان . وليس بغائب عنا كيف أهانه أسقف « سيوتا » – Seuta – وازدراه فى البرتغال. وكيف جابهه رجال من أقدر من انبتت اسبانيا رجاحة عقل فى تلك الازمان بتلك النصوص المعروفة فى المزامير وفى رسائل القديس « بولص » ، وفى براهين القديس « أوغسطين » . وكيف أن الكنيسة ، حتى بعد فوزه ، وبعد ان فوت رحلاته الى العالم الجديد فكرة كروية الارض تلك الفكرة التى عت باكبر آصرة لمذهب « الانتيبود » قد مضت وعلى رأسها الحبر الاقدس ، جانحة الى اتباع طريق ما كان يؤدى بها الا الى التعثر فى وعناء الخيال. فى سنة ١٤٩٣ لجىء الى البابا «اسكندر السادس» – Alexander VI , – ليكون حكما يفصل فى ما تدعيه كل من دولتى اسبانيا والبرتغال من حق فى البقاع المستكشفة حديثاً ، فأصدر أمراً

بابوياً واضعاً على كرة الارض خطاً وهمياً يفصل بين ممتلكات الدولتين. ورسم هذا الخط ، ويدعى اصطلاحا خط التحديد ، من الشمال الى الجنوب واقعا على مائة غلوة(١) غربى جزر « الازورس » -Azores- . ولقد أعان « البابا » فى كثير من النفوذ بما أوتى من العلم والحكمة ، ان كل البقاع التى ستكشف شرقى هذا الخط تكون من حق البرتغال ، وكل مايستكشف غربيه يكون من حق اسبانيا . ولقد هال لهذا الحكم المؤمنون كأنه صادر من قوة قدسية محبوة بكل كمالات العلم والحكمة التى استمدتها الكنيسة من عالم الغيب . ولكن العقبات توالت وشبكاء حتى أن البابا « بوليوس الثانى » — Julius II — قد حاول مرة ثانية سنة ١٥٠٦ أن يغير خط التحديد فيجعله على بعد ٢٧٠ غلوة غربى جزر « رأس فيرد » — Cape Verde Islands — وهنا عاود المؤمنون الاعتقاد بأن الحكمة القدسية هى التى أمدتهم بذلك الحل الثابت . ولكنهم لم يلبثوا على ذلك الا قليلا حتى عصفت رياح الخلاف واشتبكت حلقات الفوضى ، لان البرتغاليين زعموا أن من حقهم امتلاك البرازيل ، وكان فى امكانهم أن ينتبهوا بالضرورة ، ان فى مستطاعهم أن يصلوا اليها بأن يبحروا من شرقى خط التحديد ، على شريطة أن يمعنوا فى سفرهم طويلا . ولا يبعد أن نرى الخطين اللذين رسمهما البابوان اسكندر السادس وبوليوس الثانى ، على الخرائط التى وضعت فى ذلك العصر . غير أن أمريهما القدسيين قد انحدرا مع الزمان الى حيث نسيا وأهمل أمرهما ، مع ما يحتويانه من الاخطاء التى تثبت ان الانسان جدير بما نزل به من

(١) غلوة League مقياس طوله ثلاثة أميال

كوارث ومآسات .

ومع كل هذا فان الحواجز اللاهوتية التى كانت تحجب هذه الحقيقة الجغرافية عن البصائر لم تزل الا تدرجا . وعلى الرغم من أن هذه الحقيقة كانت قد أصبحت جلية واضحة لاعين طلاب العلم والباحثين ، فانهم تلكأوا فى اعلانها والتبشير بها للناس زمانا . فان مائة وألفا من السنين كن قد مضين منذ أن برهن القديس « أوغسطين » على أنها مناقضة لنصوص الكتاب المقدس ، حتى أذاع « غريغورى ريش » Gregory Reysch موسوعته المشهورة التى أسماها « مارغاريتا فيلوزوفيقا » - Margarita Philosophica - ولقد توالت طبعات هذه الموسوعة الطبعة بعد الاخرى ، فلم تغفل طبعة منها ذكر الفكرة الاورثوذوكسية ازاء هذه الحقيقة . غير أن تلك الآراء اللاهوتية كانت قد أخذت فى الاضمحلال والسقوط . فان « ريش » على الرغم من أنه ذكر بكل احترام واجلال ان القديس « أوغسطين » قد مضى معارضاً لهذا المذهب فانه كان حريصاً على أن لا يذكر شيئاً من نصوص الكتاب المقدس ليتخذها برهانا على فساده ، ولم يكن بأقل حرصاً على أن يذكر الحقائق الجغرافية التى تؤيد صحته .

غير أن العلم قد انتصر انتصاراً فاصلا فى سنة ١٥١٩ . فان « ماجلان » - Magellan - كان قد أتم سياحته المعروفة . فبرهن على أن الارض كروية ، لان بعثه قد دار حولها . كما برهن على أن مذهب « الانتيبود » صحيح ، لان رفقاءه فى السياحة قد رأوا بأعينهم أولئك الخلائق . غير أن هذا لم ينه الحرب ولم يخمد جذوتها . فان كثيراً ممن

مضوا منسابقين لحكم المشاعر دون العقل، قد ظلوا مائتين من السنين ينكرون هذه الحقيقة ويقاومونها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وفى ذلك الوقت نجح فالكمو فرنسا فى مماس الدرجة الارضية فى الانحاء الاستوائيه والقطبيه وأضافوا الى براهينهم ذلك البرهان المستمد من استطالة الرقاص . وبعد ان وقع ذلك، وبعد ان رأى رجال الكنيسة أن استقراآت العلم قد تقررت بوسائل بسيطة كمماس الدرجات، على أكمل وجه وأتم صورة، وبعد أن أرسل كثير من السياح ومن بينهم فئة من متحمسى المبشرين، الى أوروبا وصفا كاملا لخلائق «الانتيبود»، بعد هذا كله . نامت عاصفة الحرب بين العلم واللاهوت بعد أن ظلت عاتية هوجاء اثنى عشر قرنا من الزمان .

على هذه الصورة كانت نتيجة تلك الحرب الطويلة الممضة . غير أنه حدثت نتائج لم تكن لها الاعتبارات مريرة . فان جهود «ايوسيبيوس وباسيل ولاكتانتيوس» التى بذلوها فى سبيل اخفات صوت العلم، وجهد «أوغسطين» فى مقاومته واضطهاده، وجهد «قوزماس» فى تحطيمه من طريق اللاهوت المذهبى، وجهد «بونيفاس وزاخارى» فى تقويض دعائمه بالقوة الغاشمة، وكلهم رجال لا يمكن أن يساورنا شك فى صادق يقينهم وحسن نيتهم، قد أحدث نتيجة واحدة، هى أن تثبت فى عقول الرواد من أهل العلم والدين، اعتقاد بأن بين الدين والعلم عداء وصراع .

على أنه يمكننا أن نتساءل من جهة أخرى، أى جنى جهاد المحاربون من أجل العلم لصالح الدين ؟ جنوا تصوراً ثابتاً نبيلا فى حقيقة العالم،

وتصوراً آخر لا يقل عنه نبلا ولا ينزل عنه شرفا، في جلال تلك القدرة الشاملة التي تسيطر على العالم وتدبر أمره. وقد نتساءل ثانية أيها أكثر ملاءمة لعقيدة دينية عليا: أكونيات «قوزماس» أم كونيات «نيوتن»؟ وأيهما يهيء للفكرة الدينية مرتعاً خصيبا وبيئة فيها ألفة واتساق، أجدليات «لاكتانتيوس»، أم تقريرات «همبولد» الهادئة العميقة.

* * *

٤ — حجم الارض

العلم يحاول مقاس الارض — حل اللاهوت لهذه المعضلة — اندفاع كولمبوس باخطاء اللاهوتيين

* * *

منذ زمان بعيد هز موضوع جغرافي آخر عقول الناس هزا عنيفا. وكان هذا الموضوع محصوراً في النظر في حجم الارض .

لقد وصل كثير من باحثي القدماء بوسائل مختلفة من مقاس الابعاد الى نتائج تزداد تقرب من الحقيقة بازاء حجم الارض . ولقد ظلت هذه الوسائل حية حتى أسلمها الزمان الى القرون الوسطي ، فتزودت بآراء جديدة ؛ وكان من بين النتائج التي هي أكثر من غيرها في العقل الانساني تأثيراً وأزكى طبيعة ؛ تلك النتائج التي وصل اليها « روجربا كون » ـ Roger Bacon ـ و « غربرت » ـ Gerbert ـ الذي تبوأ من بعد عرش البابوية باسم « سلفستر الثاني » ، فانهما قد أسلما الى الخلائف من بعدهما ذخيرة العلم كاملة غير منقوصة. غير أنهما لم يجنيا من معاصريهما الا ثمرة اجاجا ، فنعتا بانهما ساحرين ، وانهما بترويج السحر والشعوذة .

لقد كان للاهوت في القرون الوسطى روحا سارية في الجماهير مايلائمها الا حلول لمسائل العلم تستمد من نصوص الكتاب المقدس ، ويحق لنا أن نذكر ذلك الحل الذي استمد من تلك النصوص بازاء حجم الارض ، وما نذكره الا كمثال نعبر به عن مقدار ما غشي العقول

من مغالطات المذاهب اللاهوتية واخطائها . فان السفر الثاني من أسفار « عزرا » - Esdras - قد اعتبره كثير من تابعي رجال الكنيسة القديمة وحياً منزلا . وعلى الرغم من أن «جيروم» قد نظر في ذلك السفر نظرة الشك والارتياب ، فان « كليمان الاسكندري » و « ترتليان » - Tertullian - و « أمبروز » قد اعتبروه من الاسفار المنزلة الموحى بها الى الرسول السماوي ، وتابعتهم الكنيسة قائمة بزعمهم هذا . وقد شغل هذا السفر في الكنيسة الشرقية مكانا عاليا . أما في الكنيسة الغربية فقد اعتبره كل الجهابذة والثقاة جزء لا يتجزأ من الشريعة المقدسة . وكان هذا قبل قيام حركة الاصلاح البروتستانتي . وانك لتجد في الاصحاح السادس من هذا السفر ناخيصاً لاعمال الخالق مصبوبا في السياق التالي

« أمرت في اليوم الثالث أن تجتمع المياه في الجزء السابع من الارض فجففت ستة أجزاء منها وحفظتها بقصد أن تحرث وأن تعمر مخلوقاتها بتسبيحاتك »

« وفي اليوم الخامس قلت للجزء السابع الذي تجمعت فيه المياه ليخرج منك خلائق : من دجاج وسمك وهكذا كان » (١)

ولقد أيدت هذه النصوص في فصول أخرى من ذلك السفر فكان من الطبيعي أن تصبح من الاسانيد الدينية ذات الحول والسلطان

وكان الكردينال « بطرس دايلي » أحد أوائل الباحثين الذين ائتموا بهذه الاقوال وبغيرها وعكفوا عليها قصد تنمية العلم وزيادة ثروته

(١) اضطررت الى وضع المعنى فقط لاني عجزت عن الحصول على اسخة من كتب الابوكريفا (معرب)

ولقد رأينا من قبل أنه بينهما كان ينكر وجود «الانتيبود» اخلاداً لفكرة القديس «أوغسطين»، ومع ثابت الاعتقاد فى كروية الارض. فلما عمد الى تفسير هذه النصوص التى التوت عليها دفتا سفر «عزرا» وأراد أن يوفق بينها وبين معتقده الثابت فى كروية الارض، قضى بأن سبع الارض فقط كانت تغشاه المياه؛ فان المحيط الواقع فى غربى أوروبا وشرقى آسيا. لا يمكن أن يكون مفرط الاتساع. وعلى اعتقاد أنه يعرف، كما خيل اليه؛ مقدار امتداد اليابسة فوق الكرة الارضية. شعر بأنه خضوعا لهذه النصوص الدينية لا بد من أن تكون الارض أصغر بكثير مما قدر لها، وأن أرض «زيبانجو» - Zipango - التى بلغها «ماركوبولو» - Marco Polo - فى نهاية الطرف الشرقى من شاطىء آسيا، يجب أن تكون أكثر قرباً مما يتوهم الناس.

وعلى هذه الفكرة عكف الكردينال «دايلى» فى كتابه العظيم المسمى «يوماجوماندى» - Yomago Mundi - وكان قد ظهرت طبعة من هذا الكتاب فى تلك الايام التى كان يفكر فيها «كولمبوس» تفكيراً جديا فى امكان السفر غربا. ولا مشاحة فى أن فكرة «دايلى» قد استغرقت قسطا كبيراً من تفكيره وتأملاته. وليس بين مخزونات مكتبة «اشبيلية» من شىء هو أثمن فيها من نسخة من ذلك الكتاب قد علقت عليها حواش بخط «كولمبوس» نفسه. ولا ريبة فى أن «كولمبوس» لم يقنع بفكرة أن طريق اجتياز المحيط الى أرض «زيبانجو» التى بلغها «ماركوبولو» فى آسيا قصير، الا من اكبابه على دراسة هذه النسخة. ولولا ذلك الخطأ الكبير الذى بنى على نص

فى كتاب دينى ظن أنه منزل موحى به ، لما استطاع « كولمبوس » أن يحصل على ما حصل عليه من تأييد جعل سياحته فى حيز الامكان.
ومن غرائب الحادثات أن هذه الغلطة اللاهوتية الغريبة ، كانت سبباً فى القيام برحلات عديدة لم يكن لها من نتيجة الا تحطيم هذه الغلطة نفسها ، مع بقية الاغلاط التى قامت على تصورات جغرافية بنيت على كتابات دينية منذ أبعد العصور .

***

٥ — طبيعة سطح الارض

سيرفيتوس وتهمه نكرانه خصوبة أرض يهودا — المقارنة بين الروح اللاهوتية والروح الدينية في تأثيرها على العلم

ليس من الانصاف في شيء أن نختم الكلام في قصة التنازع على البقاء حول الحقائق الجغرافية من غير أن نستطرد قليلا في شرح تاريخ الكنيسة البروتستانتية ، فان ذلك التاريخ يظهرنا جليا على تلك الصعاب التي وقفت في سبيل أبسط الحقائق الجغرافية التي تصارعت وما أتى في الاسفار المقدسة من نصوص .

ففي سنة ١٥٥٣ وقف « ميخائيل سيرفيتوس » Michael Servetus ليحاكم في جينيف وقد كاد يفقد حياته لاتهامه بتهمة « الاريوسية » - Arianism - وقد خدم « سيرفيتوس » كثيرا من حقائق العلم خدمة صادقة . وكان من خدماته الجليلة طبع نسخة من كتاب جغرافية « بطلميوس » تكلم فيها عن أرض « يهوذا » - Judea - فلم يذكر أنها « بلاداً تفيض عسلا ولبنا » مجاراة للرأي اللاهوتي ، بل عرج الى الحق وجاراه ، ذاكراً أنها بلاد بوراً مجرودة غير مأهولة . ولقد اتخذ « جون كالفن » ، ألد أعدائه وأقواهم نفوذاً ، جنوحه الى الاعتقاد بهذه الحقيقة الجغرافية سببا في أن يحمل عليه أثناء المحاكمة بكل ما أوتي من قوة الدليل والبرهان . وعبثا حاول « سيرفيتوس » أن يثبت لقضاته أنه إنما نقل هذا القول عن نسخة أخرى من كتاب « بطلميوس » . وسلمى

ضاعت كل جهوده ليثبت أن هذه الاقوال ليست الا حقيقة جغرافية بسيطة قامت على صحتها براهين طبيعية عديدة . فلم يكن هنالك من رد عليه سوى القول بأن كلامه « تحد » بالضرورة لموسى ، وانتهاك سافل لسلطة الروح القدس » .

ومحصل القول أن أعمال الكنيسة فى مقاومة علم الجغرافية قد انحصرت فى أن المذاهب اللاهوتية قد مضت منطورة ، ولكن على أشد ما يكون مراعاة لنصوص الكتاب المقدس ، وأن التصورات التى استمسكت بها الكنيسة خلال قرون عديدة كانت « فى كل وقت ومكان وفى صدر كل انسان » وعلى وجه عام، منافية لحقائق العلم غير أنه لا يحق لنا أن نترك هذا الباب مفتوحا من غير أن نضم مصراعيه على بحث تتناول فيه الفرق بين الروح الدينية والروح اللاهوتية .

إن علم الجغرافية مدين للروح الدينية بعدة رحلات ، تعد من أبرز الرحلات الاستكشافية وأعظمها خطراً . فإن الرغبة الشديدة التى قامت فى صدر البرنس « يوحنا » البرتغالى لينشر النصرانية ويرفع صوتها كانت سببا فى سلسلة تلك الرحلات المشهورة فى شواطىء أفريقية وفى رحلة « فاسكو داجاما » Vasco da Gama فى الدوران حول رأس الرجا الصالح ورحلة « ماجلان » حول الارض . ولا شك فى أن ذلك الشعور كان سببا فى تهيئة الظروف التى مهدت لكولمبوس أسباب القيام برحلته الكبيرة .

وعلى هذا نرى أن تفوق الروح اللاهوتية كان سببا فى تزكية النزعة الى الصورة المذهبية فى الدين ، تلك الصورة التى برزت فى كل

عصر من العصور لابسة ثياب الجلاد والصراع ، لا انحارب العلم وحده ، بل انصارع الروح الدينية العليا ، بينما نجد أن نزعه البحث عن الحقيقة لذاتها ، تلك النزعة التي كانت سببًا في كل ما أوحى به للناس من ثمار العلم ، لم تنتج في مختلف العصور الا خيراً ، ولم تثمر الا أشهى الثمرات للدين وغير الدين :

* *

الفصل الثالث

من الخلق الى النشوء

١ — العالم المنظور

الفكرة في كيفية خلق العالم خلال الازمان القديمة والعصور الوسطى — مادة الخلق — زمان الخلق — تاريخ الخلق — الخالق — في الضوء والظلام — بدايات فكرة النشوء — الكلدانيون — العبرانيون — اليونان — الرومان — بقاء فكرة النشوء في العصور الوسطى على الرغم من كراهية الكنيسة لها ورهدها فيها — عاؤها في العصور الحديثة — الرأي السديمي وصراعه مع المذاهب اللاهوتية — انتصار فكرة النشوء في النهاية — الكتب المقدسة تؤيد فكرة النشوء — الوفاق الحقيقي بين العلم واللاهوت.

* * *

من بين مجموعة النقوش الكاتدرائية التي تعبر عن كثير من حقائق اللاهوت في العصور الوسطى، نقش يمتاز بالتعبير عن مذهب لاهوتي في أصل الكون، ظل موضع الاحترام والاجلال أزماناً طوالا.

الواحد القهار، في صورة بشرية، جالس بوداعة ولين، يصنع الشمس والقمر والنجوم، ويعلقها في القبة الصلبة التي تحمل من فوقها «السماوات العلا» وتظلل الارض «السفلى».

أما علائم التفكير الظاهرة في تقطب جبينه فتنم على أنه أجهد نفسه

امعاناً فى التدبر والاستبصار ، كما يدل انتفاخ عضلات ذراعيه على أنه قد اضطر الى أن يكد وينصب . ومن الطبيعى أن يكون المالون والمصورون خلال القرون الوسطى ، وفى بدء العصور الحديثة ، قد عمدوا الى تمثيله على مقتضى ما تصوره كتاب ذلك العصر ، إذ كانوا يقولون بأنه استراح فى اليوم السابع ، واضطجع فى هدأة ، مصغيا الى تراتيل الثناء التى زفتها اليه سكان السماء .

من حول هذه الفكرات العتيقة التى فاضت بها الكلدانيات ، وفى غيرها من الآراء التى عبرت عنها النقوش والصور وتلاوين الزجاج وزخارف الفسيفساء والحفر خلال العصور الوسطى ، وقرنين فرطا من بعد تلك العصور ، تكشفت نواة من الاعتقاد كانت قد أخذت تتكون خلال ألوف من السنين ، ومضت محكمة فى كل ما أبرز العقل الانسانى من صور الفكر حتى عصرنا هذا . (١)

اما بدايات ذلك الاعتقاد فنرجع الى أعرف عصور التاريخ قدما . فاننا نجدها فى أوليات كل مدنية من المدنيات العظمى ، بيدأنها شغلت فى كل الكتب المقدسة التى ذاعت فى نواحى العالم ، على تعددها وكثرتها ، مكاناً عاليا . ففى كل المدنيات تقع على فكرة وجود خالق ، ابس الانسان إلا صورة منه غير كاملة ، وأنه خلق الكون المنظور بطريقة مباشرة مستخدما فى الخلق يديه وأصابعه .

من بين تلك النظريات عدد غير صغير مضى محكما فى اللاهوت الكلدانى . ومن الواجب أن نخصه بشىء من العناية والتقدير . فإن النصوص الاشورية

(١) سنة ١٨٩٥

التى استكشفت حديثاً ونقلها الى العالم الانجليزى أعلام من أمثال « لايارد » Layard « وجورج سميث » George Smith «وسايس» Sayce وغيرهم ، لتريناأنه قد تغلغلت فى تضاعيف الاديان الكلدانية والبابلية قصة فى حقيقة الخلق ، من أهم مزاياها وأخطر دقائقها ، أنها لابد من أن تكون النواة التى فرخت منها تلك القصص التى تقع عليها فى كتبنا المقدسة . ولقد ظهر باجلى بيان أن تلك الفكرات التى تشغل أعلامكانة فى اسفار العبرانيين ، قد استمدت من ذلك النبع الذى فاض على المدنيات الكلدانية — البابلية والاشورية والفينيقية بتلك القصص التى وضعت فى حقيقة خلق العالم . ففى تينك القصتين اللتين تخالطتا فى سفر التكوين ، وفى تلك الرواية التى يمكن أن يستدل عليها باشياء فى سفر «أيوب» — Job — يتمثل لك ، بكل مايستطاع أن تتخيل من العظمة والقدرة ، نفس ذلك التصور فى حقيقة الخالق والخلق ، وهو تصور خليق بالمدنية وهى بعد فى مهد طفولتها وغرارتها إذ يبرز لك الخالق فى صورة بشرية مكبرة ، وهو يكد فى العمل باطرافه ويمثل لك الخلق « مصنوعا بيده » . ولقد نشأ ، تعقيباً على هذا التصور ، اعتقاد فى الخالق على انه شخص بعد ان « قذف من راحة يده الى الفضاء بكل السيارات لتجوب أنحاء المكان » جلس فى العلاء فوق العرش المستقر « على فلك السماء » جاداً أبداً فى أن يحكم سيرها ويهديها طريقها .

ومن هذه النظرية الموضوعة فى حقيقة الخلق ، نشأت مع الزمان فكرة أخرى ، أكثر نفاذاً وأنبل قصداً . ففكروا القدماء ومفكرو مصر على الاخص ، كما اتضح منذ عهد قريب ، قد مضوا معتقدين بان

السبب المباشر فى الخلق لبست يد الخالق ولا أصابعه ، بل صوته . ومن هنا تخالطت بالمعتقدات الفطرية الاولى التى ذاعت فى أصل الارض والاجرام السماوية بقدرة الحى القيوم ، فكرة أكثر للشعور مساً ، وأعمق فى التصور تغلغلا ، فقالت بانه « تكلم وأنها خلقت » ، وأنها قد برزت الى عالم الوجود بتأثير « الكلمة » .

اما هذه النظرة العامة فى أصل الخلق فقد مضت مستبدة بأمرها فى تصورات آباء الكنيسة الاولى ، وأصبحت معتقداً أساسياً من معتقداتهم ، حتى أنهم ألزموا النصرانية ، تدرجا وعلى مر الزمان ، الثبات على الاعتقاد بان الكون قد خلق تاما كاملا بيد الله أو صوته .

بين آونة وأخرى ظهر من بين اللاهوتيين « خوارج » امتازوا بشيء من رجاحة العقل وسعة النظر ، حاولوا أن ينظروا فى خلق بعض أجزاء من مفصلات الكون نظرة أعمق من سابقتها تغلغلا فى صميم الروحانيات ، وعلى الأخص « غريغورى النيسى » Gregory of Nyassa والقديس أوغسطين St Augustine وكانوا على استعداد لان يقبلوا النصوص الحرفية التى جاءت فى المتون المقدسة ، لهذا ثاروا ضد ذلك التصور : تصور أن العالم خلق بتأثير ذات كاملة القدرة ، كونته بيديها وأصابعها وتابعهم فى ذلك « بيده » Bede ــ وقليل غيره . غير أن آراء أكثر من غيرها امعانا فى الماديات ، كانت لاتزال السائدة على العقول ، حتى انك تجد آثارها ظاهرة فى النفوس ورخارف الفسيفساء وتلوين الزجاج فى الكاتدرائيات ، وفى الرسوم التى تحلى بها كتب القداس والمزامير ، حتى فى الاناجيل المصورة ، وكتب المعرفة العامة التى ظهرت خلال القرون الوسطى .

أما فى العالم الانجلوسكسونى فقد أحكم عرى هذا التصور المادى القديم شاعران ، خصت أشعارهما بالوقع على أوتار تلك المشاعر الدينية العميقة . ففى القرن السابع فسر الشاعر «كادمون» -Caedmon- الاقوال التى جاءت فى سفر التكوين وفصلها تفصيلا أفرغ به ذلك التصور المادى فى خلق الكون فى حالة محبوكة الاطراف على ظاهر المتون المقدسة . وبعد ذلك بألف سنة أخذ «ملتون» -Milton- من النصوص الكثيرة التى جاءت فى كتب العهد القديم قدراً مزجه بفكرة لاهوتية فى «الكلمة الخالقة» استمدت فى أصلها من كتب العهد الجديد ، ومضى على ذلك يصف كيف خلق الاقنوم الثانى من الثالوث الآلهى العالم بتفاصيله ، فجاء وصفه صورة من الافكار اللاهوتية والنصوص المقدسة لا تدانيها صورة أخرى لزوما لظاهر الجمل والالفاظ .

قال فى أسلوب شعرى رائع :

« أخذ البيكار الذهبى الذى كان معداً فى خزائن الله الابدية السرمدية ليخطط حدود الكون وكل المخلوقات . ووضع أحد طرفيه فى المركز وادار الطرف الآخر دورة حول تلك الاغوار البعيدة القصية ثم قال : الى هنا تمتد حدودك : والى هنا ينتهى محيطك أيها الكون؟ » .

هذا هو التصور الارثوذكسى فى الاسلوب الذى خلق به العالم .

* * *

أما المسألة الثانية التى أنشأها ذلك التصور اللاهوتى ، فكانت ذات علاقة « بالاحد » الذى ... الاغا ... الذ...

من أهل اللاهوت قائمة بأنه لم توجد مادة ما قبل خلق الكون ، وأن « الله خلق كل شيء من لا شيء » .

من اللاهوتيين فئة خصت بشيء من الشجاعة والاقدام ، أشاروا اعتماداً على النصوص الاولى التي وردت في سفر التكوين ؛ الى فكرة أخرى مغايرة لتلك الفكرة ، ومؤداها أن الكتلة المادية قد وجدت قبل وجود الكون ، ولكنها كانت « بلا صورة وفي خلاء لا متناه » غير أن هذا المذهب اكتسح سراعا من عالم المعرفة .

أما معتقد آباء الكنيسة فكان جليا واضحا ازاء هذا الامر . فان « ترتليان » - Tertullian - قد انتحى أكثر الطرائق حزما وشدة ازاء الذين كانوا يعتقدون بأية فكرة مضادة للفكرة التي اعتنقها زعماء الاورثوذكسية . بل اعلن بانه اذا وجدت أية مادة أولية صنع منها الكون ، فلا بد من أن تكون الكتب المقدسة قد أشارت اليها . أما وأن هذه الكتب لم تذكرها ، فان الله قد أمدنا بأنصع برهان يدلنا على أنه لم يوجد قبل الخلق شيء كهذا . وعلى أسلوب فيه من العسف قدر لم يعرف له مثيل في أي خلاف لاهوتي آخر هدد « هرموجينيس » - Hermogenes - وكان من مؤيدي الرأي القائل بقدم المادة ، « بالويلات التي تنصب على أولئك الذين يزيدون على الكلمة القدسية أو ينتقصون منها » .

أما القديس « أوغسطين » ، وكان ممن أشار تلميحاً الى الاعتقاد بوجود المادة قبل الخلق ، فقد وفق بين ما كان يرى من رأي وبين المعتقد السائد في حدوث المادة ببرهان ساذج بسيط إذ قضى ، « بانه

على الرغم من أن العالم لا بد من أن يكون قد صنع من مادة ما، فانه من المحتوم أن تكون هذه المادة ذاتها قد خلقت من العدم بداءة ذي بدء » .

في الطريق التي رسمها هؤلاء العظماء سارت الكنائسة العظمى هادئة مطمئنة. ولقد صرح المجمع اللاتيراني الرابع Fourth Lateran council بأن الله قد خلق كل شيء من لا شيء. وانك لتجد حتى اليوم أن ارهاط المؤمنين سواء أكانوا كاثوليك أم بروتستانت، لا يقفون ازاء هذا الامر من شيء سوى ما يوحي به هذا المذهب. وعلى هذا الامر اتفق البابا « بيوس التاسع » Pius IX في مختصره الديني، وكنيسة وستمنستر في كتاب « أصول الايمان » .

وبعد أن فرغ اللاهوتيون من الكلام في طريقة خلق الكون ومادته، رجعوا الى الكلام في « الزمان » الذي تم فيه ذلك العمل العظيم.

هنا اعترضتهم مشكلة. فان أولى الروايتين اللتين جاءتا في سفر التكوين تنص على أن عمل الخلق قد تم في ستة أيام، كل يوم منها نهار وليل، بما في ذلك تفصيل ما تم في كل منها، على صورة تامة من الدقة والضبط. أما الرواية الثانية فتذكر « اليوم » الذي صنع فيه « الله الارض والسموات » . ولقد كان ما اتصفت به الرواية الاولى من الدقة، وملاءمتها لطبيعة ما تكونت عليه عقول العديد الاوفر من متقدمي اللاهوتيين، قوة حازت بها قسطا من الاسبقية وقوة البقاء. غير أن مفكري اليهود من أمثال « فيلو » - Philo - ومفكري النصارى من أمثال « أوريغن » - Origen - وقد حاولوا أن يكونوا في الخالق وخلقه تصورات أرقى نزعة وأنبل قصداً، لم يقنعوا بهذا. فألقوا في بحر

اللاهوت النصرانى المضطرب المتدافع القوات ، بفكرة أن الخالق كان موفوبا وفى لحظة واحدة . ولم تستمد هذه النظرية عناصر القوة من الجزء الثانى من أساطير سفر التكوين وحدها ، بل كان يؤيدها النص القائل — « تكلم فخلقت العوالم . وأمر فبرزت ثابتة » : أوكما جاء فى النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس — « تكلم فصنعت العوالم . وأمر فخلقت » .

كان من نتائج ذلك أن برزت فى ثنايا العقل فكرة أن أقوم طريق وأسلم سبيل يتبعه المؤمنون هو الاعتقاد الكامل بكلتا النظريتين ، وأن الله بطريقة خفية قد خلق الكون فى ستة أيام ، بيد أنه أبرزه الى الوجود فجأة وفى لحظة واحدة . وعلى الرغم مما أهاب به عدد عديد من عظماء اللاهوتيين مثل « افرايم سيروس » - Ephraem Syrus - وغيره ، من أن الكون قد خلق فى ستة أيام تامة ، كل منها أربعة وعشرون ساعة ، فان نزعة التوفيق بين تلك الروايتين المتناقضتين قد أيدها القديسان « أثناسيوس » - St. Athanasius - و« باسيل » - St Basil - فى الشرق والقديسان « أوغسطين » و « هيلارى » - St Hilary - فى الغرب .

ولقد نشأت صعاب اعترضت سبيل اللاهوتيين فى التوفيق بين هاتين النظريتين ، اللتين ان يقوما معا فى عقل قياسى ، لما بينهما من الخلاف والتناقض . غير أنهم بما خصوا به من المهارة والحذق فى تأويل النصوص وقلب ظواهرها ، وبما جبلوا عليه من المقدرة على اللعب بالالفاظ والجمل ، وبما لجؤوا اليه من طريقة الجنوح الى الاساليب الغيبية وكثرة ما استخدموا من نظريات ما بعد الطبيعة ، استطاعوا أن يصلوا

الى التوفيق بينهما ، حتى أصبح الناس وهم يعتقدون بأنهم اعتقدوا ، بأن خالق الكون كان فجأة وفي برهة واحدة ، بيد أنه امتد الى ستة أيام سويًا .

من الجهود التى بذلها اللاهوتيون فى سبيل التوفيق بين هاتين النظريتين نزر يسير كان خصب الانتاج معدد الآثار ، حتى انجده خليقا بأن نخص فقط من عناية الذكر . فان آباء الكنيسة ، فى الشرق وفى الغرب ، قد كونوا من مجموع ما كان بين أيديهم من روايات سفر التكوين ، والاشارات التى وردت فى المزامير ، والامثال ، وسفر أيوب -Job- هيكلا ضخما من العلم المقدس . كل جزء منه يمت الى هذه النظرية بسبب . أما خالق الكون جملة ، فقد لجؤوا لدى النظر فيه الى القول عما تصوروا من قوات سرية خفية منبثة فى تضاعيف بعض المكونات العددية . فان « فيلو يهوذاوس » - Philo Judaeus - بينما مضى معتقدا نظرية الخلق الفجائى ، قد أعان بجانب هذا الاعتقاد ، أن الكون قد صور فى ستة أيام ، لان «العدد ستة ، من بين كل الاعداد ، هو الاكثر انتاجا » . ولقد أظهر أن خالق الاجرام السماوية لم يقع الا فى اليوم الرابع ، « لما فى العدد أربعة من صفات الالفة والاتساق » وأن خالق الحيوانات كان فى اليوم الخامس ، اشارة الى الحواس الخمس . وان خالق الانسان فى اليوم السادس ، فيه نلمح الى ما فى العدد ستة من الفضائل التى وضعت ذلك العدد كحد نهائى للعمل الخالق الكبير . ثم عمد الى ما هو أكبر من كل هذا ، فأشار الى أن راحة اليوم السابع انما تشير الى تلك الفضائل العظيمة السرية الكامنة فى العدد سبعة .

ولقد أيقن القديس « جيروم » - Jerome - بأن السبب في أن الله لم يصف ما تم من العمل في اليوم الثاني من أيام الخلق بأنه «حسن» إنما يرجع الى شيء هو شر بذاته مفروض وجوده في العدد اثنين. وهذا الرأي قد تردد صداه عن طريق « بيده » - Bede - وفي جنبات بريطانيا العظمى ، بعد عصر « القديس جيروم » بقرون طوال.

أما القديس « أوغسطين » فقد الزم الكنيسة بهذا الاعتقاد متبعا طريقة التدليل الآتية. قال :

« يوجد ثلاث فصائل من الارقام. الاكمل والكامل والناقص ، وهذا بنسبة ما يكون في مجموعها من الزيادة أو المساواة أو النقص عن العدد الاصلي. والعدد ستة هو أول عدد كامل وعلى هذا لا يجب علينا أن نقول ان العدد ستة كامل لان الله قد انتهى من كل أعماله في ستة أيام ، بل لان الله قد أنهى كل أعماله الخالقة في ستة أيام لان العدد ستة هو العدد الكامل ».

ولقد ظلت جنبات الكنيسة تتجاوب باصداء هذه الاقوال طول القرون الوسطى حتى لقد ردد صداها « النورمبرج كرونكل » بعد ان استكشفت أمريكا بعام كامل ؛ مصبوبة في القالب الآتي :

« ان خالق الاشياء قد نضح حقيقته بالعدد ستة ، الذي تسير أجزاؤه الثلاثة الاول ، واحد واثنين وثلاثة ، الى صورة مثلث ».

هنا أصبح الاعتقاد بأن الخلق قد حدث فجأة في حين أنه تم في ستة أيام ، كل منها نهار وليل ، اعتقاداً عاما شاملا ، حتى لقد أجازه « بطرس لومبارد » Peter Lombard و « هوغو السانفكتوري »

Hugo of St Victor وكلاهما جهبذ ذو وزن وصيت ، بل الرما العقل السكنسى أن يظل له خاضعاً عصوراً طوالا .

على أن الامر لم يقف عند هذا الحد . فان طرق هذا التأمل الذهني — من القول بأن كل شيء قد خلق من لا شيء ، والتوفيق بين الخلق الفجائي والخلق في ستة أيام — نما وتطور من طريق فئة أخرى من كبار المفكرين في القرون الوسطى . فان القديس « هيلاري بوانييه » - St Hilary of Poitier - قد وفق بين التصورين فقال :

« على الرغم مما هو واضح فيما جاء به موسى من الظواهر الدالة على اتباع نظام مطرد في تثبيت القبة الزرقاء ، وفي تمهيد الارض اليابسة ، وفي تجميع المياه بعضها مع بعض ، وفي تكوين الاجرام السماوية ، وفي قيام الكائنات الحية من الارض والماء ، فان خلق السماوات والارض وبقية العناصر قد رؤى أنه نتيجة عمل وقع في برهة واحدة » .

أما القديس « توماس اكويناس » - St Thomas Aquinas - فقد استخلص مما جاء به القديس «أوغسطين» تفصيلا دقيقاً فيه حذق وابانة ، ذلل خلال عصور طوال ، كثيراً من الصعاب التي كانت تعترض هذه القضية إذ قال بأن الله إنما خلق مادة الاشياء في لحظة واحدة ولكنه قضى ستة أيام في العمل الخلقي مفرقاً بين العناصر ، مصوراً للاشكال ، منمقاً في التفاصيل .

ولقد قبل متقدمو المصلحين هذا الرأي ونحوه ؛ وكان « لوثر » في مقدمتهم مثبتا أنه خير كفء لهذا العمل الكبير . فاعان بما عرف فيه من شجاعة واقدام ، أن موسى « قد تكلم في صراحة وجلاء ، ولم يلجأ

الى المجاز والاستعارة » وعلى هذا « يكون العالم وكل ما فيه من المخلوقات قد خلق في ستة أيام » ولكنه مضى بعد ذلك مظهراً كيف أن كل الموجودات بتأثير معجزة كبرى ، قد خلقت فجأة وفي لحظة واحدة .

وكذلك « ميلانكتون » - Melanchoton فانه صمم على القول بأن العالم قد خلق من لا شيء وبطريقة خفية في لحظة واحدة وفي ستة أيام معا ، معتمداً على النص القائل — « تكلم فخلقت » .

أما كالفن — Calvin — فقد رفض الاعتقاد بفكرة أن الخلق قد تم فجأة ، ومضى مبينا أنه وقع في ستة أيام . وبعد أن وجه الانظار الى أن التاريخ الانجيلي يظهر بجلاء أن عمر الدنيا لا يزيد عن ستة آلاف سنة ، وأنها قاربت الفناء قال : « إن العمل الخلقي استمر ستة أيام حتى لا تضنينا التأملات طول أعمارنا اذا ما أردنا أن نقف على حقيقته » (١)

ولقد أثبت « بطرس مارتر » Peter Martyr هذا الامر قائلا —

« إن معرفة مسألة الخلق أمر ذو خطر كبير ، حتى أن معتقد الكنيسة إنما يتخذه نقطة ابتداء وركيزة أولى . ولو أنه تعذر علينا اثبات هذه المسألة ، لما استطعنا أن نقرر وجود خطيئة أولى ، ولاصبح وعد المسيح بالخلاص لغواً باطلا ، وانحطمت بذلك كل القواعد الاساسية التي يقوم عليها ديننا » . أما زعماء الدين في وستمنستر فقد رفضوا لدى تحديدهم قانون الايمان Confession of Faith الخاص بهم ، فاعتبن

---

(١) كأنه يريد أن يقول إن الخلق في ستة أيام كان اصلح للانسان وحده حتى لا ينصرف العمر في التأمل في خلق الكون اذا كان الكون قد خلق في أزمان طوال تحتاج الى تفكير في الزمان والتاريخ والمفاصل .

بانه من الضرورى أن يعتقدوا بأن كل الاشياء المنظورة وغير المنظورة قد خلقت من لاشيء ، وفى ستة أيام سوياً .

ولم يكن رؤساء الدين من تابعى الكنيسة الرومانية بأقل عناداً من مصاحبى البروتستانت ازاء القول بضرورة الاعتقاد فى صحة قصة الخلق الموسوية كما يقولون . ولقد طاشت هذه الروح سائدة روع الناس ، حتى أن طائفة السوربون اللاهوتية قد أجبرت « بافون » في أواسط القرن الثامن عشر - وكان قد بدأ يقرر أوليات جيولوجية بسيطة ، أن يكتب وينشر فى الناس انكاراً مشيناً جاء فى نهايته : « انى أرجع عن كل شيء جاء فى كتابى خاصاً بتكوين الأرض ، وعلى وجه عام كل مايمكن أن يكون مناقضاً لقصة موسى »

وبعد أن فرغ اللاهوتيون من تقرير طريقة الخلق ، ومادته والزمان الذى استغرقه ، رجعوا الى الكلام فى تحديد التاريخ الذى وقع فيه الخلق .

* * *

ان سلسلة الجهود الطويلة التى بذلها رجال خصوا باوسع المدارك وأرجح الاحلام ، من « ابوسابوس » - Eusebius - الى يوشر Usher فى سبيل تحديد التاريخ الذى وقع فيه الخلق ، قد تركت الكلام فيها الى فصل آخر . ويكفى هنا أن نذكر أن النتيجة الأخيرة التى وصلت اليها الاغلبية العظمى ممن يعتبرون أقدر الذين أكبوا على درس الاقوال التى جاءت فى الكتاب المقدس ، قد أسلمت الى القول

بان الخلق قد وقع فى زمان تعد سنوه بعدد عشرى ، ويقع حوالى سنة ٤٠٠٠ ف . م . وفى القرن السابع عشر ذكر الدكتور « جون ليفوت » John Lightfoot وكيل جامعة كمبردج ومن أشهر من نبغ ممن درسوا العبرانيات ، أن نتيجة ابحاثه القصية المستفيضة فى التوراة والانجيل قد أدت به الى حقيقة أن « السماء والارض ، والمحيط والمركز ، قد خلقن معا ، وفى وقت واحد ، حيث كان الغمام الكثيف مملوءا بالماء ، وان هذا العمل قد وقع ، وأن الانسان قد خلق بقدرة الثالوث الاقدس ، فى ٢٣ اكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد ، حيث كانت الساعة التاسعة من الصباح »

وكان هذا انتصار لاسلوب « لاكتانتيوس » — Lactantius وهو نتيجة الدرس العميق فى الانجيل والتوراة مئات من السنين وغاية الجهد الفكرة اللاهوتية منذ أن ظهر « بيده » فى القرن الثامن ، الى زمان « فنسنت بوفيه » Vincent Beauvais حيث أعلن فى القرن الثالث عشر أن الخلق لا بد أن يكون قد وقع فى فصل الربيع. لكن والأسف ، فانه لم يمض قرنان على ما بذل الدكتور « ليتفوت » من جهد فى درس العبارات المنزلة ليستخلص منها حقائق يحدد بها ساعة الخلق وتاريخه ، حتى استكشف الباحثون انه فى تلك الساعة التى حددها هذا اللاهوتى . كانت أمة من أرقى الامم مدنية وأمثلهن تهذيبا ، راقلة فى أبهى حلة خلعتها الحضارات على الامم فى الازمان القديمة ، بل كانت منذ عهد عهيد ، تجوب انحاء العواصم المشيدة فى مصر على ضفاف النيل ، وان امما اخرى لا تكاد تقل عن هذه مدنية وعلما ، قد بلغن درجة خطيرة من النشوء والارتقاء تحت سماء آسيا .

ولكن الاغرب من كل هذا ، أنه بعد أن فرغ اللاهوتيون من طريقة الخلق والمادة التى اتخذت خميرة للعمل ، والزمان الذى استغرقه والتاريخ الذى وقع فيه ، بقى سؤال هو فى الواقع انكى وأعظم سؤال يقتضيه النظر فى هذا الامر . ولم يكن هذا السؤال بشىء سوى النظر فى « من فى الواقع خالق الكون » .

لقد ظل العقل الكنسى أزمانا طوالا غرضا لنظريات تختلف نسبة التشويش والابهام فيها بنسبة رجاحة العقول التى كونتها ، وقد اتفقت كلها على أن تتخذ متون التوراة والانجيل لها ركيزة ودعامة .

قال بعض اللاهوتيين ان الفعل الواقعى فى الخلق راجع الى الاقنوم الثالث من الثالوث المقدس ، حيث ذكر فى أول فصل الخلق التوراتية الرنانة « انه كان يرف على وجه الماء » (١) وقال آخرون بان الخالق الفعلى هو الاقنوم الثانى ، وقد استخلصوا من أسفار العهد الجديد نصوصاً كثيرة تؤيد فكرتهم . فى حين أن غيرهم عمدوا إلى القول بان عامل الخلق كان الاقنوم الأول ، وكان هذا الرأى مبنيا فى تينك القاعدتين الاصطلاحيتين المعروفتين فى قانون الايمان الخاص بالمذهب الرسولى والمذهب النيقاوى . ذلك المذهب الذى اثبت أن الخالق هو من عمل « الله الأب القادر على كل شىء ، مبدع السموات والارض » . وغير أولاء وهؤلاء فئة رأت أن هنالك

(١) « فى البدء خلق الله السموات والارض . وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه الماء » . الاصحاح الأول من سفر التكوين .

معنى عميقاً تتضمنه كلمات — « قال الله ليكن » — تلك التى وردت فى سفر التكوين منسوبة إلى الخالق ، فخضوا قانعين بان الثالوث الأقدس فى مجموعه هو السبب المباشر فى الخلق . ولجأ آخرون إلى مقولات غيبية غريبة ، فوصلوا الى فكرة أن أقنومين اثنين تساندا واندمجا حتى أتما العمل الخلقى الخطير .

وانك لترى أن كل هـذه المذاهب تنطوى على مقدار عظيم من الشجاعة والاقدام والجرأة اذا ما تذكرت بجانبها تلك اللعنات التى يصبها مذهب « اثناسيوس » المصرى Athanasius على أولئك الذين « يخالطون بين الأقانيم والذين يفصلون بين مادة الثالوث الأقدس » .

هذه الحالات التى تدرج فيها اللاهوت المدرسى قد ظهرت ممثلة فى الفن المقدس ، وعلى الاخص فى النقوش الكاتدرائية ونواوين الزجاج وزخارف الفسيفساء والصور التى تزين بها كتب القداس .

وعلى هذا نجد أن الذات الخالقة قد مثلت مرة فى الاقنوم الثالث (الروح القدس) فوضعت فى صورة حمامة ترف فوق الماء Chaos ومثلت اخرى فى الأقنوم الثانى (الابن) فكانت فى صورة يافع تام الفتوة . ومثلت مرة ثالثة فى الاقنوم الاول (الآب) فكانت شخصاً ترى فيه مخايل الابوة وصفات الاحترام . ومرة رابعة فى الاقنومين الاول والثانى (الآب والابن) فكانت فى صورة شخصين احدهما يافع والآخر كهل . ومرة خامسة فى الاقانيم الثلاثة (الآب والابن والروح القدس) فكانت فى صورة شخصين يافع وكهل ، يحمل كل منهما فوق رأسه التاج البابوى ، وكلاهما ممسك بين شفتيه بطرف القوادم من جناح

الحمامة ، حتى تظهر كأنها مستمدة منهما معاً وتظل معلقة في الفضاء الواقع بينهما .

على أن هذا لم يكن اكمل وجه من النشوء وصلت اليه الفكرة اللاهوتية في العصور الوسطى . فان الخالق كان يمثل في بعض الاحيان بصورة بشرية ذات بدن واحد وثلاثة وجوه . وفي هذا دليل قاطع على ان المعتقد النصراني قد تطور في عقول بعض الاتقياء متدرجا من نفس تلك الحالات التي تمشي فيها معتقد أهل الهند القديمة منذ أبعد العصور ، اذ كانوا يمثلون « الذات العليا » في صورة جسم بشري ذي ثلاثة وجوه ، احدهم لبراهما والاخر لفشنو والثالث لشيفا .

وفي بداءة الاعصر الحديثة اضطر العالم النصراني ، تحت تأثير انبغ نابغة في الفن اقاته الارض واظلته السماء . ان يلزم ظاهر ذلك الرأى محبوكة أطرافه على تلك الصورة التي مثلتها الفكرات العبرانية الاولى . ففي سنة ١٥١٢ ، دشن « ميكل انجيلو » Michel Angelo بعد اربع سنوات انفقها كدا ونصبا ، رسومه التي حلى بها قبة المعبد السستيني .

اما تلك الرسوم فقد صنعت بامر من البابا « يوليوس الثاني » . Julius II. وتحت عينه وباجازة منه لا انيء الا ليمثل بها حقيقة التصور الذي مضى سائدا على اللاهوت النصراني في ذلك العصر ولا تزال حتى اليوم قائمة بكامل بهائها وعظمتها عنوانا على ارقى قمة بلغت اليها الفكرة القديمة تلقاء اصل الكون المنظور

في منتصف السماوات العريضة ترى الآب ، اقدر القادرين ، والاقنوم الاول من الثالوث الآلهي ، في صورة بشرية تحيط بها العظمة

ويحفها الاحترام ، ومن حوله الملائكة يقومون بتنفيذ أوامره تحملهم الرياح الزعازع القوية مكتسحة سطح الهاوية العظمى ، متنقلا فى منازل صورت على جنبات تلك القبة العظيمة ، وهو يجد فى كل منزلة منها فى اتمام جزء من العمل الخافى الخطير . وبايماءة واحدة يفصل بين النور والظلام ، ويحمل الى العلاء القبة الزرقاء ، ويجمع من تحتها البحور المتلاطمة ، ويبرز الشمس والقمر والكواكب الى الوجود ، ثم يضعها حيث تدور من حول الأرض .

فى هذا العمل الفنى العظيم تركزت الفكرة التى ظلت اجزاؤها متناثرة خلال ألف من السنين . والمد مضت أرشد العقول قائمة بها أو على الاقل متظاهرة أنها بها قائمة ، وبعد مضى قرنين من الزمان على وجه التقريب ، قام « بوسويه » Bossuet ليلزم الناس المكوف على ظاهر هذا التصور ، مصبوبا فى قالب استمد من أولى الراويتين اللتين وردتا فى سفر التكوين ؛ وبذلك عادت اليه قوة جديدة من الحياة فظل ثابتا فى تضاعيف الكنيسة بقسميها ، كاثوليك وبروتستانت

والى هذه المحاكات تضاف محاكات أخرى بدأت فى الوجود خلال الازمان التى انتعشت فيها الكنيسة الاولى ، وظلت متنقلة فى منازل البقاء حتى زالت وفنت من عقول اللاهوتيين فى عصرنا هذا .(١)

ففى الرواية الاولى من روايتى سفر التكوين تجد أن الضوء قد خلق أولا ، وان الفصل بين النور والظلام قد تم فى اليوم الاول من أيام الخلق ، بينا تجد أن الشمس والقمر لم يخلقا الا فى اليوم الرابع . ومن

(١) أواخر القرن التاسع عشر .

حول هذه الروايات تكونت فكرات لاهونية عميقة وآراء لاعامية زائفة . فكرات وآراء تراكم بعضها من فوق بعض خلال الازمان متكاثفة حول تلك الحقيقة العظمى ؛ حقيقة أن المنون الاصلية ليست الا وحيا تاريخيا ينبت أنها مستخلصة من اقدم المعتقدات المروية عن القدماء ، حتى لقد حجبت تلك التصورات اللاهوتية هذه الحقيقة عن الانظار والعقول . فقد كان معتقد القدماء محصورا فى أن لكل من النور والظلام ذاتية مستقلة عن طبيعة الاجرام السماوية ، وأن الشمس والقمر والنجوم لم توجد لتزيد الضوء لا غير ، بل « لتفصل بين النهار والليل والابراج الفلكية والفصول والايام والسنين » ــ « ولتحكم الليل والنهار . »

ولقد نجد أن لهذا الاعتقاد وثبات في عقول آباء الكنيسة الاولى وعلى الاخص فى عقل القديس « امبروز » St Ambrose فانه يقول فى كتابه الذى خصصه للكلام فى مسألة الخلق :

« يجب علينا أن نعى أن نور النهار شىء ، وضوء الشمس والقمر والنجوم شىء آخر فان الشمس بأشعتها الذهبية لاتظهر الا لتزيد النهار ضياء ولمعانا . لاننا نرى أنه قبل شروق الشمس يتنفس النهار ، ولكنه لايكون فى كامل بهائه ، لان الشمس من شأنها أن تزيده نوراً وضياء » .

ولقد أصبحت هذه الاقوال « كنزاً من كنوز الفكرة المقدسة التى تقوم عليها معتقدات الكنيسة » فاعتنقها أهل القرون الوسطى ومضوا بها مؤمنين . على أن حفلات العشاء الربانى ــ Mysteries ــ والروايات التمثيلية التى ذاعت خلال العصور الوسطى لتزودنا بأمثال

غريبة تؤيد ذلك . ففي رواية تمثل طريقة خلق العالم عند ما أراد الله أن يفصل بين النور والظلام . يذكر في الارشادات التي يعطى لمدير المسرح في صلب الرواية — « هنا يجب أن يكشف للنظارة عن قماش — ستار — نصفه أسود ونصفه أبيض » وكذلك زود هذا التصور بعوامل جعلته أكثر استقراراً مع الزمان . وان زخارف الفسيفساء في كنيسة « القديس مرقص » — San Marc — في مدينة البندقية . والرسوم التي زين بها موضع العمادة . — Baptistry — في فلورنسا وفي كنيسة القديس « فرانسيس » — St Fra c s في « أسيزى » — Assisi — وفي نقوش المدبح في « ساليرنو » — Salerno — تعطينا جميعها أمثالا حية على هذا المعتقد . فترى الخالق قد وضع في السماوات قرصان أو شبحان حيان في حجم واحد ، فلون كل منهما بلون ملائم أو نقش بما يدل على أن أحدهما يمثل النهار والآخر يمثل الليل . ومما لا خفاء فيه أن هـذا التصور هو بلا ريبة تصور ذلك الشخص أو الاشخاص الذين جمعوا من الاساطير الكلدانية وغيرها أعرق منها قدماً تلك القصص التي بنيت عليها روايات الخلق التي ذكرت في السفر الاول من الاسفار المقدسة . والى عهد قريب جداً ، لا يكاد يغرب عن ذاكرة الاحياء ، كان المعتقد على وجه الاطلاق ، « دائماً وفي كل مكان وعند كل شخص » أن الكون كما نراه الآن قد خلق مباشرة من طريق صوت الواحد القهار ، أو بيده أو بكليهما ، من لاشيء . وفي لحظة واحدة أو خلال ستة أيام أو فيهما معاً . وأن ذلك وقع في سنة ٤٠٠٠ قبل بدء التاريخ الميلادي ، وأن هـذا الخلق لم يحصل إلا ليتمتع به سكان الارض التي هي القاعدة والاساس

الذى قام عليه كل الهيكل الكونى .

غير أنه منذ أزمان بعيدة فرخت فى ثنايا العقل الانسانى جراثيم لفكرات أخرى قد يرجع بعضها إلى زمان أبعد من ذلك الزمان الذى اينعت فيه المدنية البابلية . فقد نجد فى النقوس الاشورية آثارا تدل على تلك الفكرة الكلدانية البابلية التى تشير إلى « نشوء » الكون فى جوف « الغور الابعد » أو « الفيضان الاول » وإلى خلق الحيوانات فى البر والبحر . وهذه الفكرة ترجع بنا سعيا ، ولو بشكل جزئى ، إلى الصورة الوحيدية فى الدين ، تلك التى انفلتت بطريق التقاح إلى الكتب المقدسة التى اختص بها العبرانيون ، جيران الكلدانيين وتلاميذهم . غير أن نشوء هذه الفكرات فى العالم النصرانى فيما بعد ، قد اعاقت خطاه ، كما سنرى ، روايات وأقوال أعظم تأثيراً وابلغ خطراً ، ورثت من نواح آخر ، وكانت أكثر ملاءمة لما انطوى عليه العقل الكنسى فى بدء نشوء الدين المسيحى .

ومما يدعوا إلى النظر والتأمل تأثير تلك الفكرة التى عادت إلى الحياة فى عقول الفلاسفة الايونيين — Ionian Philosopheers — وقد يرجح أن تكون قد نقلت اليهم عن الكلدانيين من طريق الفنيقيين . ففى عقول رجال من الفلاسفة ايونيا أمثال انكسمندر — Anaximander — وأناكسيمنيس — Anaximenes — قد نمت هذه الفكرة نماءا عظيما . فان الاول منهما قد رأى أن الكون نتيجة لاساليب من النشوء ، فى حين أن الثانى قد مضى متبعاً خطوات سلفه عاملا على أن يخطو بهذا الاسلوب التفكيرى خطوات أخرى ، معتمداً فى

فكراته على مؤثرات من النشوء الكونى أيدها العلم الحديث.

هذه الفكرة العامة التى تثبت أن الطبيعة إنما تتبع فى أساليبها طريق النشوء لا طريق الطفرة، قد استمرت ثابتة فى الفكر اليونانى وتشعبت فى طرائق كثيرة، منها الزائف ومنها الصحيح. على أنه من المحقق أن أفلاطون قد قاوم هذه الفكرة. غير أن أرسطوطاليس قد أقام من نواحيها وشيد من تقائضها متبعاً أساليب كثيراً ما تذكرنا، إذا ما وقعنا عليها، بوجهات من النظر أقرها العلم فى العصور الأخيرة.

أما فى العصر الرومانى فإن «لوكريشيوس» — Lucretius — قد عرف كثيراً من حقائقها؛ حتى لقد طبق الأسلوب النشوئى على كل الموجودات.

ولقد رأينا من قبل كيف أن الفكرة فى الخلق المادى المباشر وعلى الأساليب التى يتبعها الإنسان فى أعماله العادية، قد تملكت عقول رجال الكنيسة الأولى حتى اكتسحت منها كل التصورات التى قامت على فكرة النشوء. ومن تلك الآراء الأولية التى ذاعت فى الخلق منبثة فى تضاعيف الأساطير البابلية ومن ثم اندمجت فى تضاعيف سفر التكوين، استمدت الفكرات الأوربية ذوكسية بقاءها هذا الموضوع الخطير، وأخذت تنمو حتى أصبحت قبضاً عرماً طال ينساب تياره الجارف طوال القرون الوسطى إلى الأعصر الحديثة. غير أن أمواج ذلك التيار الجارف المتلاطمة كثيراً ما كانت تتكسر بين آن وآخر على صخور صلدة من الأفكار الحرة اعتنقها رجال خصوا بقدر عظيم من البأس وشدة المراس. فإن «سكوطس ارغينا» — Scotus Erigena —

و « ذنزسقوطس » ـ Duns Scotus ـ بين فلاسفة العهد المدرسى ، على ما حف بهما من أسباب الحيرة والارتباك قد استنارا بشىء من تلك الخيوط المشعة التى كانت تنبعث من بين طيات الماضى البعيد ، فنقلا للخلائف من بعدهما مذاهب فى الأسلوب النشوئى فى خلق الكون ، محورة تحويراً ما

فى النصف الاخير من القرن السادس عشر اخذت هذه النظريات النشوئية تتحيز على صورة أدق وبشكل اظهر فى عقل النابغة الكبير « جيوردانو برونو » Jiordano Bruno اول واضع للفكرة الاساسية التى قامت عليها النظرية التى تسمى فى الاعصر الحديثة بالرأى السديمى Nebular Hypothesis غير أن استشهاده بحكم محكمة التفتيش فى روما كان سببا فى أن تختفى هذه النظرية وتزول تماما ، كما لو كانت قد احرقتها النيران المتاظية التى التهمت جثمانه سنة ١٦٠٠ على « الكامبو دى فيورى »

غير انه لم يمض قرنان على استشهاد « برونو » حتى خطا الناس الى عالم من الفكر كان من المحتوم أن تفرخ فيه فى جوه جرائيم نظرية نشوئية فى أصل الكون المنظور سريعاً وبلا مهل . فقد تتابع فى الظهور خمسة من رواد الفكر الانسانى الذين لم تجد بامثالهم بطون الامهات الواحد تلو الآخر ، فكانت سلسلة من العظمة والخلود ممثل حلقاتها الخمس كوبرنيكوس وكبلر وغاليليو وديكرت ونيوتن ، فلم يصلوا الى نهاية عملهم العظيم حتى فنى التصور اللاهوتى فى حقيقة الكون وزال من عالم المعرفة العامة . « فالقبة الزرقاء الفسيحة الرحاب » ـ « والدوائر

البابورية » والواحد القهار متوجا « على دائرة السماوات » واستخدامه بديه أو الملائكة في حفظ الشمس والقمر والسيارات في دورتها المرسومة لخير الارض وسكانها ، وفتح « نوافذ السماء » وغلقها ، لتنصب على الأرض « المياه المعلقة فوق القبة الزرقاء » و « تعليق قوسه على صفحة السحاب » (١) واظهار « الاشارات والعجائب » وارسال المذنبات ، « وانقضاض الصواعق » انتقاما من الاشقياء ، « وهز الارض » هزة العنف من الغضب . كل هذه اشياء قضى عليها هؤلاء الرواد قضاء لا قيام لها بعده .

لقد زود هؤلاء الخمسة العظماء العالم بوحي فدسي جديد . أما نيوتن فقد أبدع تصورا نبيلا قدر له أن يكون سهما مسددا يصوب الى صوام النظرية القديمة في حقيقة الخلق . بأن أثبت أن نواحي الكون يحكمها قانون شامل ثابت القواعد ، بدلا عن هوامر إرادة واحدة تمثل في ذات كاملة القدرة . أما اضطهاد عالم اللاهوت للاربعة الاول من حاملي هذه السلسلة فأمر معروف ذائعة حقائقه . ولكن حقيقة أن « نيوتن » قد اضطهد وعومل بالعدوان ، على الرغم من الروح الدينية الحساسة التي كانت تملأ جوانحه . حقيقة قلما ماعرفت . وبكثير من الشدة والصرامة في القول وجه اليه من الانتقادات إزاء أفكاره التي بشر بها في حقيقة قانون الجاذبية بدعوى « أنه انتزع من الله التأثير المباشر في خلقه وعمله الكوني . ذلك التأثير الذي تنسبه اليه الكتب

(١) اشارة الى قوس قزح

المقدسه ، وبدله بقوة مادية ميكانيكية » وأنه « أبدل العناية الآلهية بالجاذبية » على أنه فضلا عن العمل المباشر الذى قام به هؤلاء الرجال فانهم مهدوا السبيل ، ووضعوا القواعد ، الى قامت عليها نظرية النشوء ناقضة لنظرية الخلق .

ومما لا يجب أن نغفل عن ذكره أن « رينيه ديكارت » Descartes على الرغم مما أحاط بكثير من استنتاجاته من الاغلاط ، وعلى الرغم مما كان فى زمانه من تأخر الفوسيقى وضعف المعرفة بكثير من مبادئها ، قد أثر عمله العظيم الذى قام به أثراً كبيراً فى أضعاف التصور القديم . فان نظريته فى التكوين على اعتبار أنه نتاج تفاعل مادة شاملة نواحيه ، تضبطها فى نظام محبوك الاطراف حركات خاضعة لنواميس طبيعية ، ولو لم تكن سوى فرضاً نظرياً صرفا ، قد أثرت فى العقول تأثيراً حرفها عن التصور اللاهوتى القديم فى خلق العالم . لقد كانت نظرية « ديكارت » مثالا من الكد الذهنى اذ يوصل الى خطأ لا إلى صواب . ولكنه فى الوقت ذاته مهد الطريق لظهور الحق الخالد . وعلى الرغم من أن « ديكارت » كان فى ذلك الزمان مصيداً بخاوفه من الكنيسة مناول اليد بتهديداتها ، فان ذلك الجزء من مؤلفاته ، وهو الذى تناول فيه تكوين العالم ، لم يكن ضعيف الاثر فى توجيه العقل الانسانى فى ذلك المتجه الذى أدى الى تقبل فكرات فاض بها على العالم مفكرون أقل منه خوفا وأصلب عوداً

بعد هذا العهد بثلاثين عاما ظهر فى انجلترا جهد جديد ، إذ احتلف ... « ديكارت » ... فانه ... النتائج . ففى سنة

١٦٧٧ نشر « رالف كادورث » «Ralph Cudworth» كتابه « نظام الكون عقلى » ولا ريبة فى أن هذا الباحث يعتبر الى الآن من حيث سعة عقل والاستغراق فى الدرس وقوة التفكير والتسامح والامانة ، من أكبر مفاخر الكنيسة الانجليزية . وكان كتابه جديرا بأن يصدر عن مجموع هذه الصفات معا . وكان غرضه من هذا الكتاب أن يبنى قلعة تحتمى وراءها النصرانية من غوائل كل النظريات الخطرة المهدمة التى ذاعت لعهده فى أصل الكون قديما وحديثا . أما الاساس الذى قامت عليه هذه القلعة الحصينة فقد بنى من فكرات قديمة صبت فى صور حديثة اخاذة بالالباب . غير أن البناء العاوى كان كلما أخذ فى الظهور للانظار شيئاً فشيئاً ، ظهرت فيه خلايا كانت لا بد من أن تثير فى نفوس الناظرين فى بحار الاورثوذوكسية هواجس واريابا ، ولو أن النبوغ والعبقرية قد تركا آثارهما الخالدة فى كل جزء من أجزاء ذلك البناء المسخر . فلقد رفض تلك النظريات القديمة التى كانت توحى الى الناس بفكرة أن الله الواحد القهار قد صنع الكون بجهد ذاته وشخصه ، وعدى فيما بنظريته النواميس الطبيعية وأثرها ، وأنحى على القول بتواتر وقوع المعجزات وتدخلها فى شؤون هذا العالم ، وأشار الى حقيقة أن فى طبيعة الخلق « أغلاطا » و « مخارق » ، وذلك بأوفى ما فيه من قوة على حقيقة أن الاصل فى تكوين العالم وحفظه على هذا النظام ، يرجع إلى أساليب فى النشوء المدرجى ، وان هذا الاسلوب يخضع لنواميس ثابتة مبثوثة فى تضاعيف الطبيعة .

فى أواخر القرن التالى ظهر فى أفق البحث نابغة متفوق هو

« عمانوئيل كانت » ، وكان من بوا كيره أن عكف على الرأى السديمي يقوى من دعائمه معتمداً على ما كشف نيوتن من نواميس الطبيعة وما وضع من نظريات ، فايد ذلك الرأى بما نبته وجعله أشد استقراراً عن ذى قبل ، وفى الوقت نفسه ظهر « لابلاس » فعضد ذلك الرأى بمبادىء رياضية بلغت أقصى حدود القوة والتأثير ، حتى لقد غرس فى الفكر الحديث فكرة أن نظامنا الشمسي وغيره - بما فيها من الشموس والسيارات والاقمار وحركاتها المختلفة وأبعادها وأقدارها - تانتج بالضرورة من خضوع الكتل السديمية لقوانين طبيعية ثابتة .

هنا عات الصيحة من جانب اللاهوتيين فى وجه « الالحاد » واعانت الحرب صراخا واندلعت السنتها النيرانية . غير أن العلامة « هرشل » قد كشف مع غيره من الفلكيين عن كثير من البقع السديمية التى تدل ظواهرها على انها من طبيعة غازية . بل اظهروا بكثير من البراهين الطبيعية والرياضية أن النظرية السديمية لعالم فسما عظيما من الحقائق الكونية ، وكانوا على الرغم من الضجيج والارعاد يدالون كل يوم عقبة ويجنون كل يوم ثمرة . حتى إذا ما بلغ التلسكوب من حسن التركيب مبلغا جعله أكثر رقيا ، واضبط كشفاً ، حققوا أن تلك البقع المكونة من المادة السديمية ماهى إلا عديد وافر من النجيمات المتقاربة الابعاد . على أن مناهضى الرأى السديمى لم يلبثوا إلا قليلا حتى أخذوا بهزات الفرح والسرور وجهروا بها ، بل بدءوا يرتلون اناشيد الابتهاج لعلم الفلك ، لانه ، كما كانوا يقولون ، قد اثبت حقائق الكتب المقدسة بالبراهين القاطعة ، وسرعان ماوصلوا الى نتيجة هي

عند قولهم بأن كل السدم لابد من أن تكون متماثلة . وانه اذا كان بعض السدم مكوناً لدى الحقيقة من كوكبات من النجيمات ، فان كل السدم لابد من أن تكون كذلك ، ولا يمكن أن يكون بعضها عبارة عن ركام من المادة الغازية ، لان بعضها ليس من هذه الطبيعة .

هنا وقفت خطأ العلماء قليلا ، فان المذهب الذي ساد اذ ذاك كان يتلخص في القول بأن السبب في أن كل السدم لا تظهر في صورة نجيمات منفصل بعضها عن بعض ، انما يرجع الى أن قوة التلسكوب لم تكن كافية للكشف عن حقيقتها . على أن الزمان كفيل باظهار الحق . فان الحق ردفي نصابه بعد اكتشاف الاسبكتروسكوب وطريقة الحل الطيفي ثم باكتشاف «فرونهوفر» — Fraunhofer اذ عرف ان الحل الطيفي لجسم غازي في حالة الاشتعال يكون غير متواصل بل تقاطعه خطوط تعترض تواصله . وباكتشاف «درابر» — Draper اذ ظهر له ان الحل الطيفي لجسم صلب في حالة الاشتعال يكون متواصلا بلا خطوط تقاطعه . وما وجه الاسبكتروسكوب الى السدم حتى عرف ان كثيرا منها غازي التركيب . ومن هنا ثبت تلك النظرية القائلة بأن هذه الكتل السديمية ليست سوى درجات متفاوتة من التكاثف — إذ يكون بعضها عبارة عن بقعة من الضباب وبعضها ذات مراكز مضيئة — نستنتج منها أن خطأ النشوء الكوني لا تزال دائبة العمل جارية التأثير ، وان مشاهدات مثل تلك التي وقع عليها لورد روس — Lord Rosse — وارست Arrest من شأنها أن تزيدنا اعتقادا بصحة هذه النظرية.

ومن بعد كل هذا حبانا العلم بأعظم ميراث خلفه العلماء للقرن التاسع

عشر فى الفوسيقى ، ذلك الميراث الذى ساعد على تعليل كثير من معضلات النظام الكونى ، بنظريه ان الحرارة انما هى اثر ميكانيكى صرف

ولم يزد الرأى السديمى بالبحث العلمى الا قوة على قوته . ففى سنة ١٨٥٠ أجرى « بلاتو » — Plateau — تجربة فى دوران الكرات المائعة فكانت برهانا ان لم يثبت حقيقة الرأى السديمى بالاختبار ، فلا اقل من أنه مثله فى الواقع الملموس تمثيلا صحيحا ؛ حتى ان رجلا من اكبر مناصرى المذهب الاوثوذوكسى كمستر «غلادستون» قد اعترف بعد لأى بان وجها ما من أوجه الرأى السديمى لا يبعد أن يكون صحيحا

هنا ظهرت بوادر تلك الحالة التى تسلم فيها الأفكار اللاهوتية سلاحها لقوة العلم تحت عنوان ان العلم انما يؤيد من مذاهب اللاهوت. وتلك صورة فى التراجع كثيرا ما رأينا من أمثالها فى كثير من الميادين التى تناحر فيها العلم واللاهوت . ولا غضاضة فى أن نأتى على مثال ؛ ان كان محمود المرامى قاصر الغايات ، الا أنه من افضل الامثال التى توقفنا على تلك الطرق الغريبة التى كان ينحو بها اللاهوتيون ليصلوا الى مثل هذه الهزائم ماثمين. فمنذ سنوات قليلة (١) القى استاذ من اشهر أساتيذ الكيمياء فى مدينة نيويورك باجابة لطلب رؤوس كنيسة من كنائسها الحديثة ، محاضرة أذيع فى الجرائد وفى الاعلانات الكبيرة التى غطيت بها جدران المدينة ، أن الغرض منها اظهار أن العلم يؤيد نظرية الخلق التى ترويها الكتب المقدسة المنسوبة الى موسى . فاجتمع عدد عظيم من السامعين وبدأ المحاضر فى اجراء عدة تجاريب فذة كان من أدواتها الاوكسجين والهيدروجين

(١) خلال العقد الاخير من القرن التاسع عشر

والحامض الكربونيك على الطريقة التي اتبعها « بلاتو » . والحق أن تلك التجارب قد ايدتها المهارة ، ولم ينقصها الحبك العامي ـ وما ظهرت الكرة الزيتية الملونة التي تمثل الارض في بيئة شفافة متعادلة الكثافة من كل جهاتها ، ثم تسطحت لدى القطبين وانبعجت من الوسط فخرجت من حولها المناطق التي تشابه مناطق زحل ، ثم تكسرت متطايرة ودارت حولها ، ثم تكونت هذه بعد ذلك اقمارا بان تمزقت مرة ثانية . فظلت برهة تدور حول الكتلة المادية الاصلية ، عج المستمعون بصياح الفرح وراحوا يصفقون باشد ما أوتوا من قوة . فقام رجل من أغنياء المدينة وعبر عن شكر الجوع التي كانت تستمع للمحاضر على ما اظهر « لهم من صورة تنطبق كل الانطباق تفصيلا واجمالا على العبارات التي وردت من السفر المقدس وعلى نتائج العلم الاخيرة » . وما زال ضجيج السامعين يشق الاجواء وتصفيقهم يصم الاذان ، حتى انصرف الجمع شاعراً بأن هذه الكنيسة قد خدمت الأورثوذوكسية امتع الخدمات وأتقاها

وما تظاهرنا عليه هذه الحادثة في هذا الميدان على ضيق مجاله ، قد تكرر مرات عديدة في مواطن أخرى حيث برز على مسرحها ممثلون أسمى قدرة وأبعد جولة . فان عشرات من اللاهوتيين ، ولا نذكر من مشهوريهم كمثال يحتذى في الفطنة والحماسة ان لم يكن في العلم ، الا مستر غلادستون ، قد بذلوا جهدا كبيرا في سبيل « التوفيق » بين روايتي سفر التكوين بعضهما وبعض ، ومن ثم بينهما وبين الحقائق التي استكشفت في أصل الكون من طريق علم الفلك

والجيولوجيا والفوسيقى والكيمياء. وقد ذكر لاهوتى من المشهورين : وهو استاذ اللاهوت فى جامعة كمبردج، نتيجة ذلك الجهد العظيم ، فقال أنه «ما من محاولة قصد بها التوفيق بين سفر التكوين وبين الحاجات التى تتطلبها العلوم الحديثة قد عرف أنها نجحت من غير أن تلجأ الى قدر عظيم من الضراعة والتوسل او التأويل الاجبارى. تلك الاشياء التى تلزمنا بديهة العقل أن نبتعد عنها جهد البعد فى مثل هذه المشكلات» .

على أن ما أوحت به مستكشفات طائفة أخرى من العلوم التى كانت تعارض اللاهوتيين حينا ، وحينا ترضى نزعة التأويل التى نزعوا اليها ، قد مهدت السبيل لبلوغ حالة اطمأن اليها الذين شغلتهم هذه المشكلة . فجاء فى أول الامر نقاد أنجيليون ــ وهم لدى الواقع باحثون مسيحيون عمدوا الى خدمة الحق وأحبوا الوصول اليه ــ وبرهنوا بما لا يحف به ريب ولا يعتوره شك ، على وجود روايتين مستقلتين للخلق على الاقل فى سفر التكوين ، وأن هاتين الروايتين قد يمكن أن يعمد الى التوفيق بينهما من طريق القسر والاجبار ، ولكنهما ، فى مفصلاتهما ، متناقضتين تناقضاً صريحا . ولقد أظهر هؤلاء الباحثون الامناء فضلا عن ذلك أن تينك الروايتين ليستا نتاجا لمخاطرات القساوسة ولا لمماحكات الرهبان ومكرهم ، بل هما لدى الواقع المشاهد أجزاء متناثرة من أساطير وخرافات ومذاهب لاهوتية قديمة العهد ، خوطب بها اليقين المصفى من أكدار الشك واللاأدرية فقبلها، وانها لم تجمع بين دفتى معتقدما الا لتخدم اسمى الاغراض التى رمى اليها أولئك الذين أكبوا ابتداءة ذى بدء على وضع تلك الصورة التى صبت

فى قالبها كتبنا المقدسة

وعقب على هؤلاء اللاهوتيين علماء الارخيولوجيا والباحثون فى العاديات القديمة من أمثال رولنسون وجورج سميث وساس وأوبرت وجنسن Jensen وشارد وديلتش ، وفئات من أمثالهم المنقطعين للدرس والبحث فحلوا رموز الكثير من النقوش التى عثر عليها فى مكتبة أشوربانيبال فى مدينة Nineveh وهنالك وقعوا على رواية أو قصة فى أصل الكون تطابق فى أهم متصلاتها وأدق صورها تلك الاقاصيص الاخيرة نصوصها فى سفر التكوين.

لقد كان فى هؤلاء الافذاذ من السعة ماجعلهم ينظرون الى هذه الحقائق وأن يصلوها بحقيقة أن تلك الاساطير والخرافات والنظريات التى ذاعت فى بلاد الكلدان وبابل ، هى لدى الواقع أقدم بكثير من تلك التى نقع عليها فى أسفار العبرانيين ، على الرغم من أنها تشابهها ، وعلى الرغم من أننا نعثر عليها متناثرة خلال كتبنا المقدسة . ولقد أظهروا فضلا عن ذلك أنه من الطبيعى أن تكون الروايات اليهودية التى قصت فى حقيقة الخلق قد استمدت منها خلال أزمان بعيدة ، وذلك عندما نشأ أول انصار اليهودية بين الكلدانيين ، بل أبانوا كيف أن قصص الخلق اليهودية التى مسها روح الشعر قد اشتقت من التقاليد المقدسة التى ذاعت بين هذه الشعوب ، أو من منابع سابقة تراها شائعة بين كثير من الامم القديمة على اختلاف أصولها .

ولقد ألم المحترم دكتور « درايفر Dr Driver » استاذ العبرانيات ورئيس كنيسة كرست فى اكسفورد ، فى ماتخص فيه من عمق

الفكرة والشجاعة والترابط ماهو جدير بان يشرف اسمه كما يشرف المركز الذى كان تشغله ، بهذه الحالات الماماً فائض الجوانب . فبعد أن ذكر أن العبرانيين كانوا شعباً من كثير من الشعوب التى فكرت فى حقيقة الكون وأصله ، قال ـ « بأنهم نسجوا من الخيال روايات وقصصاً حاولوا أن يعللوا بها أصل الارض والانسان » . وأنهم ـ « كانوا يضعون تلك الروايات وضعاً من عند أنفسهم حيناً ، ولجؤا الى أخذها عن جيرانهم حيناً آخر » . وأن ـ « نتفا من النظريات التى ذاعت بين الاشوريين والفينيقيين قد احتفظ بها اليهود ، وان فى هذه النتف من المشابهة لما جاء فى القصص الانجيلية ، مايؤيد لنا زعم الزاعمين بان كلتيهما مدينتان بالاشتقاق الى أصل تقليدى واحد » .

وبعد أن أتى على مقطوعات كلدانية فى أصل الخلق قال ـ « اذا استنرنا بنور هذه الحقائق صعب علينا أن نتعامى عن النتيجة التى تترتب عليها والتى توحى الينا بان القصة الانجيلية قد استمدت من نفس النبع الذى استمد منه غيرها من القصص . ومن الجلى أن المؤرخين الانجيليين قد أخذوا المواد التى اعتمدوا عليها من أخص التخيلات الانسانية التى ذاعت فى عهدهم . فالمواد الأولية التى تجمعت فى عقليات أمم أخرى فاخرجت أشد النظريات الكونية ضرباً من الغرارة وأمعاناً فى البساطة ، أو اقترنت بصورة من صور التكثير ، قد أعاد اليها الحياة ، وحور فيها ، نبوغ العقل اليهودى وعبقريته ، التى اختص بها مؤرخوه الاولون ، فاستطاعوا أن يخلقوا من تلك الاشياء بيئة أنبتت فيها دوحة من الحقائق الدينية نبتت أصولها ، وذهبت فروعها فى السماء .

ولقد أتى دكتور « ريل » — Dr Ryle — أستاذ الآلهيات فى جامعة كمبردج ، على حقائق تزجى الى هـذه الجامعة والى مؤلفيها من الشرف ما ازجت من قبل كتابات « درابفر » لجامعة اكسفورد . فقال بأننا اذا قلنا بأن المسيحى « إما أن يلقى ثقته فى منهجات البحث العلمى ، وإما أن ينبذ معتقده فى الاسفار المقدسة » كان هـذا اقرب الاشياء الى العسف والابتعاد عن روح الحرية التى يسوق اليها المعتقد النصرانى » . ثم قال : « إن الموقف الذى كان يقفه قدماء اللاهوتيين لم يصبح الوقوف فيه اليوم مستطاعا . وإن موقفا آخر لابد من أن نلجأ اليه فى العصر الحاضر ، بل يجب أن نضرع إلى الله لكى يلهمنا ماهو ، وأن نستمسك به مملوئين أملا . » ومن ثم بدأ يقارن بين قصة الخلق العبرانية وبين أقاصيص أعرق منها قدما كانت قدذاعت بين شعوب تمت اليها بصلات الدم ، وعلى الأخص بالتكوينيات الاشورية البابلية التى وجدت من قبلها ، وأظهر فى النهاية أن جماع هذه الروايات مشتقة من أصل واحد . بل أنه لم يقف عند هذا الحد من البحث ، بل قضى بأن كل محاولة يراد بها تأويل نواح خاصة من تلك الاقاصيص لتصبح من طريق التأويل فى ألفة مع الآراء العلمية الحديثة ، تفضى حتما بالالجوء إلى تفسيرات لاعلمية زائفة . وقال بأننا اذا أردنا أن نحتمى وراء تفسير علمى — « وجب علينا أن نعتبر الوصف العبرانى للتكوين المنظور وصفا غير علمى إذا حكم فيه من ناحية المثل الحديثة فى العلم ، وأنه هو يناظر تماما حدود المعرفة المعاصرة خلال ذلك العصر الذى كتب فيه » . ولما وصل إلى الكلام فى رواية سفر التكوين فى أصل الانسان الطبيعى قال

إنها «تفسير فى عبارات بسيطة لخرافات ذاعت قبل زمان التاريخ، وما هى لدى الواقع إلا أوصاف تصويرية بعيدة عن روح العلم».

من هذه الاقوال وكثير غيرها مما فاه به باحثون مسيحيون فى ممالك أخرى، يمكننا أن نستنتج إلى أى مدى ذهب إنتصار العلماء على رجال اللاهوت القديم.

ولقد كان للابحاث التى تناولت الآثار الاشورية، وغيرها من المنابع الاخرى: اثر احمل أوسع العلماء الذين درسوا فى المعاهد النصرانية علماً وأعمهم شهرة على التسليم بان أقاصيص الخلق التى ظل اللاهوتيون يعملون أزيد من الفى سنة على التوفيق بينها وبين الاستكشافات العلمية، تلك الاقاصيص التى سدت الطريق فى وجه كوبرنيكوس وغاليليو ونيوتن ولابلاس، قد نقلت نقلا أو نشأت محورة عن مجموعة تلك الاساطير والخرافات التى انتحلها العبرانيون من طريق علاقاتهم القديمة ببلاد الكلدان، ومن ثم صبت فى قالب توحيدى، وأدمجت بعضها فى بعض إدماجا غير تام التآلف، ثم صيغت فى تلك القوالب الشعرية التى نقع عليها فى الكتب المقدسة التى ورثناها عن اسلافنا الاولين.

هنا نجد أن العلماء قد انقسموا قسمين. الاول يتكون من تلك الطوائف التى وقفت نفسها متوافرة على درس العلوم الطبيعية وعملت متضافرة فى سبيل تلك الحقيقة العظمى، حقيقة أن الكون، على الصورة التى نراه عليها الآن، ليس إلا نتيجة لاسلوب من النشوء، أى أثراً لفعل النواميس الطبيعية التدرجى فى الحالات التى اخضعت بها كتلة من المادة الاولية. والثانى يتكون من طوائف خطيرة من

العلماء أكبوا على العلوم التاريخية واللغوية والارخيولوجية استخلصوا منها براهين تثبت بالواقع المحسوس أن كل الاقاصيص المقدسة التي رويت في أصل الكون كانت نتيجة تحول تحريفي استمد من غوغائي الآراء القديمة الساذجة التي ذاعت خلال العصور الاولى .

أما جميع اللاهوتيين الذين قاوموا نتائج العلم عصورا طوالا فقد ادعوا بأنهم إنما جاهدوا وصارعوا في سبيل أن ينصروا « حقائق الكتب المقدسة » . حتى لقد كانوا جوابهم الاخير الذي أجابوا به على ما أظاهر العلم من نتائج أولية بسيطة في حقيقة نشوء الكون المادي قد انطوى على قولهم — « ان الانجيل حق وصدق » . وإنهم لصادقون ولو أن صدقهم هذا لدى الواقع أنبل وأقوم مما خيل اليهم أنه صدق حقا . فان العلم في حالته التي هزم بها اللاهوتيين ، قد وقع في كتبنا المقدسة على حقيقة أنبل وأروع ، بل أعظم وأمتع ، من لزوم الظواهر التاريخية والمسيرات الحرفية التي عكف عليها اللاهوتيون وجاهدوا في سبيلها طويلا . وكلما تقدمنا في بحث النتائج التي ترتبت على الصراع الذي وقع في هذا الميدان ، زدنا يقينا بصحة تلك النتيجة التي تأتي في روعنادا ما بأن الديمومة الحقيقية في كتبنا المقدسة ، تلك الصفة التي لا يمكن أن نسند بصدورها عمال أو نزنها خيال ، إنما تنحصر في أنها عرفتنا الطريق التي يجب أن يجاهد فيها النوع الانساني ليصل إلى تصورات ومعتقدات وان يكتسب آمالا أرقى مما بين يديه وأهدى ، سواء أفي الآداب أم الدين . فاذا حللنا طبيعة تلك الجهود واستعرضنا صورها على تتالي الاجيال والعصور ، بان لنا ما في كل كتاب من الكتب المقدسة من القيمة ، واتضح

لنا أنه عين غال ، وأن كلا منها حق وصدق على اعتبار ما . على أن الحقيقة التي لا يجب أن نغفل عنها هي أنه ليس واحد من هذه الكتب فيه ما يتفق وتلك الاوليات الصحيحة التي وصل اليها النوع الانسانى في العلم والتاريخ . كما أنه من أكبر العبث أن نحاول أن تصل الى التوفيق بين الطرفين . فان أول ما في أمثال هذه المحاولة من حمق ، نعرض من ينزع اليها ، ونعرض الكتب المقدسة التي يفرغ هذا الجهد في سبيلها ، الى أخطار هوجاء ، أقلها أن يزول أثرها المنشود من صدور الناس

أما ما رمت اليه الكتب المقدسة التي ظهرت في هذا العالم ، وكتبنا على الأخص ، فهو السير بأرقى التصورات والمعتقدات والآمال التي اختص بها النوع الانسانى في طريق تدرجى من النشوء ينتزعها من غرارتها الاولى وطفولتها خلال تلك المزالق الكبرى والانقلابات الخطيرة التي تقع عليها في تاريخ الانسان . وعلى الرغم من أننا نعتقد بأنها في غالب أمرها ذات قيمة كبرى على اعتبار أنها مدونات كبرى لحقائق التاريخ المعروفة ، وعلى الرغم من أن الابحاث الحديثة قد أزادت لدينا من قيمتها على هذا الاعتبار . فاننا انما نذهب في تقديسها خطوة أخرى اذا عرفنا بأن قيمتها العظمى لا تنحصر في أنها مدونات تاريخية وتقى لا غير ، بل مرآة تنعكس عليها صور النشوء والتطور التي أصابت قلب الانسان وعقله وروحه . إننا نعتبر أنها حق وصدق لانها نشأت على مقتضى القوانين التي احتكمت في تطور الحق في تاريخ الانسان ، ولأنها

كيفما ظهرت وعلى أية صورة برزت ، فكانت شعرا أو ذكرا للحوادث التاريخية أو تقنينا أو تشريعا أو أساطير أو خرافات أو مصورا للأمثال أو قصصا ، فقد أبانت لنا عن أنبل ما صادفت الانسانية من صور النشوء خلال الأزمان . فاذا ادعى انسان بأنها غير صحيحة كان مثله كمثل من يدعي أن وجود زهرة أو شجرة أو سيار من السيارات أمر غير حقيقي . وانك اذا استهزأت بهم فانك انما تستهزئ لا بالواقع بل بناموس الكون المعظم . فان استحالة صور جميلة من تصورات الرجال الذين وقعوا تحت تأثيرات موحيات عرفوها في القدم ، سواء أكانوا في مصر أو الكلدان أو الهند أو فارس ، على الصورة التي نراها في سفر التكوين أو المزامير أو سفر أيوب أو غير ذلك ، لعمل جاء به جامعو الكتب المقدسة الحديثة الانسانية أكبر خدمة ، اذ زودوها بكنز يزداد قيمة على مر العصور . كما أن العلم الحديث باستبداله السماوات والارض القديمتين بسماوات جديدة وأرض جديدة ، وحكم القانون بحكم الارادة القاهرة . وفكرة النشوء بفكرة الخالق ، قد أضاف ، ولا يزال يضيف ، صوراً من وحي جديد تمدنا بها العناية المقدسة .

في ظلال هذا الضوء الذي انبعث من هذين المنشأين ، الاول لنشوء الكون المادي ، والثاني لنشوء خرافة مقدسة في الخالق ، يمكن للعلم واللاهوت ، اذا خلصت عقول أهليهما مما يقدر كاف من السماحة والعبقرية ، أن يوفق بينهما ، وأن تهدأ ثورتهما ازاء بعض . فأن خطوة من أكبر الخطا التي سوف تحدث هذا التوفيق قد خطاها أكبر ممهد للفكرة اللاهوتية

في العالم الانجليزي ، إذ اعترف في مجموعة المقالات المسماة « لوكس ماندي » Lux Mundi والتي خرجت من بين جدران أكبر معقل للارثوذكسية في جامعة اكسفورد ، بأن الاقاصيص التي رويت في الخلق انما استمدت من نبع خرافي . لهذا تساءل رئيس الاساقفة كنتربري . « الا ينبغي أن يكون الروح القدس قد استخدم في أزمنة ما ، الخرافات والأساطير » ؟

٢ — التعاليم اللاهوتية فى أصل الحيوانات والانسان

الاقوال التى ذاعت فى خلق الانسان خلال القرون القديمة والعصور الوسطى ـ قبول آباء الكنيسة الأولى للنصوص الحرفية التى وردت فى سفر التكوين ـ المصلحون ـ محدثو اللاهوتيين كاثوليك وبروتستانت البراهين اللاهوتية فى تقسيم عالم الحيوان ـ الفزيولوغوس Physiologus والرولوجيا الخرافية Bestiaries وضارب الامثال Exempla ـ بدايات المشاهدات الشكية ـ نشوء الاسلوب العلمى فى درس الطبيعة ـ تحطيم النظرية اللاهوتية فى الخلق

* *

فى احدى نوافذ كاتدرائية « أولم » ـ Ulm ـ نقش على الزجاج رجع تاريخه الى القرون الوسطى ، يمثل فيه الواحد القهار منهمكا فى خلق الحيوانات ، وفى تلك الفترة بالذات خرج من بين يدى العناية القدسية «فيل» كامل الاوصاف ، وهو مثقل بالدروع وعليه سرج وغطاء كأنه على أتم الأهبة للقتال . ولقد وردت أمثال من هذه التصورات فى مخطوطات علمية ، وفى الكتب المطبوعة القديمة ، وتجمعت كل هذه التصورات والآراء فى نواة واحدة ، ظهر فيها العزيز القدير مجداً فى تصوير أول انسان من « صلصال كالفخار » ، منتزعاً من جنبه ، بكل مشقة وقوة ، أول امرأة ظهرت فى الوجود .

على أن هذه النظرة العامة فى اسلوب الخلق قد انحدرت الينا فى خلال الازمان القديمة ، حيث كانت قد ظهرت لابسة صوراً شتى عن آراء كونية عتيقة مختلفة الصور والالوان . فانت ترى حتى اليوم فى

المعابد المصرية القديمة بفيلة ودندرة أمثالا تريك كيف يجبل آلهة النيل كتلا من الصلصال فتخرج من بين أيديهم رجالا ، وكذلك تنم فى الالواح الاشورية على مثل هذا العمل منسوبا الى آلهة بابل . حتى اذا انحدرت تلك السنون الى عصرنا هذا وقامت كتب المقدسة ، القيت أن هذه الآراء والتصورات بعينها قد اتخذت قاعدة لتطور جديد اسبغت ذيوله على اللاهوت الحديث .

مضى آباء الكنيسة قانعين بان يعكفوا على النص الحرفى الذى صيغت فيه اسطورتا الخلق المتناقضتين فى سفر التكوين ، وبعد أن افرغوا جعبة الجهد والبحث فى سبيل التوفيق بين هاتين الروايتين ، وأن يدمجوهما لتكونا كلا واحداً ، رضوا بان يعتبروهما آخر محك للرأى ومجس للفكر فى اصل الكون وكل مافيه . وفى بداية القرن الرابع الميلادى وضع « لاكتانتيوس » أول قاعدة لتلك الطريقة التى لم يقصد بها من شىء الا هم الا اخضاع كل الاشياء الأخرى التى اتخذت وسيلة لدرس الخلق ومنشئه ، للمتن الحرفى الذى جاء فى الكتب المقدسة . وأيد فكرته فى خلق الانسان باشارة لغوية قائلا بأن آخر مخلوق خلق سمى بالانسان لأنه صنع من الارض — « Homo ex humo » .

وفى النصف الثانى من القرن الرابع بذاته أيد القديس أمبروز St Ambrose أسلوب النص الحرفى الذى جاء فى المتون المقدسة خاصاً بالخلق ، وهو ذلك الرجل الذى أعلن فى كتابه الذى بحث فيه أصل الخلق « أن موسى قد فغر فاه وصب منه كل ماقال الله له » . ولكن رجلا أعظم من هذين قد استطاع أن يربط هذه الفكرة باللاهوت

النصرانى وأن يونى لها منه . فإن القديس « أوغسطين » فى كتابه « تعليقات على سفر التكوين » قد وضع فى جملة واحدة قانوناً جامعاً ظل الكنيسة دستوراً حتى عصرنا هذا . اذ قال . « لا يمكننا أن نقبل من شيء الا اذا أيدته الكتب المقدسة بسلطانها . لأن هذا السلطان أعظم من كل القوات التى يختص بها العقل الانسانى » . على أن قوة السبك التى تراها فى الجملة الاصابة قد جمعت اصداءها من خلال القرون المتعاقبة (١)

وعلى الرغم من ذلك الانقلاب الكبير الذى أثار غباره القديس « أوغسطين » نفسه وتابعه فيه سلسلة من أعظم رجال الكنيسة محاولين ، كما سنرى بعد . أن يحوروا فى الآراء التى سادت فى أصل الكون فإن قولة « أوغسطين » قد ظلت مغروسة على عقول الناس أشد الغرس طوال القرون الوسطى . أما « فنسنت بوفيه » الدومنيكى وهو من أكبر الانسيكلوبيديين ، فعلى الرغم من أنه مضى فى كتابه « مرآة الطبيعة » يخرج آراء استمدها من ارسطوطاليس بآراء أخذها من الانجيل ، فانه وقف يؤيد أولى الروايتين اللتين وردتا فى سفر التكوين ؛ وأظهر الفضائل العظمى التى يختص بها العدد « ستة » ليتخذ ذلك سبيلا الى القول بأن هذا هو السبب فى أن كل الاشياء قد خلقت فى ستة أيام . وفى أواخر القرون الوسطى قبل العلامة الثبت الكردينال « دايلى » كل شيء جاء فى الكتب المقدسة خاصاً بالخلق قبولا حرفياً بلا تبديل أو تحوير . وانك لا تهم خلال كل هذه العصور المتطاولة على نزعة الى

(1) Major est Scripturae auctoritas quam omnis humani ingenii capacitas.

انكار شيء من هذا ؛ اللهم الا فيما كتب ثقة آخر من النقاة هو «غريغوري ريش — Gregory Reisch» فقد ذكر في كتابه الذي خصه بالكلام في بدايات الاشياء ، بعد أن وضع فيه صورة من الحفر على الخشب مثالث الواحد القهار ينزع حواء من جنب آدم ، كما مثالث كل الطبيعة المخلوقة في ستار اللوحة ؛ مايظهره بمظهر القائم بفكرة القديس « أوغسطين » من الاعتقاد بوجود مادة سبقت فعل الخالق في الزمان .

وفي عصر الاصلاح الديني ألقى « لوثر » بسلطانه العظيم في ذلك الميدان مؤيداً لفكرة قبول النصوص الحرفية التي جاءت في الكتب المقدسة ، واعتبارها النبع الاوحد لكل العلوم الطبيعية . ولقد رفض كل التفسيرات المجازية أو التصوفية التي قال بها متقدمو اللاهوتيين قائلا — « لماذا يلجأ موسى الى المجاز بينما هو لايتكلم في مخلوقات مجازية أو في عالم مجازي ، بل يتكلم في مخلوقات حقيقية أو عالم منظور يمكن أن يرى وأن يلمس وأن يدرك . ان موسى انما دعي الاشياء باسمائها الحقيقية ، كما يجب علينا أن نفعل . واني اعتقد أن الحيوانات قد وجدت دفعة واحدة في عالم الله ، كما وجدت الاسماك في جوف البحار » .

ولم يكن تشبث «كالفن» بفكرة قبول النص الحرفي لرواية الخلق في سفر التكوين ، بأقل من تعنت « لوثر » ولقد أنذر الذين يجرءون على الاعتقاد بوجهة من النظر تخالف مايذهب اليه بأنهم بذلك انما « يسيئون الخالق ، وأنهم يكونون على نظرة من قاض عدل ينسفهم نسفا » . ولقد مضى معتقداً بأن كل أنواع الحيوانات قد خلقت في ستة أيام كل منها نهار وليل ، وأنه لم يظهر منذ ذلك العهد أي نوع جديد على

اطلاق القول . ولقد قال بأن الطيور قد استحدثت فى الماء ذاكراً أن هذا القول تجيزه بعض نصوص من الكتب المقدسة ، ولكنه يضيف الى ذلك — « بأنه اذا كان لابد من أن يجاب على هذا السؤال من ناحية القواعد الفيزيقية ، فاننا نعرف أن الماء أكثر قربا للهواء منه الارض » . ولقد عالج بعض الصعاب التى واجهته فى لزومه الظاهر رواية الخلق كما وردت فى الكتب المقدسة بقوله إن الله — « رغب بتلك الصعوبات أن يبرهن لنا على قوته وسلطانه ، فيفرض علينا الدهشة والعجب » .

ولقد سيطرت هذه الفكرة على العقول الناقدة فى الكنيسة الرومانية . وفى القرن السابع عشر أسبغ « بوسويه Bossuet » عليها من ضياء عقله الحكيم أنوارا كستها أبهى الحلل . ففى كتابه « أبحاث فى التاريخ العام » ، ذلك الكتاب الذى ظل القاعدة الاساسية لا للتعاليم اللاهوتية وحدها ، بل لكل التعاليم التاريخية فى فرنسا حتى عصر الجمهورية الاخيرة ، نجده وقد عمد الى تنبيه الاذهان الى غاية بعد آخر ما نزل بالوحى فى حقيقة الخلق ، مؤيدا القول الحرفى بأن الارض لم تخلق الا للانسان ، وأن يد الله هى التى تدخلت على المادة القابلة لتعطى نظامها الحكيم المرسوم » .

ولم يكن نصيب البروتستانت فى السير بهذه الفكرة بأقل من نصيب الكنيسة الرومانية . ففى القرن السابع عشر حاول الدكتور « جون لايتفوت » Dr John Lightfoot وكيل جامعة كمبردج ومن أكبر من اشتغل بالعبرانيات من أبناء عصره وأنبههم فيها قدماً ، أن يوفق بين أسطورتى

الخلق فى سفر التكوين فقال — « بأن انواع العجماوات النظيفة قد خلق سبعة من كل منها . ثلاثة ازواج للتوالد . والفرد السابع ليضحى به آدم عند هبوطه من الجنة ، كما سبق فى علم الله » . وزاد الى هذا أن العجماوات القذرة لم يخلق منها الا زوج واحد من كل نوع .

ولقد كان لزوم هذه التصورات لظاهر ماجاءت به الكتب المقدسة كبيراً ، حتى اننا مهما بلغ بنا الخيال وسما بنا الوهم فى هذا الزمان ، فاننا لانستطيع أن ندرك الى اى حد بلغ بهم الاكباب على لزوم النص الحرفى لهذه الآيات . ولقد مثل الواحد القهار فى كل ماظهر من كتب اللاهوت وفى الاناجيل المصورة وفى كل كتب الفن على اختلاف الوانها فى صورة مكبرة تحف بها الجلال ولكن على نمط صانع من صناع « نورمبرج » الذين يحترفون صنع الدمى ولعب الصبية . ولقد مرت أزمان مثل فيها للعبارات التى وردت فى سفر التكوين تصور اشد من هذا لزوماً لظاهر النصوص ، معتمداً على عبارة معروفة فى المتون المقدسة مثل الخالق فى صورة صانع تماثيل والأزميل فى يده ، مجداً كل الجد فى أن ينحت من جلود الحيوانات تمثالاً لآدم وحواء . على أن مثل هذه الاصولات لم تكن لتعترضها أية صعوبة تحول دون ولوجها الى ثنايا العقول فى القرون الوسطى . وفى عصر الاصلاح البروتستانتى وبنفس هذه الطريقة خضعوا لهذه الروح . ولما بدأ استكشاف الحفريات يغزو نواحى الفكر بموجات جديدة ، بأنها « لم تكن الا نماذج اهملها ، وافق المهندس الاعظم على بعضها ولم يوافق على البعض الآخر » — أو أنها « اجسام اصور من المخلوقات سوف تخلق فى

المستقبل » — أو أنها « من ألاعيب الطبيعة » — أو أنها « اشياء بثت في طبقات الأرض لتستثير عجب الانسان » . ومازالت امثال هذه المقالات تتنقل في منازل البقاء شاقة لنفسها طريقا في بحور الزمان ؛ حتى أن عالما طبيعيا من الاعلام في عصرنا هذا ؛ وقد استثارته الحماسة وأخذته الغيرة على أن يحمي من الزوال طريقة الاكباب على النص الحرفي لسفر التكوين ، قد عمد الى الاعتقاد بأن الله قد لوى الطبقات الجيولوجية لما وضعها بعد تجميعها . ثم املاها بعضها بعد أن نثر في جوفها صور الحفريات وحدث في ظاهرها حدوثا تمثل المجاري الجليدية . ونشر من فوقها العلامات التي تدل على التآكل الذي تحدثه المياه ؛ ثم امر شلالات بأجرها بأن تنصب بكل ما تتصور من قوة . وأن كل هذا تم في برهة واحدة ، بل في غمضة عين . وبذلك ألغز الدنيا وحوطها بالأسرار ، « لغرض لا يمكن تعليله ، ولكن ليختبر ايماننا بجلاله وعظمته » .

أما الناحية التي مضت فيها العقائد اللاهوتية ، وكان لها فيها التطور والنشوء ، فتنحصر في نشوء ممالك الحيوان

من الطبيعي أن يكون الفرق بين المخلوقات النافعة والمؤذية من أبكر المسائل التي تدفع بالعقل النازع الى البحث والتعجب . لهذا قام في العقول سؤال هو . كيف أن آلها خيرا حكيما يخلق النمور والأفاعي والسوس والقراد ؟ أما الجواب فقد عبر عنه في الاعتبارات اللاهوتية قائما على فكرة الخطيئة . فقيل بأنه عندما وقعت خطيئة الانسان الاولى حقت على الانسان كل اللعنات ، وكتبت عليه كل المصائب . وظل رجال من اعظم من انجبت الارض تهذيبا وحكمة يؤيدون على مدى ثمانمائة

من الاعوام الطوال ، نظرية أنه قبل معصية آدم لم يكن موت ، فلما وقعت المعصية تبعتها الوحشية والتقتيل .

على أن بعضاً من الاقوال التى تمثل الاساليب التى تطورت فيها هذه الفكرة جديرة بأن نعرض لها بذكر . فان القديس « اوغسطين » بكثير من الطلاوة وحسن السبك قد أيد بل اكد حقيقة القول بأن عالمي الحيوان والنبات قد صبت عليهما اللعنة استتباعاً لخطيئة الانسان . وبعد أن قيل هذا القول بقرنين من الزمان ، وبعد أن ظل متنقلا من قديس الى قديس ، ومن لاهوتى الى لاهوتى ، انحدر الى عصر « بيده » وهناك مبض عليه هذا اللاهوتى واشبث به ، لا لشيء الا ليقول بانه قبل سقوط الانسان كانت كل الحيوانات وادعة غير مضر ولكنها اصبحت بخطيئة آدم إما مسمة وإما مفترسة . ثم قال — « لهذا خلقت الحيوانات المفترسة والحيوانات المسمة لتزعج الانسان — لانه سبق فى علم الله ان الانسان سيخطيء ويعصى — حتى يكون على حذر من أن يناله عذاب جهنم الاخروى » .

وفى القرن الخامس ادمج « بطرس لومبارد » هذا الرأى فى كتابه اللاهوتى الكبير الذى اسماه « الجمل » Sentences ذلك الكتاب الذى اصبح فيما بعد متنا للاهوت طوال القرون الوسطى . ولقد أيد فكرة أنه — « مامن شيء مخلوق قد أعد لان يكون مضراً للانسان مؤذيا له مالم يكن قد اخطأ . إنما اصبحت الحيوانات مضرة مؤذية لتزعج الانسان وتعاقبه على رذائله ولتحثه على الفضيلة وتكملها فى نفسه . لقد خلقت الحيوانات غير مؤذية ، فلما أن وقعت المعصية انقلبت مضرة بالغ الضرر . »

أما هذه النظرية اللاهوتية التي وضعت في الحيوانات فقد أيدها « جون ويزلي » John Wesley في القرن الثامن عشر بكل ما أوتي من قوة. ولقد أعلن بأنه قبل خطيئة آدم « لم يحاول شيء من ضروب الحيوان أن يضر أو يأكل غيره أو أن يوقع أي ضرب من ضروب الأذى بأية وسيلة على حيوان آخر » ولم يقتصر الأمر على « ويزلي » وحده. بل أن الشهير دكتور « آدم كلارك » Adam Clarke ودكتور « ريتشارد واطسون » Richard Watson وهما اللذان كان لآرائهما أكبر الوزن بين المنشقين على الكنيسة Dissenters بل بين أكبر مفكري الكنيسة الرسمية Established Church فتلقف كل الفقهاء هذه النظرية ومضوا بها مؤمنين ولقد ظل هذا الرأي سائداً على أكبر العقول وأرجح الأحلام أزماناً. أما بعد أن زودنا علم الجيولوجيا بحقائق دلتنا على وجود عدد عديد من الحيوانات المفترسة، وعلى أن كثيراً منها قد عاش عابثاً وهو أشد عصفاً وضراوة في معداتها، وأنها انقرضت من الوجود قبل أن يوجد الإنسان فوق الأرض بأزمان طويلة في القدم، فمنذ ذلك استطاع العلم أن ينتصر على اللاهوت في هذا الميدان الفسيح.

ولقد تطور هذا المذهب تطوراً آخر ركز حول معتقد متقدمي المفسرين الذي قام حول الآية التي نصت على الآفي في سفر التكوين، وهو اعتقادهم الضروري أن الجحيم طبيعياً ما دامت الظواهر تدل على أنه معتقد أصيل ثابت في يقين الذين كتبوا تلك الرواية التي حفظت في أول كتبنا المقدسة. أما ذلك الاعتقاد فقد انحصر في أنه حتى الوقت الذي لعن

فيه الواحد القهار الافعى المغرية ، كانت كل الثعابين والافاعى تقف منتصبة وانها كانت تمشى وتتكلم .

ومازال هذا المعتقد ينحدر من عصر الى عصر ومن جيل الى جيل على اعتبار أنه جزأ من « خبرة الايمان المقدس » حتى جاء « وطسون » اكبر منتجى الكتاب الذين ظهروا فى عصر الاصلاح الانجيلى فى القرن الثانى عشر ، واكبر علم من اعلام اللاهوتيين الذين ضمهم حزب الانجيليين وأعلن — « بانه ليس لدينا من بينة تحملنا على الاعتقاد بان الحيوان كان ذا صورة تمبانية على اى اسلوب وبأية درجة حتى أدركته الاستحالة والتغيير ، او الاعتقاد بأنه اذ ذاك قد مسخ زاحفة تدب على كشحيها فيستدل به . على الضد مما نعتقد ، على فقدان كامل وتغيير محض الصورة الأصلية . » ومن هذا المعتقد زود الاسلوب اللاهوتى العقول بنتائج ناضجة استوعبتها اسوى العقول التى نشأت بين احضان الكنيسة خلال القرن من السنين . غير ان هذه « الخبرة المقدسة » قد ذابت عندما عثر الجيولوجيون على ثعابين وأفاعى حفرية دبت فوق الأرض من قبل أن يكون للانسان على ظهر البسيطة أثر بأزمان متطاولة .

ولقد دامت بين اللاهوتيين مناقشات عديدة تتعلق بالحيوانات التى صرفوا عليها اسم الحيوانات « الزائدة عن الحاجة » ؛ اما القديس « اوغسطين » فقد كان ذا ميزة خاصة امتاز بها فى هذا الميدان . قال — « انى اعترف صراحة بجهلى وقصورى عن ادراك السبب الذى من اجله خلقت الفيران أو الضفادع أو الذباب أو الديدان . إن كل الحيوانات اما أن تكون نافعة او مضرة أو زائدة عن الحاجة بالنسبة الينا . أما الجماع فانه

المضرة فنعلل وجودها بأنها إنما خلقت لتعاقبنا أو لتنظمنا أو لتزعجنا حتى لا نتمادى في حب هذه الحياة » أما الحيوانات الزائدة عن الحاجة فقد قال فيها — « إن هذه الحيوانات وإن كانت غير لازمة لخدمتنا ، إلا أن جمال تصميم الكون قد انتهى عندها وفرغ منه بها » . أما « لوثر » وقد ابرم أقوال القديس « أوغسطين » في بحث كثير من المشكلات اللاهوتية فقد نفر من أن نتابعه تماما إزاء هذا الإشكال . فقد اعتقد بأن الذبابة ليست فقط زائدة عن حاجة الخلق ، بل هي مضرة أيضا . فإنها كثيرا ما ترسلها عليه الشيطان لتشغله عن القراءة وتقطع عليه تيار فكره .

ولدينا موضوع آخر كان سببا في كثير من البحث في نصوص الكتب المقدسة حتى لقد نشأ عن هذا البحث كثير من مختلف ضروب الفكر اللاهوتي وانحصر هذا الموضوع في الفرق الكائن بين خلق الإنسان وخلق الأحياء العضوية الأخرى .

ولقد علق اللاهوتيون جميعا ، حتى القديس توماس الأكويناس وتوسويه ، ومن لوثر إلى ويزلي ، أهمية عظمى على الفرق البين الذي نص عليه سفر التكوين إذ ذكر بأن الله قد « خلق الإنسان على صورته » أما المعنى الذي انطوت عليه هذه العبارة فقد أبان عنه نص مقدس آخر في سفر التكوين جاء فيه (١) عن آدم أنه « ولد ولدا على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا » (٢)

---

(١) « فخلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه » — تكوين : الإصحاح الأول . [illegible] قبل الميلاد

(٢) يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله . ذكرا وأنثى خلقه وباركه

واعتماداً على هذا القول وعلى نصوص معروفة انتحلت عن أساطير خلقية قديمة أدمجت في الكتب العبرانية المقدسة، ذاع الاعتقاد بأن الإنسان إذ فطر وصور بيد الله مستقلاً عن بقية الخلق جميعاً، فإن الحيوانات إطلاقاً قد برزت من الأرض والبحار ملبية صوت الخالق وكلمته.

وهنا قام سؤال معضل تناول مسألة «التفريق بين أنواع الحيوانات» على أن الغالبية العظمى من اللاهوتيين متفقون على القول بأن الحيوانات قد خلقت «منذ البدء» وسماها آدم، وأنها حملت في السفين، وأنها استمرت من بعد ذلك معينة بأنواعها المعروفة حتى الآن. ولقد تنقل هذا الاعتقاد مع الزمان حتى نضج فصار مذهباً. وهو ككثير غيره من مذاهب الكنيسة بشعبتيها، من كاثوليك وبروتستانت، تجد أن العثور على أصله الأول بالبحث في ثنايا الفلسفة الوثنية، أكثر سهولة مما هو في الكتب النصرانية المقدسة. وإنك لتجد أن لهذا الاعتقاد أكبر آصرة بأفلاطون وأرسطوطاليس منه بموسى والقديس بولص. غير أن هذه الحقيقة لم يلتفت إليها ولم تلق اهتماماً. وهكذا مهدت السبيل شيئاً فشيئاً حتى أصبح من الضروري أن يعتقد أن كل نوع من الأنواع على اختلافها وأن كل الفروق الكائنة بينها قد طبعها الخالق على صورها «منذ البدء» وأنه لم يطرأ عليها أي تغيير، بل إن التغيير والنشوء لم يكن من الممكن أن يطرأ عليها.

ودعا اسمه آدم يوم خلق. وعاش آدم مئة وثلاثين سنة. وولد ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثاً.» تكوين، الإصحاح الخامس: سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد

ولقد نشأت بعض الصعاب تبعاً لارتقاء علم الزولوجيا - الحيوان - وعلى الاخص عندما أظهر ذلك العلم أن عدد الانواع التى نعرف يزداد يوما بعد يوم . غير أن اللاهوتيين استطاعوا أن يتغلبوا على هذه الصعاب بسهولة خلال العصور الوسطى ، وحتى عهد طويل بعد قيام حركة الاصلاح البروتستانتى ، بأن يوسعوا من حجم سفينة نوح يوماً بعد يوم بنسبة استكشاف أنواع الحيوانات الجديدة ، وبأن يلجأوا الى القول بأن هنالك خطأ انسانياً (١) وقع فى قياس حجمها .

غير أنه كان من الطبيعى أن تقوم بين أهل اللاهوت وبين عامة الناس على السواء ، شهوة انسانية تتجه الى البحث فى أشياء أبعد غوراً من هذه الاشياء فى تاريخ الكائنات الحية . شهوة ساقتهم الى البحث وراء معرفة « ماهى الخليقة » فى حقيقتها؟

على أن الخرافات السائدة والروايات المتضاربة وأقاصيص الشاعرين ، على الرغم مما كان فيها من الاختلاق والضعف ، قد فعلت فعلها الاقوى فى احياء روح الاستطلاع فى هذا الميدان

قبل بدء التاريخ الميلادى بثلاثة قرون قام أرسطوطاليس بأول جهد حقيقى رمى إلى إيفاء شهوة الاستطلاع التى اتجهت فى هذه السبيل ، فبدأ أبحاثاً مستفيضة فى التاريخ الطبيعي ، لاتزال حتى اليوم عنوانا على أقصى قمة من الانتاج العقلى وصل اليها الانسان خلال عصور التاريخ .

غير أن ذلك الشعور الذى رأينا من قبل كيف كان تأثيره فى الكنيسة خلال عصورها الاولى — شعور أن البحث والدرس لافائدة

(١) منسوب للانسان

منهما وأنهما لغو باطل على اعتقاد أن نهاية العالم قد قربت — وقد عبرت عنه نصوص « العهد الجديد » — الاناجيل — باجلى بيان ، ورددد باعلى صوت رجال عظام مثل لاكتانتيوس والقديس أوغسطين ، وقد صد تيار ذلك الفكر العلمي عن أن ينبعث في تلك السبيل القيمة قرونا عديدة . غير أن الميل الاقوم من صفات الانسانية قد ظل محققا وجوده خلال الازمان . والحقيقة أن تأثيراً شب من ثنايا الكتب العبرانية المقدسة قد دفع الانسانية بقوة نحو تلك الغاية . فذلك ترى أنه على الرغم مما كان من الممكن أن يقول لاكتانتيوس أو القديس أوغسطين في حماقة الاكباب على درس الطبيعة ، فان تلك المقاطع الضخمة التي تتضمنها المزامير في وصف جمال الخلق وعجائبه ، مصبوبة في ذلك القالب الشعري الرائع ، قد أظهرت للناس نبالة الاكباب على درس الطبيعة حتى بين أولئك الذين كان بعدهم منطقهم عن الاهتمام بدرسها .

غير أنه كان من الطبيعي أن تصب كل هذه الدراسات وعلى الاخص في أحضان الكنيسة الاولى وخلال العصور الوسطي في قالب لاهوتي صرف . فان الاستغراق في درس أسرار الطبيعة لم يكن في نظر أهل الدين الا ضرواً تتناول آثاره الجسم والروح . حتى لقد كان يعتبر هذا الدرس سخيفا لاقيمة له مالم يكن الغرض منه تقرير شيء جاءت به الاناجيل أو تفسير شيء روحاني . ولم يكن ينظر في هذا الامر نظرة اعتبار جديرة به الا اذا اتجه الباحثون فيه الى اظهار عظمة الله والاغراض التي رمى اليها عند ما فكر في الخلق وأوجد الخليقة . أما مؤلف

أرسطوطاليس الخالد فقد غشى عليه وأهمل . ولم يعد ممتدحوه المفكرين من أهل الكنيسة اهتماما ولا عرفوا له مقاما . حتى لقد نجد أنه قلما حاول اللاهوتيون أن يمسخوه الى شيء يخالف تمام المخالفة وجه العامة ولا يساويه، اهمالا لشأنه وعمى عما فيه من الحقائق والعلم واستعاضوا عنه بالفزيولوغوس (١) — Physiologus — والزولوجيا الخرافية — Bestiaries — أي علم الحيوان الخرافي . جامعين في ذلك بين نصوص من الكتب المقدسة ، وخرافات القديسين ، وتخيلات ما نزل بها من سلطان . جمعت بين روح التقوى وبين الغفلة التي هي قوام روح الطفولة في غرارتها . ولقد حلت الساعة — ساعة الكتب المقدسة كتفسيرها الفزيولوغوس والزولوجيا الخرافية — محل البحث العلمي . أما هذه الكتب فقد ظلت نبع الفكر الذي استقى منه المعرفة بأشياء العالم الحي أكثر من الف شداد من السنين .

ولقد ظهر بعض الخوف حينا بعد حين بين زعماء الكنيسة ورؤسائها من بحث في الخليقة بلغ هذا المبلغ من الضعف والفساد . ففي القرن الخامس قرر مجمع ضم رؤساء المذاهب الدينية تحت رئاسة البابا «جيلاسيوس» — Gelasius — واتهم الفزيولوغوس ، بل وجه اليه لوما وتعنيفا . غير

---

(١) الفزيولوغوس — عنوان وضع في القرون الوسطى لمجموعة من الرموز المطرية بلغ عددها الخمسين . ولا يزال باقيه الى اليوم متضمنة صورا عديدة ، وقد لا تقل عن اثنى عشرة لغة من اللغات الشرقية والغربية . ولما كانت كل صورها التمثيلية قد استمدت من عالم الحيوان اطلق عليها ايضا اسم — Bestiary — فهي اذن والزولوجيا الخرافية سواء في الروح والمرمى . راجع دائرة المعارف الانجليزية الكبرى م ١١ ص ٥٥٢ .

أن نزعة البحث فى الطبيعة كانت قوية فتية ، حتى أن الكتاب الكبير الذى وضعه القديس « باسيل » فى الخليقة _Creation_ قد استمد من الفزيولوغوس أمثالا كثيرة تعبر عن العظمة القدسية ، وكان من نتيجة ذلك أن أجازه البابا «غريغورى الكبير » _ Gregory The Great _ أشد البابوات الاول حزما وأشدهم بطشا .

بهذا تكون علم مقدس للخليقة وللقصد القدسى الذى يسير الطبيعة ، ومضى ينشأ ويتطور منذ بداءة القرن الرابع الميلادى الى القرن التاسع عشر ، أى منذ ظهور القديس باسيل الى القديس ازيدور الاشبيلى ، ومن أزيدور الاشبيلى الى فنسنت بوفيه ؛ ومن فنسنت الى رئيس الاساقفة « پالى » Paley ومقالات « بردجووتر Bridgewater »

ولقد نشأ هذا العلم ، كما نشأ كل شيء غيره خلال القرون الوسطى ، خاضعا للاساليب اللاهوتية . على أن الطبيعيين الذين أقاموا أسس هذا العلم ، مع اهمالهم للحقائق الجلى التى كان من الممكن أن يقعوا عليها من تشريح أحقر حشرة من الحشرات ، فقد حاولوا أن يفسروا حقائق الطبيعة بنصوص يستمدونها من المتون المقدسة ، بان يبحثوا فى سير القديسين وتراجم حياتهم ، وبتطبيق الكثير من مقولات الميتافيزيقا

ومن هنا جاء السبب فى ان رجالا عظاما من طابع القديس إزيدور الاشبيلى قد جمعوا فيما كتبوا أوصافا « لذى القرن » (١) Unicorn _ وهو

---

(١) اصل الكلمة لاتينى من (Unicornum) ومعناها ذو قرن واحد . (Unicorn) وهي مركبة من مقطعين الاول (Uni) اى واحد و (Cornu) اي قرن . ويغلب ان تكون كلمة قرن العربية مأخوذة عن اللفظه اللاتينيه . ويطلق على

حيوان خرافي يشبه الحصان ويمتاز عنه بقرن في جبهته ، والدراغون Dragon وهو ما يعبر عنه في العربية بلفظة تنين ، وقد ذكرتهما الكتب المقدسة ، أو يتناولون بالوصف طير العنقاء Phoenix والأفاعي الخرافية « البزليق » Basilisk (١) التي ذكرتها الكتب الموضوعة . ومن هذه السبيل ذاعت الخرافات والأضاليل مثل القول بأن « البزليق » يقتل الثعابين بزفيره ، والناس بمجرد النظر إليهم ، وأن السمع اذا طورد فانه

هذا الوصف من العبرانية كان (ريم) ولعلها المستعملة في اللغة العربية . قال الشاعر ويرجح أنه بن الجهم :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الاشهر الحرم

والريم نوع من الظباء . وقال بعض الرحالين ان في بلاد كردوفان نوع من الأيل له قرن واحد . ولعل الكلمة أطلقت اولا على هذا النوع ثم استعملت اطلاقا على الأيائل . والكلمة تستعمل الى الآن بلفظ (ريم) Reem في المعاجم الانكليزية . وكانت تطلق على الثور الوحشي -- Bos Primi-genius-- راجع برون في شرح الاسفار المقدسة . وقيل بأن هذا النوع هو الذي عناه أيوب في سفره . قال .

« أيرضى الثور الوحشي أن يخدمك ام يبيت على معلفك . أتربط الثور الوحشي برباطه في التلم أو يمهد الاودية وراءك . أتثق به لأن قوته عظيمة أو تترك له تعبك . أتأتمنه أنه يأتي بزرعك ويجمع الى بيدرك » . سفر أيوب الاصحاح التاسع والثلاثون من ٦٤٢ طبعة الاميركان . راجع أيضاً مادة Reem في معجم وبستر والمعجم الانسكلوبيدي .

(١) تعريب الكلمة الاصلية Basilisk وأصل الكلمة يوناني من بازيليكوس Basilikos ومعناه ملك صغير او زعيم قبيلة ، او اسم لنوع من الافاعي سمي بهذا الاسم بعد بلينيوس Pliny لان برأسه ما يشبه التاج .

يمحو آثاره بطرف ذنبه ليضلل المطاردين ، وأن البجع Pelican يغذى افراخه بدمه ، وأن الثعابين تاوى بسمها بعيداً قبل أن ترد الماء للشرب ، وان السمندل يطفىء النار ، وأن الضبع — المرفعين — يتكلم مع الرعاة ، وان انواعا معينة من الطير تولد على ثمر انواع من الشجر مخصوصة عندما تكون على وشك السقوط الى الماء . . . . الى غير ذلك من مكنونات العلم التى لا تقل عن هذه قيمة ولا تنزل قدراً

اما الاسلوب الذى وضع به العلم ليكون موافقا للكتب المقدسة فان «الفزيولوغوس» يعبر عنه أحسن تعبير بان يلجأ فى التمثيل الى تلك المقطوعة التى ذكرت فى سفر أيوب Job عن السبع العجوز الذى قضى جوعا لندرة الفرائس . ولقد كان للمحاولات التى أريد بها تفسير كلمة غير عادية وردت فى النصّ العبرانى اثراً تراكمت من حوله الاخطاء بعضها تلو بعض ، حتى أن خطى التطور قد مهدت السبيل الى رواية « النمل السبعى » الذى يساعدنا على أن نفهم ما هو السبع الذى ذكر فى سفر أيوب اذ قالوا . « اما النمل السبعى فان أباه كانت له صورة السبع وامه صورة النمل . وكان الاب يعيش على اللحوم والام على الاعشاب . ومن هنا نشأ النمل السبعى مزيجاً من كليهما ، وأن كان يشابههما فى الاجزاء ، لان جزءه الامامى كان كالاسد ، وجزءه المؤخر كان كالنمل . اما وانه كان على هذه الصورة ، فانه لم يقدر أن يأكل اللحوم كأبيه ، ولا العشب كأمه ؛ و بذلك هلك ومات » .

فى أواسط القرن الثالث عشر انتصر هذا الاسلوب اللاهوتى انتصاراً كبيراً بنشر كتاب عظيم ألفه بارثولوميو — Bartholomew

الفرنسيسكانى الانجليزى والذى سماه « خصائص الاشياء » The Properties of Things أما الاسلوب اللاهوتى لدى تطبيقه على العلم فليس فى أكثر الامر بشىء سوى أن يقبل الانسان العقائد وأن يتقبل البراهين التى توافقها وتساعدها على البقاء . وكان « بارتولوميو » فارساً من فرسان هذا الميدان . فقد بدأ بفكرة اساسية هى أن يستخلص من الكتب المقدسة كل الاشارات التى أشير بها الى الاشياء الطبيعية ، غير أنه لم يلبث أن عمد الى وصف الطبيعة وصفا عاما متخذاً من المنطق دعامة . ولما أن أراد أن يتكلم فى الافعوان Cockatrice الذى ذكرته الكتب المقدسة قال « إنه ييبس اوراق الشجر الخضراء او يحرقها اذا لمسها ؛ وأن سمه زعاف قاتل ، حتى أنه يقتل كل من يقترب منه بلا تلكؤ أو توان . ومع كل هذا فان ابن عرس يتغلب عليه ، لان عضة ابن عرس تقتله فعلا . والافعوان على الرغم من أن سمه قاتل وهو حى ، حتى أنه لا يوجد دواء يشفى من يصاب به ، فانه يتجرد من كل مضاره اذا أحرق حتى يصير رماداً أما بقاياه بعد الاحتراق فتفيد فى الالكيمياء Alchemy وعلى الاخص فى تغيير المعادن وتبديل خصائصها » .

على أن « بارتولوميو » لم يقف هنا ؛ بل حاول أن ينير الاذهان بان يتناول بالوصف حيوانات مصر فقال — « إن التمساح اذا عثر بانسان واقف على حافة الماء فانه يقتله ؛ ومن ثم يبكى عليه ، ثم يزدرده »

ولا يفوت مثل هذا الطبيعى الفرنسيسكانى أن ينفق الكثير من الجهد فى وصف « التنانين » التى ذكرتها الكتب المقدسة ، فقال — « ان التنين هو أعظم الافاعى كلها ، وغالبا ما يقوم من وجره ويطير فى الجو فيحرك

الهواء، وكذلك البحر، فانه يطفى ويتهيج من سمومه، وأن له عرفا (كالدجاج) وأنه يرفع لسانه الاعلى، وان اسنانه كالمنشار، وأن فيه قوة وبطشا، واز قوته لا تكون فى اسنانه وحدها بل فى ذنبه أيضاً؛ وأنه يرسل مضراته عضاً ولدغاً. وغالباً ما تجتمع أربعة أو خمسة تنانين معاً، ثم يرتبطون باذنابهم ويرتفعون الى العلاء رؤوسهم ثم يسافرون فوق البحار لكي يحصلوا على اللحم الجيد. على أن بين الفيل والتنين عداء مستحكما وجلاداً مستمراً. فانّ التنين يلدغ بذنبه الفيل، والفيل بخرطومه يسقط التنين و يلقيه صريعا. أما السبب الذى من أجله يرغب التنين فى دم الفيل فبرودته التى يرغب فى أن يرطب نفسه بها. ويقول «جيروم» إن التنين حيوان متعطش للدماء كل تعطش، حتى أنه يفغرفاه فى مهب الريح ليطفىء شيئاً من عطشه المتسعر. ولهذا السبب يرتمى على شراع المراكب التى تمخر فى ريح طيبة ليحصل على قليل من الهواء البارد فيقلب السفينة ويغرقها »

هذه الآراء التى أتى بها الراهب « بارتولوميو » قد ذاعت بين الناس أشد ذيوع ورسخت فى أذهانهم رسوخا. ولقد ترجم كتابه الى كل لغات أوروبا الحية، وكان من الكتب التى أكب الناس على قراءتها كل أكباب خلال عصور الايمان النصرانى. ولقد احتفظ الكتاب بمكانته طول ثلاثمائة من السنين الطوال. حتى لقد احتفظ بمكانته بعد اختراع الطباعة؛ فقد بلغت طبعاته عشراً فى اللاتينية وأربعا فى الفرنسوية؛ كما ترجم عدة مرات الى اللغة الفلمنكية والاسبانية والانجليزية. وكذلك الوعاظ فانهم وجدوا فيه ضالتهم، إذ عمدوا اليه يتخذون منه الامثال التى يعبرون بها عن الطريق التى اختارها الله

لتكون صلة له مع الانسان . وظل هذا الكتاب محافظا له لداته على العقول حتى عصر الاستكشاف البحرى ، اذ بدأت الحقائق تحل شيئا فشيئا محل الاستنتاج اللاهوتى . حينذاك فقد الكتاب أهميته ونزل عن سلطانه .

واحد فقدى هذا النوع من العلم فى كتب « الروايات الخرافية » — Romances — التى كانت تتناولها الأيدى فى كل مكان ، وظل الأخذ بأيدى الذين كانوا يعظون من فوق المنابر فى الكنائس ليهدوا جموع المؤمنين سواء السبيل ، ويشغلوا عقولهم بالخرافات . واحد [illegible] هذه الكتب ، كما نشر فى كتاب [illegible] فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى « وليم النورماندى » — William of Normandy — أحد رجال الكنيسة المعروفين — على الدرس الآتى : « إن اللبؤة جراءها تظل ثلاثة أيام بلا حياة وبعد ذلك يأتى السبع فينفخ فى خلاياه الحياة . . . وعلى هذا النحو ظل المسيح ثلاثة أيام محروما من الحياة ، حتى أن الله الأب قد أنهضه حيا منتصرا » .

ولقد استخدم هذا العلم فى تبيان أمر الدين ، وقال الأحبار اذا حدث أن يكون العالم [illegible] فى الصخور [illegible] والحيوان . فقالوا بأن فى بعض الحجارة التى [illegible] دليلا على يوم النشور . وأن تركيب الطيور [illegible] برهان على وجود السماوات — وأن وجود قردة بلا أذناب برهان على أن إبليس تجرد من عظمته الأولى . وأن بنات عرس إذ هو تغير دائما مكانها ولا تستقر فى مكان ، مثل لمن فسق عن عبد الله ، فلا يجد مكانا يستريح فيه » .

أما المقالات الادبية التي ظهرت في ذلك العهد فقد أخذت صورة كتب في التاريخ الطبيعي ، ليتسنى لواضعيها ومنشئيها أن يكونوا اكثر بيانا للناس عن حقائق تلك التعاليم الدينية المقتطعة من الطبيعة. ففي كتاب الراهب الدومنيكي « توماس الكانتمبري » — Thomas of Contimpré „ في النحل " نقع على تعاليم تبث في روعنا — „ أن الزنابير تطارد النحل وتعلن عليها الحرب لان بينهما عداء طبيعيا موروثا " — وان هذه الزنابير تمثل لنا الشياطين الذين يعيشون في الجو ، وأنهم مع الصواعق والاعاصير الجوية يهبطون على النوع الانساني بالمصائب والمضرات . ومن ثم يستطرد في فصل طويل ذاكراً حوادث وامثالا لحرب الشياطين التي تعانيها على الذوات الفانية . وعلى هذا السنن سار رصيفه الدومنيكي « نيدر » Nider عضو محكمة التفتيش في كتابة « تل النمل » - The Ant-Hill - فعلمنا أن نمل « إيثيوبيا » - Ethiopia - الذي يذكر أن له قرونا ، وانه ينمو حتى يصير في حجم الكلب ، هو في الواقع رمز واشارة للهراطقة المزذوابن امثال « ويكليف » - Wycliff - والهسيون[1] - Hussites - „ الذين ينبحون على الحق ويعضونه بانيابهم

(١) اتباع « جون هس » - John Huss - وقد ولد من أبوين فقيرين ومن الطبقة الدنيا في هوسينز بوهيميا في سنة ١٣٧٠ ميلادية وصار راهبا في سنة ١٤٠٠ م. وقد انبع في الماسه المذهب الواقعي الذي علمه « ويكليف » ثم ترجم كتبه الفلسفية فجر بذلك على نفسه عداء رئاس اساقفة براغ . وكان من نتائج ذلك أن حوكم أمام مجلس كونستانس ، وعلى الرغم من أنه منح عهد أمان من الامبراطور سيجموند (أو سيجسموند) فقد صدر عليه الحكم

في حين أن نمل بلاد الهند ، الذى يستخلص الذهب من الرمال بأقدامه ويستجمعه من غير أن ينتفع به ، مثل للعمل البائر الذى يبذله الهراطقة إذ يحفرون كنوز الكتب المقدسة ويدمجونها فى كتبهم لا لغاية ولا قصد»

ان هذه الروح ، روح التقوى والخضوع ، لم تغز العلم وحده . بل تعدته الى الفن ، وعلى الاخص فى الكاتدرائيات . ففى المازيب الرمزية [1] التى كانت تعلق على الجدران ، وفى الاشكال الجونية التى - Gargoyles كانت تعلق على الابراج أو التى ترى جاثمة على القباب ، والتنانين التى ترى دابة تحت العقود المشيدة على الطرق ، أو المنسالة من خلال الاعشاب ، والوحوش السرية التى كانت تحفر عادة على منصات التاجين ، والتى كانت تنقش على الزجاج ، أو تغزل فى الطنافس أو ترسم بين سطور كتب القداس وكتب التراتيل أو على حواشيها : عامة هذه الاعاجيب الخلقية كانت تعتبر عند الناس ضروبا من الآداب والسلوك استمدت من الفزيولوغوس وكتب الزولوجيا الخرافية ومضارب الامثال ـ Exempla.

من بين الرجال الدين لم يكن للكنيسة عليهم من سلطان ظهرت فئة فى مختلف البقاع والازمان ابرزت للوجود مؤلفات ارقى نزعة وأعظم قيمة . ففى القرنين الثانى عشر والثالث عشر دون « عبد اللطيف » [2]

بأنه من الهراطقة واحرق حيا فى ٦ يوليه سنه ١٤١٦ ، وكذلك لحق به تلميذه « جيروم البراغي » فاحرق فى ٣٠ مايو سنه ١٤١٦ م .

(١) ميازيب كانت تصنع لتصريف مياه الامطار من فوق المبانى تشابه رأس حيوان او انسان أو تنين بشع المنظر أو غير ذلك من الاشكال الغريبة .

(٢) يقصد المؤلف عبد اللطيف البغدادي صاحب وصف مصر المعروف

ملاحظاته فى تاريخ مصر الطبيعى؛ فكان فى هذه الملاحظات، قدر غير ضئيل من الروح العلمى البحت، كما أن الامبراطور فردريك الثانى قد حاول أن يشجع الناس على البحث فى الطبيعة بحثاً أو فى اتجاهاً وأعلى قدراً. غير أن احد هذين قد اتهم بأنه مسلم، والثانى بأنه فاسق عن الدين.

غير أن « جيرالدوس كمبرنسيس » — Giraldus Cambrensis — وهو من رجال الكنيسة المعروفين، كان فيما اتفق أكثر تلاؤما من هذين مع روح ذلك العصر. فانه فى كتابه المعروف باسم « طبوغرافية ايرلاندا » Topography of Ireland — قد أبدى اهتمامه بالحيوانات التى تقطن الجزيرة، ولكنه قلما غفل عن أن يستخلص من كل منها حالة يستعين بها على استخلاص صورة من صور الاخلاق أو الماورائيات. فيقول مثلا إن « النسور فى ايرلاندا تعيش أعماراً مديدة حتى ليخيل الينا أنهم مساهمون فى الابدية. وكذلك الحال فى القديسين، فانهم بتركهم صفاتهم القديمة واتخاذهم الصفات الجديدة التى اهابت بهم الى القداسة، يحوزون تلك الثمرة السعيدة، ثمرة الحياة الابدية »، ويقول أيضا — « كثيراً ما تبلغ النسور فى طيرانها ارتفاعات عظيمة حتى أن الشمس قد تلفحها فتنسفط اجنحتها. وهكذا الحال فى الذين يحاولون أن يقفوا على تلك الاسرار الدفينة القصية التى تتضمنها خفايا السموات لا كثر مما تسمح به الكتب المقدسة، فانهم يتداعون عنها ويهوون الى الحضيض، كما لو كانت اجنحة خيالاتهم المتحررة التى تحملهم الى تلك الاجواء القصية البعيدة قد لفحت فاحترق ظاهرها وارتدت كليلة متعبة »

من بين رجال الدين ظهروا فى القرن التالى كان « البرت الكبير »

وفيما كتب تقع على روح انتقادية فيها شيء من مظاهر الرشد. فان «ألبرت» في كتابه الذي تناول الكلام في الحيوانات، قد رفض القول بالاعتقاد السائد في أن بعض الطيور تتولد من الأشجار وأنها تتغذى بالعصارة النباتية، كما انه لم يؤمن بنظرية أن بعض الطيور قد تتولد في البحار من بقايا الأخشاب المتحللة التي تطفو فوق سطحها.

غير انه كان لزاما أن تمر عدة أجيال حتى تثمر تلك الشكوك ثمرة طيبة وتحدث أثراً فعالا. فاننا نقع مثلا في الأمثال التي صاحبتها كتب «مندفيل» (Mandeville) وقد طبعت عشية الأيام بحركة الاصلاح الديني (Reformation) على صور من المقاطع والعبارات، تمثل طيوراً ووحوشاً نباتاً متولدة من بزور الأشجار.

على أن هذه النزعة العامة التي رمت الى استخدام العلم الطبيعي في أغراض دينية تدعو الى التقوى والصلاح، قد عاشت الى ما بعد عصر الاصلاح البروتستانتي. وكثيراً ما استخدمها «لوثر»، فكان في هذا الأمر مثالا احتذاه أتباعه، واستعين عليه بالأمثلة. ففي سنة ١٦١٢ نشر «وولفانج فرانز» (Wolfang Franz) أستاذ اللاهوت في جامعة لوثر كتابه الذي ألفه في تاريخ الحيوانات المقدس، وهو كتاب طبع عدة مرات متوالية، وقد تضمن هذا الكتاب تصنيفاً فائقاً للحيوانات، وصفت فيه التنانين الطبيعية التي لها ثلاثة صفوف من الأسنان في كل من الفكين، مضيفاً اليها في رهبة وتقوى قوله «أما التنين الأعظم فهو الشيطان»

وقبل نهاية هذا القرن، قبض الأب «كيرخر» (Kircher) وهو

أستاذ من عظماء اليسوعيين فى روما ، على زمام الشك مرة أخرى ، فأخضعه للتقاليد ، راجعا بالناس الى النظريات الارثوذكسية ، حتي لقد ذكر بين الحيوانات التى حماها نوح فى السفين «جنيات البحر» (Sirens) وهن فى الميثولوجيا فتيات جميلات سالبات للعقول ، ثم « الغرفين (١) » (Griffin) وهو حيوان خرافى برأس نسر وأجنحته وجسم سبع كبير.

غير أننا قد نلحظ ، حتي بين اللاهوتيين ، فى مختلف الازمان والامكنة ، روحا من الشك تغزو العقل الانسانى من طريق العلم الطبيعي. ففي أوائل ذلك القرن عينه — السابع عشر — نشر « ايوجين روغر » (Eugène Roger) كتابه « سياحات فى فلسطين » أما تلقاء الاقوال التى جاءت فى الكتب المقدسة فانه من أخص أهل الاورثوذكسية . ولقد صدر كتابه بخريطة، تظهر من بين الاشياء التي أشير اليها فى التاريخ الانجيلى المكان الذى قتل فيه شمشون ألفا من الفلسطينيين بفك حمار ، والكهف الذى عاش فيه آدم ومعه حواء بعد أن طردا من الجنة ، والبقعة التى تكلم فيها حمار « بلعام » والمكان الذى صارع فيه يعقوب أحد الملائكة، والمرتقي الوعر الذى دخلت فيه الشياطين أجسام الخنازير فاندفعت حتى ألقت بنفسها فى البحر ، والموضع الذى قام فيه التمثال الملحي الذى كان يوما امرأة لوط ، والمكان الذى ابتلع فيه الحوت يونس فى البحر ،

(١) يكتب (Griffin) أو (Grifon) وللكلمة اصل فى اليونانية واللاتينية معاً . والغرفين عربنا به الكلمة الأصلية . وفى ظنى ان هذا هو الذى اتبع فى التعريب إذ قيل تذون وفينوس وجوبتير فى الأسماء الميثولوجية . والغرفين حيوان خرافى يصور بجسم اسد ورأس نسر واجنحته ليمثل القوة والاستعلاء معاً

« وتعيين المكان الذى قبض فيه القديس بطرس على مائة وثلاثة وخمسين سمكة » .

أما فى التاريخ الطبيعي ، فانه يصف « البزليق Basilisk الأفعى الخرافية » بدقة وبكثير من الضبط اللاهوتى . فيقول إن الحيوان يبلغ قدما ونصفاً فى الطول ، وهو على صورة التمساح ، وانه يقتل الآدميين بنظرة واحدة . أما « البزليق » الذى رآه فكان لحسن حظه ميتاً ، لانه فى عصر البابا « ليو الرابع » (Leo IV) ، على ما يذكر المؤلف ، ظهر « بزليق » فى روما وقتل كثيراً من الناس بمجرد نظره اليهم . غير أن البابا قتله بصلواته وبرسم علامات الصليب . ويذكر المؤلف أن العناية القدسية قد شاءت بحكمتها ورحمتها أن تحمى الانسان بأن جعلت هذا الحيوان لا يبرح وجره ولا ينشط منه قبل أن يرسل صوتا عاليا مرتين أو ثلاث مرات ، وأن الحكمة الآلهية تظهر أيضا فى أن هذا الحيوان العظيم اضطر الى أن ينظر فى عين فريسته وعلى مسافة خاصة ، وقبل أن تنفذ نظرته من خلال مخ الفريسة الى القلب ، حيث يكون القضاء المحتوم . ومن ثم يتدرج فى ذكر الحكمة الآلهية الى القول ، بأنها رحمة وحنانا ، قد خصت صياح الديك بالقدرة على قتل البزليق .

غير أننا مع هذا نجد فى ثنايا إيمان هذا الرجل الطيب ، والمبشر المسلم بما جاءت به الكتب المقدسة ، آثاراً تنم على روح « باكون » منبثة فى تضاعيف عقله ، وعلى روح التجاريب فى العلم تتغلغل فى طيات نفسه . فانه بعد أن استقصى عدة روايات عن السمندل (Salamander) فتش حتى عثر على فرد منه ، ثم وضعه حياً على فحم يحترق ، وحكم بأن

الاساطير التى تذكر أن فى مستطاع السمندل أن يعيش فى النار غير صحيحة . وكذلك أجرى تجارب عديدة فى « الحرباء » (Chameleon) وحكم بأن الاقاصيص التى كانت تروى عن هذا الحيوان إذا كانت تتقبل بكثير من حسن الظن ؛ غير انه كان لا يحاول الحكم فى النصوص التى تتضمنها الكتب المقدسة ، ولو انه كان باحثاً الى عقله يستمد منه الوحي العلمى على القواعد الحديثة فيما عدا ذلك .

فى النصف الثانى من القرن السابع عشر بدأ الأستاذ « هوتنغر » (Hottinger) فى كتابه « بحث تاريخ الخليقة من الوجهة اللاهوتيه » طريقة جديدة بأن رفض الاعتقاد بوجود العنقاء (Phoenix) غير أن شكا كان قد ساوره فى تلك الحدود التى تأذن بها الكتب المقدسة ، فقد بنى شكه أولا على « أن الله قد خلق الحيوانات أزواجا ، بينما يُزعم بأن العنقاء فرد واحد لا زوج له » وثانيا « لان نوحا عندما دخل السفين أخذ من كل نوع من الحيوانات سبعا ، بينما لا نستدل على وجود هذا العدد من نوع العنقاء » وثالثا « لانه لا يوجد انسان يجرأ على أن يدعى بأنه رأى هذا الطائر » ورابعا « لان الذين يؤكدون وجود العنقاء يناقضون بعضهم بعضا » .

فلا عجب إذن ، بعد أن بدأ الشك يغزو العقل فى حقيقة السمندل والعنقاء ، اذا رأينا الشك يتغلغل فى النفوس ناقضا البزليق ، قبل أن يودع القرن السابع عشر الوجود . فان الاستاذ الكبير « كرتشمار » (Kretschmar) من جامعة « فورتمبرغ » قد تناول العنقاء والبزليق بالكلام ، ولكن على اعتقاد أنهما من الخرافات التى لم يقم عليها دليل . أما العنقاء

فأنكر وجودها ، لا لأن نوحاً لم يحمل معه في السفين طائراً بهذا الاسم فقط ، ولكن ، على حد قوله لأن « الطيور إنما تخرج من البيض لا من الرماد » أما « ذو القرن » (Unicorn) فلم ينكر وجوده ، ولكنه مع هذا لم يعتقد بأنه شيء سوى الكركدن (Rhinoceros) ولقد عمد الى « أيوب » والى « ماركوبولو » ليستدل بأقوالهما على وجود هذا الحيوان ويثبت أنه كائن حقيقي ثم يقول « من ذا الذي لا يخاف إنكار «الأونيقور» ما دامت الكتب المقدسة تذكره بكثير من الثناء المستطاب » أما غير ذلك من الحيوانات الكبرى التي تذكرها الكتب المقدسة ، فانه كان إزاءها من أخص أتباع الطريقة المغالية ، فذكر أن «البيهموث(١)»

(١) البيهموث (Behemoth) أصل الكلمة عبراني (ومنه في العربية بهيمة) وكان يدل بها على الأخص الحيوانات الداجنة ، ولكنها تطلق على الحيوانات المتوحشة . ولهذا نرى أن القرآن قد ميز (بهيمة الأنعام) عن (بهيمة السباع) وفي التوراة حيوان ذكر في سفر أيوب (الاصحاح الأربعون) ويقول بعض الباحثين انه قصد بالكلام فرس البحر (Hippopotamus) وكان يوجد حول مجرى النيل في أيام أيوب فيما يلي الشلال الأول . ويقول آخرون بأن الحيوان الذي ذكر في سفر أيوب قصد به الفيل . بينما يظن بعض الباحثين انه الكركدن (Rhinoceros) راجع القاموس الانسيكلوبيدي ص ٤٨١ مجلد أول . واليك ما جاء في سفر أيوب :—

« هوذا بهيموث الذي صنعته معك (والكلام هنا لأيوب) يأكل العشب مثل البقر . ها هي قوته في متنيه وشدته في عضل بطنه . يخفض ذنبه كارزة . عروق فخذيه مضفورة . عظامه أنابيب نحاس . جرمها حديد ممطول

(Behemoth) كان فيلا وأن « اللوياثان (١) Leviathan كان حوتا

هو اول اعمال الله . الذي صنعه اعطاه سيفه . لان الجبال تخرج له مرعى وجميع وحوش البر تلعب هناك . تحت السدرات يضطجع في ستر القصب والغمقة . تظلله السدرات بظلها . يحيط به صفصاف السواقي . هوذا النهر يفيض فلا يفر هو . يطمئن ولو اندفق الاردن في فمه . هل يؤخذ من امامه . هل يثقب انفه بخزامة » . ص ٦٤٣ طبع الامريكان

(١) اصل الكلمة عبراني من (لفاح) ويقصد بها اكليل او تاج . لذلك عبر بها للحيوانات التي تعقص اجسامها فتكون اشبه بالاكليل . وفي الميثولوجيا اى حيوان بحري كبير . وقال بعض الباحثين ان اللوياثان الذي ذكر في سفر ايوب قصد به تمساح النيل . (القاموس الاسيكلوبيدي ص ٥٧٥ مجلد ٤)

جاء في سفر ايوب الاصحاح الحادي والاربعون ما يلي والخطاب لايوب :—

« اتصطاد لوياثان بشص او تضغط لسانه بحبل ؟ اتضع أسلة في خطمه ام تثقب فكه بخزامة ؟ ايكثر التضرعات اليك ام يتكلم معك باللين ؟ هل يقطع معك عهداً فتتخذه عبداً مؤبداً ؟ اتلعب معه كالعصفور او تربطه لاجل فتياتك ؟ هل تحفر جماعة الصيادين لاجله حفرة او تقسمونه بين الكنعانيين ? اتملأ جلده حراباً ورأسه بالال السمك . ضع يدك عليه . لاتعد تذكر القتال . هوذا الرجاء به كاذب . الا يكب ايضاً برؤيته . ليس من شجاع يوقظه فمن يقف إذاً بوجهي . من تقدمني فأوفيه . ما تحت كل السموات هو لي »

« لا اسكت عن اعضائه وخبر قوته وبهجة عدته . من يكشف وجه لبسه ومن يدنو من مثنى لجمه . من يفتح مصراعي فمه . دائرة اسنانه مرعبة . فخره مجان ماتئة محكمة مضغوطة بخاتم . الواحد يمس الآخر فالريح لا تدخل منها .

كل منها ملتصق بصاحبه متلاصقة لا تنفصل . عطاسه يبعث نوراً وعيناه كهدب الصبح . من فيه تخرج مصابيح . شرار نار يتطاير منه . من منخريه يخرج دخان كانه من قدر منفوخ او من مرجل . نفسه يشعل جمراً ، ولهيب يخرج من فيه . فى عنقه تبيت القوة وامامه يدوس الهول . مطاوي لحمه متلاصقة مسبوكة عليه لا تتحرك . قلبه صلب كالحجر وقاسى كالرحى . عند نهوضه تفزع الاقوياء . من المخاوف يتيهون . سيف الذى يلحقه لا يقوم ولا رمح ولا مزراق ولا درع . يحسب الحديد كالتبن والنحاس كالعود النخر . لا يستفزه نبل القوس . حجارة المقلاع ترجع عنه كالقش . يحسب المقمعة كقش ويضحك من اهتزاز الرمح تحته قطع خزف حادة . يمدد نورجاً على الطين . يجعل العمق يغلى كالقدر ويجعل البحر كقدر عطارة . يضيء السبيل وراءه فيحسب اللج اشيب . ليس له فى الارض نظير . صنع لعدم الخوف . يشرف على كل متعال . هو ملك على كل بنى الكبرياء » .

ص ٦٤٤ طبع الامريكان

وجاء فى المزمور الرابع والسبعين ضمن (قصيدة لآساف) ما يأتى :—

« حتى متى يا الله يعير المقاوم ويهين العدو اسمك الى الغاية . لماذا ترد يدك ويمينك . أخرجها من وسط حضنك . افن . والله ملكى منذ القدم فاعل الخلاص فى وسط الارض . انت شققت البحار بقوتك . كسرت رؤوس التنانين على المياه . انت رضضت رؤوس لوياثان . (اللام والواو مكسورتان) جعلته طعاماً للشعب . لاهل البرية . انت فجرت عيناً وسيلا . انت يبست انهاراً دائمة الجريان . لك النهار ولك ايضاً الليل . انت هيأت النور والشمس . انت نصبت كل تخوم الارض الصيف والشتاء انت خلقتهما » .

ص ٦٨٧ طبع الامريكان

هذا غير قايل حتى نقع على « دانهوور » Dannhauer وقد اقتحم السبيل فخطا خطوة أخرى الى الامام معلناً شكه فى وجود « الاونيقور » ، وقنا بانه الكركدن بعينه ، ولا شىء غيره . وحتى ذلك الوقت ، وبعد أن بدأت بزور الشك تثمر هذه الثمرات ، كان تيار الفكر لا يزال يتحرك بقوة اللاهوت . فى سنة ١٧١٢ «نشر صموئيل بوخرت» Samuel Bochart كتابه فى حيوانات الكتاب المقدس . أما روح الكتاب فلا نستطيع أن تنقل صورة منها الا بذكر رؤوس بعض الفصول :

الفصل السادس — اسم الحصان فى العبرية .

الفصل السابع — لون الأحصنة الست التى ذكرت فى سفر زكريا

الفصل الثامن — الخيل التى ذكرت فى سفر أيوب .

الفصل التاسع — خيول سليمان والمنون التى يذكر مؤلفوها فضائل الخيل .

الفصل العاشر — خيول الشمس المقدسة .

ومن العناوين التى تقع عليها فى الفصول الأخرى ما يأتى . فى أتان بلعام [1] ، فى الألف من الفلسطينيين الذين قتلهم شمشون بفك حمار —

(١) جاء في سفر العدد اصحاح ٢٢ ص ١٩٣ من طبع الامريكان :

« فحمي غضب الله لأنه منطلق ووقف ملاك الرب له فى الطريق ليقاومه وهو راكب على اتانه وغلاماه معه . فأبصرت الأتان ملاك الرب واقفاً في الطريق وسيفه مسلول فى يده فمالت الأتان عن الطريق ومشت فى الحقل . فضرب بلعام الاتان ليردها الى الطريق . ثم وقف ملاك الرب فى خندق للكروم له حائط من هنا وحائط من هناك . فلما أبصرت الاتان ملاك الرب

في العجل الذهبي الذي صنعه هرون(١) والعجلين الذهبيين اللذين صنعهما يربعام Jeroboam(٢) في مأماة الشياه وألبانها وأصوافها وأعضائها الداخلية

زحمت الحائط وضغطت رجل بلعام بالحائط فضربها أيضاً . ثم اجتاز ملاك الرب أيضاً ووقف في مكان ضيق حيث ليس سبيل للنكوب يميناً أو شمالا . فلما أبصرت الأتان ملاك الرب ربضت تحت بلعام . فحمي غضب بلعام وضرب الأتان بالقضيب ففتح الرب فم الأتان فقالت لبلعام : ماذا صنعت بك حتى ضربتني الآن ثلاث دفعات . فقال بلعام للأتان لأنك ازدريت بي . لو كان في يدي سيف لكنت الآن قد قتلتك . فقالت الأتان لبلعام ألست أنا أتانك التي ركبت عليها منذ وجودك الى هذا اليوم ؟ هل تعودت أن أفعل بك هكذا ؟ فقال لا » الخ الخ .

(١) جاء في سفر الخروج اصحاح ٣٢ ص ١٠٨ من طبعة الامريكان :

« ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون . وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا . لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه ! فقال لهم هرون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها . فنزع الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها الى هرون . فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكا . فقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر . فلما نظر هرون بنى مذبحاً أمامه . ونادى هرون وقال غداً عيد للرب . فبكروا في الغد واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة . وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب » .

(٢) وجاء في سفر الملوك الاول اصحاح ١٢ ص ٤٣٢ من طبعة الامريكان

« وبنى يربعام شكيم في جبل إفرايم وسكن بها . ثم خرج من هناك وبنى فنوئيل . وقال يربعام في قلبه الآن ترجع المملكة الى بيت داود .

والخارجية كما ذكرت في الكتب المقدسة ، في الأشياء ذوات الخطر التي ذكرت في الكتب المقدسة عن الأسد ، في حمامة نوح والحمامة التي ظهرت عند تعميد المسيح. ولقد امتزج في خلال الكتاب كثير من الحقائق التي أتى عليها الطبيعيون خلال أبحاثهم المستفيضة في الحيوانات . غير أنها امتزجت بالأقوال اللاهوتية امتزاجا اضاع قيمتها ، وأصبح الكتاب في مجموعه عبارة عن جملة من الفصول تفيض بالروح اللاهوتية الرسيسة .

بعد أن ظلت الأبحاث الطبيعية خاضعة للروح اللاهوتي طوال ألفين كاملات من السنين ، نقع في أواسط القرن السادس عشر على بدايات جديدة تنم عن أسلوب حديث لم يكن قد عرف من قبل — هو الاسلوب العلمي في بحث معميات الطبيعة — وهو أسلوب ينطوي في جوهره على البحث وراء الحقائق لذاتها ، وينتكب جهد المستطاع الجري وراء المزينات العقلية والنفسية . ففي ذلك الحين بدأ « ادوارد ووطون » Edward Wotton في انجلترا « وكونراد غسنر » Conrad Gesner في القارة الأوروبية ، يفتحان السبيل بملاحظات طبيعية ، كان فيها من الاستفاضة والاطناب ، بقدر ما بث فيها من العناية والدقة ، وأثر الفكرة العلمية في التبويب والنسق .

ان صعد هذا الشعب ليقربوا ذبائح في بيت الرب في أورشليم يرجع قلب هذا الشعب الى سيدهم الى رحبعام ملك يهوذا ويقتلوني ويرجعوا الى رحبعام ملك يهوذا . فاستشار الملك وعمل عجلي ذهب وقال لهم : كثير عليكم أن تصعدوا الى أورشليم . هوذا آلهتك يااسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر . ووضع واحداً في بيت أيل وجعل الآخر في دان » الخ الخ .

ولقد كان لذيوع هذا الاسلوب العقلي في بحث الطبيعة واستقصاء أسرارها نتائج أدت الى تكوين جمعيات قامت على فكرة البحث منتحية هذا الاسلوب . ففي سنة ١٥٦٠ تألفت « أكاذيمية البحث الطبيعي » في نابولي . غير أن اللاهوتيين ، وقد تولاهم الانزعاج والفزع ، أصروا بحلها . ومرت من بعد ذلك مئة سنة على وجه التقريب حتى عادت فكرة التعاون على البحث العلمي تختمر في الرؤوس مرة أخرى ، فالتأمت في لندن سنة ١٦٤٥ تلك الاجتماعات العلمية التي تمخضت من بعد عن الجمعية الملكية Royal Society ثم تلت هذه اكاذيمية العلوم في فرنسا ، ومن بعدها « الاكاذيميا دل سيمنتو » Accademia del Cimento في ايطاليا ثم انتشرت جمعيات البحث العلمي ومنتدياته من بعد ذلك في كل بقاع الأرض . وبذلك بدأت نهضة جديدة لها أثرها الخالد في تاريخ العلوم والمدنية .

وسرعان ما خيل للاهوتيين أن في هذه النهضة خطرا وأن وراءها تكمن كارثة . ففي ايطاليا رشي اللاهوتيين الامير ليوبولد دومديتشي Leopold de Medici بأن منحوه « قبعة » الكردينالية ، وكان يعتبر حاميا للدمار أكاذيمية فلورنسا ، ليرفع عنها حمايته . ومنذ زمان البابا اربان الثامن حتى عصر بيوس التاسع Pio nono سادت الكنيسة مثل هذه الروح أما في فرنسا فقد تدخل رجال الكنيسة في ابحاث العلماء مرات عديدة ، لم تكن اهانة العلامة « بافون » Buffon لتقريره بعض الحقائق العلمية ، إلا مثلا لها وعنوانا عليها . وكذلك كانت الحال في انجلترا . فان البروتستانتية لم تكن هنالك بأكثر عطفا على الجمعية الملكية لدى أول

تكوينها من غيرها من شعب الكنيسة ؛ حتى لقد أنكرها دكتور « سويث » Dr. South ورماها بأنها خارجة على الدين. ومن حسن الحظ أن قام في تلك الازمان حائل واحد منع الاصطدام العلني بين اللاهوت والعلم. وانحصر هذا الحائل في نزعة علمية كانت بدورها خطأ كبيراً. فان الباحثين في حين أنهم نبذوا الاسلوب القديم الذي جرى عليه اسلافهم في العصور الوسطى ، وكان من أعز ما عند الكنيسة عليها ، قد مضوا عاكفين على فكرة الخلق المباشر وعلى فكرة القصد والغاية التي تكمن وراء كل صور المخلوقات ؛ وأن هذا القصد لم يرم الى شيء اللهم الا الى فائدة الانسان وتثقيفه وادخال المسرة والجذل على نفسه بكل الوسائل.

على هذا وجدت الميول اللاهوتية ، على ما فيها من نزعة طبيعية الى الجلاد والصراع ، سبيلا قويا لنسالم العلم. في حين أن العلم ، ولو أنه كان قد تحرر من كثير من القيود الثقيلة التي قيدته من قبل ، قد أصبح ساعد اللاهوت الأيمن اذ كان يزود اللاهوتيين بما يفسرون به مذهب القصد الخالق ، ولكن مع ابداء الاحترام والتبجيل ، ولو في الظاهر ، لتلك الاساطير والخرافات الكلدانية وغيرها مما تتضمن الكتب العبرانية المقدسة.

حوالي منتصف القرن السابع عشر انتصر العلم على اللاهوت انتصارا تاما في معركة فاصلة. ففي ذلك العهد نشر « فرانشسكو ريدي » — Francesco Redi — نتائج أبحاثه التي عقدها في مذهب « التولد الذاتي » [1] — Spontaneous generation — فقد مضت عصور وكرت

(١) المذهب القائل بان الحي قد يتولد من غير الحي.

دهور والناس يعتقدون بصحة مذهب محصله أن الماء والاقذار والجيف قد وهبها الخالق القدرة على توليد الديدان والحشرات وعديد وافر جداً الوفرة من الحيوانات الدنيا. ولقد رحب القديس أوغسطين وكثير من آباء الكنيسة بهذا المذهب ما دام أنه يكفى الله الواحد القهار مؤونة خلق هذه الأنواع الحقيرة الوافرة العدد، كما أنه ينقذ آدم من متاعب تسميتها، وينجى نوحاً من أن يعيش فى الفلك معها. غير أن « ريدى » قد قضى بأبحاثه على هذه الترهات. فانه مضى فى ابحاث مستفيضة لا محل لذكرها هنا، أظهر من طريقها أن كلا من هذه الحيوانات إنما يتولد من بيضة، وان هذا يدل على أن افرادها لابد من أن تكون نتاجا لحيوان خلقه الله، وسماه آدم، وحمله نوح، منذ بدء الخليقة الى الآن.

وظهرت فى انجلترا مؤلفات شبيهة بهذه. ولكنها كانت اكثر خضوعا للروح اللاهوتية. ففى القرن ذاته — السابع عشر — نشر الباحث الطبيعى « جون راى » — John Ray — كتابا حاز شهرة وانتشاراً واسعا. وكان « راى » احد اعضاء الجمعية الملكية وألف عدداً من الكتب فى النباتات والاسماك والطيور. غير أن أعم هذه الكتب انتشاراً واكثرها ذيوعا بين الجمهور، كان كتابه الذى اسماه « الحكمة الآلهية كما تظهر فى اعمال الخالق » ولقد طبع هذا الكتاب عشرين طبعة متوالية ما بين عامى ١٦٩١ و ١٨٢٧.

اما « راى » — Ray — فقد استدل على حكمة الله بضروب المكافآت التى رآها فى الحيوانات، لا من جهة فائدتها للانسان لا غير، بل من جهة الملاءمات

الواقعة بين حياة بعضها وبعض ، وكذلك بينها وبين بيئاتها التي تعيش مكتنفة بها .

في السنين الاولى من القرن الثامن عشر نشر الدكتور « نحمياه غرو » Dr. Nehemiah Grew احد أعضاء الجمعية الملكية كتابا اسماه « الكونيات المقدسة » Cosmologia Sacra حاول فيه أن ينقض كل الآراء التي ذاعت مناقضة لما جاء في الكتب المقدسة ، وعمد في تدليله الى البرهنة على القصد والغاية من وجود المخلوقات . ولما أراد أن يدلل في سياق مؤلفه على « الغايات التي رمت اليها العناية الالهية » قال :

« ان الكراكي وهي طيور لحومها غير جيدة ، لا تضع اناثها الا بيضتان في السنة . في حين أن الطواويس والحجلان تقفس خمسة عشرة أو عشرين بيضة ، لانها طيور جيدة اللحم » .

ولقد أشار بعد ذلك الى أن الطيور التي تضع قليلا من البيض ، اذا كانت ذات فائدة ، كدجاج الارض والحمام ، فانها تحضن اسرع من غيرها . ومن ثم حاول أن يناقض فكرة القائلين بأن الاشياء المضرة في الطبيعة قد خلقت نتيجة لخطيئة الانسان ، بان ادعى بانها ذات فائدة . فذكر أن « لدغ البرغوث إنما يحفزنا الى البحث عن دواء يشفى الاطفال والماشية » وان « العوسج والقتاد اذا أضر بالانسان من ناحية فانه يفيده في أن يتخذ منهما سياجا يحتمي به » . وان « هذه الاشواك اذا اضرت بعض الشيء بصاحبها فانها تمنع عنه غوائل اللصوص » وان « بنات عرس والحدادي وغيرها من الحيوانات الضارة تحفزنا الى التنبه والحذر » وأن « القمل يحفزنا الى نظافة أجسامنا ، والعناكب الى نظافة بيوتنا ، والبراغيث

الى نظافة ثيابنا » .

وهذه النظرة التفاؤلية ، بعد أن انتصرت على النظرية اللاهوتية القائلة بان الاشياء المضرة قد خلقت تبعا لخطيئة الانسان ، والتى أذاعها القديس أوغسطين وظلت فى اوجها الى عهد « ويزلى » Wesley قد مضت متطورة فتكونت فى صورة أكثر رقيا وأنبل مرمى خلال القرن الثامن عشر ، إذ تعهدها بالتهذيب كثير من المفكرين وعلى الاخص « بالى » Paley كبير الاساقفة ، فى كتابه « اللاهوت الطبيعى » Natural Theology الذى ظل مؤثرا فى صور الفكر الى عهد قريب .

ولقد ظهرت ميول متشابهة لهذه الميول الحرة فى ممالك اخرى غير انجلترا ، ولو أن كثيراً من الفلاسفة قد أبانوا عن كثير مما فيه من أوجه الضعف ، وعلى الرغم من أن « جوته » قد هزأ بها فى بعض أشعاره المعروفة بأن شكر الله لانه وضع تصميم شجر الفلين ليتخذ منه فى المستقبل سدادات نسد بها زجاجاتنا ! !

قبل أن ينتصف القرن التاسع عشر بقليل ، انتهت هذه الحركة بنشر تلك المقالات المشهورة التى عرفت باسم « مقالات بردجووتر » Bridgewater Treatises وقصة هذه المقالات أن رئيس الجمعية الملكية ، اجابة لرغبة إرل بردجووتر الثامن ، قد انتخب ثمانية اشخاص ، خصص لكل منهم ألفا من الجنيهات الانجليزية نظير أن يكتب كل منهم مقالا مستفيضا فى « قوة الله وحكمته وخيريته كما تظهر آثارها فى المخلوقات » وكان من امتع ما طبع من هذه المقالات خاصة بعالم الحياة مقالة العلامة « توماس شالمرز » Thomas Chalmers وعنوانها « تكافؤ الطبيعة الخارجية مع

حالات الانسان العقلية والادبية ومقالات «شير شارلز بل» Charles Bell وعنوانها «القدرة مظهرة في القصد»، ومقاله «روجت» Roget وعنوانها «الفسيولوجيا النباتية والحيوانية من طريق علاقتها باللاهوت الطبيعي» ومقالة الاستاذ «كربي» Kirby وعنوانها «عادات الحيوانات وغرائزها من طريق علاقتها باللاهوت الطبيعي».

وفضلا عن هذا فقد ظهرت مقالات أخرى كتبها هيوبل Whewell وبوكلاند Buckland وكد Kidd وبروت Prout. ولقد نجح هذا العمل نجاحاً كبيراً، دل على رقي كبير بزّ كل ما تقدم من نوعه مادة واسلوبا وروحا. أما اذا نظرنا الى هذه المقالات اليوم فانا لا يسعنا أن نقول فيها انها كانت أكثر من أشياء تمهيدية مرهونة باوقاتها، ولو انها أدت بدورها الى استكشاف حقائق ما. ولا يجدر بنا أن ننسى قولة العلامة «داروين» المعروفة، إذ يقول بان النظريات اذا كانت خطأ ادى البحث فيها ومناقشتها الى الحق واليقين. على الضد من المشاهدات اذا كانت فاسدة فانها دائما تضل الباحثين ضلالا كبيرا

ان جهدا كهذا، كله نبالة في القصد وسمو في الروح، لا يستحق أن يستهدف الى ما استهدف اليه من السخرية. ومن العجيب أن يكون من اقذع ما سدد اليه من سهام النقد ما وجهه اليه حديثا احد كبار المدافعين عن الارثوذكسية المتأثين حمية المشبوبين بحماسة اليقين. فان عاما من رافعي ألوية الايمان، ونعني به المحترم الاستاذ «زوكلر» Rev. Prof. Zockler قد قال عن هذه الحركة التي رمت الى اظهار القصد والغاية في الخلق كما قال في القائمين بها — «ان الأرض قد ظهرت في

اقوالهم كأنها حانوت تباع فيه الملابس الخلقة وفندق لبيع الحساء. أما الله فقد صور على أنه احد الاساتذة العقليين Rationalistic مجسم تجسيما. ولا جرم أن هذه الاقوال ببعد أن تكون انصافا لما تصوره بطلر وبالى وشامرز، مع قطع النظر عن مقدار ما فاتهم به العالم الحديث من التقدم فى الفكرتين العلمية والفلسفية.

ولكن على الرغم مما كان فى عمل هؤلاء الافذاذ من نبل وجلال، فان الحقائق التى اسسوا عليها نظرياتهم قد اخذت مع الزمن تفقد كثيراً من قوتها، وتتزعزع أركانها.

فمنذ القرن السابع عشر اخذ كبار اللاهوتيين يشعرون بان متاعب كبرى قد أخذت تعترض سبيلهم هى انكى وأبعد أثرا من كل ما واجهوه من قبل. فقد بان مع مر الزمن وكر الدهر، أن الأنواع الحية المختلفة التى عمرت الارض هى اكثر عددا مما خيل الى الناس. ومن ثم زادت صعوبة القول بان هذه الانواع الكثيرة المختلفة البنى والتكوين قد خلقت خلقا مستقلا بقدرة الله المباشرة وكذلك القول بان الانواع قد مرت امام آدم ليسميها. وكذلك الزعم بانها حشرت فى سفينة نوح ازواجاً أو سبعات، أى سبعة أفراد من كل نوع. غير أن المصاعب التى قامت فى هذه الطريق، لم تكن شيئا مذكوراً اذا قورنت بما قام فى طريق البحث فى توزيع الحيوانات والنباتات الجغرافى. Geographical Distribution

إذا رجعت الى الايام الاولى التى شبت فيها الكنيسة النصرانية، فانك تجد أن البحث فى هذا الموضوع قد أثار فكرات ذات أثر، وعلى

الاخص فى عقل القديس أوغسطين. فقد شرح فى كتابه المسمى (مدينة الله) هذه الصعوبة فى القالب الآتى ـ « هنالك صعوبة تواجهنا تلقاء البحث فى كل أنواع البهائم التى لم يتمكن الانسان من تأليفها، ولم تنشأ من الأرض كما تنشأ الضفادع؛ كالذئاب من أنواع السباع؛ وعلى الاخص اذا تساءلنا كيف استطاعت أن تشق طريقها الى الجزر النائية بعد ذلك الطوفان العظيم الذى اعدم كل الأحياء التى لم تحفظ منها « عينات » فى الفلك المشحون؟ لا جرم أن بعض الحيوانات يمكن أن تصل الجزر سابحة فى الماء؛ فى حالة ما اذا كانت تلك الجزر قريبة من اليابسة. غير أن بعض الجزر بعيدة عن الشاطىء بعداً شاسعا؛ حتى انه من المتعذر على أى مخلوق أنه يصل اليها سابحا. على أنه لا يبعد عن التصديق أن تكون بعض هذه الحيوانات قد اقتنصها الانسان وحملها معه الى تلك الجزر التى أراد أن يستعمرها، ليلهو بها فى الصيد ويتخذها وسيلة للتسلية. كذلك لا يمكن أن ننكر أنه من الجائز أن يكون نقلها قد تم بفعل الملائكة، وقد أمرهم الله أو سمح لهم على أن يقوموا بهذه المأمورية »

غير أن هذه المشكلة الطبيعية قد وصلت حدا لم تقم منه صورة ولو ضعيفة فى عقل القديس أوغسطين. وكان من أكبر الاشياء التى امدتها بالقوة وعززتها بالغلبة والسلطان، تلك السياحات الكبيرة التى قام بها كولومبوس وفاسكو دى غاما وماجلان وامريجو فسبوتشى وغيرهم من الافذاذ الذين ظهروا فى عصر الاستكشاف البحرى. وزادت اهميتها عندما استكشفت جزائر البحار الكبرى التى تغشاها مياه المحيطات الجنوبية. فان كل مستكشف قد نقل معه بعد اتمام سياحته اخبارا عن أنواع

جديدة من الحيوانات ؛ وسلالات جديدة من سلالات النوع البشرى تعيش فى بقاع من الأرض ، طالما أعان اللاهوتيون ؛ اعتماداً على ما قال القديس بولس من أن صوت الكتب المقدسة قد انتشر فى كل بقاع الأرض ، أنها غير موجودة أصلا . ولقد زاد شغل هذه الحقائق على التصور الكنسى ، حتى اتخذ نزع اللاهوتيون الى القول بأن الملائكة طوعاً لإرادة الله ؛ وقد هموا بأن يوزعوا الحيوانات على وجه البسيطة ، قذفوا بالمغاثيروم ـ Megatherium ـ فى جنوب أمريكا والارخيوبتريكس ـ Archeopteryx ـ فى أوروبا ، وخلد الماء الاورنيثورنكس Ornithorhynchus فى أوستراليا ، والابسوم ـ Opossum ـ فى شمال أمريكا ! ! !

كان أول من كشف القناع عن هذه المشكلات المعضمة « يوسف آكوستا » — Joseph Acosta — أحد مبشرى اليسوعيين . فقد ظهر فى كتابه المعروف باسم « تاريخ جزائر الهند طبيعياً وأدبياً » الذى نشر فى سنة ١٥٩٠ ، بمظهر الامانة والتفكير المستنير . وعلى الرغم من أنه ظل مقيداً بكثير من التفسيرات القديمة التى فسرت بها الكتب المقدسة ، فانه تخلص من الكثير منها . غير أن توزيع الحيوانات الجغرافى كان من الاسباب التى أتعبته وأعنتته تفكيراً وبحثاً . فانه بعد أن أظهر أن بيانات القديس أوغسطين عقيمة ولا قيمة لها تساءل : « من ذا الذى يتصور أن الانسان خلال هجرة طويلة الى بلاد « بيرو » ـ Peru ـ قام بالتفكير فى أن يتحمل المشقة ويحمل معه الثعالب الى تلك البلاد النائية ، وعلى الاخص ذلك النوع المعروف هناك باسم « آشياس » ـ Acus ـ وهو أقذر ما رأيت من نوعه ؟ ومن ذا الذى يجرأ على القول بأنه حمل معه النمور والاسود ؟

ولا جرم أن هذه الأقوال الجديرة بأن يضحك منها ويهزأ بها . ولا شبهة مطلقا فى أن الناس وهم معرضون لخطر البحار فى سفر طويل كهذا ، لا يعنون بشيء الا بانقاذ أرواحهم اولا ، من غير أن يحملوا معهم الذئاب والثعالب ، وان يغذوهم ويمنونهم ، وهم بما بين ظفر البحر ونابه» !!!

ولقد كان لنشر هذه الحقائق آثار جليلة حفزت « إبراهام مايوس » Abraham Milius أن ينشر فى جينيف سنة ١٦٦٧ كتابه المعروف « أصل الحيوانات وهجرة الامم » . وهذا الكتاب يظهر بوضوح كاف ، كما أظهر من قبل كتاب « اكوستا » ، عظم تلك الصدمة الشديدة التى أصابت نظام الاشياء على ما عرفت فى العالم اللاهوتى بعد استكشاف امريكا . ولقد نشر هذا الكتاب بمصادقة خاصة صدرت من اسقف « سالزبرج » اشارت الى إمكان العثور على حل ينتفى معه كل ما يترتب على هذا الاشكال الكبير ، اذا رجعنا الى نص المتن الاصلى فى سفر التكوين اذ فيه : —

« وقال الله لتخرج الأرض ذوات انفس حية كجنسها » . (١) ولقد مضى « ميليوس » فى كتابه محاولا أن يظهر أن قدماء الفلاسفة يتفقون مع موسى وان — « الارض والمياه ، وعلى الاخص حرارة الشمس والأرض الأصلية مع ما فيها من صفات اللزوجة والتعفن ، تلك الصفات التى يلوح لنا أنها من الصفات الخصيصة بطبيعة الأرض ، قد يمكن أن تكون العلة التى نشأت عنها الاسماك والحيوانات الأرضية والطيور » . غير انه من جهة أخرى يفسو كل القسوة على أولئك الذين

---

١ راجع سفر التكوين الاصحاح الاول ٢٥ ص ٢ من الطبعة الامريكية

يقولون بأن الانسان يشارك الحيوانات فى نشأتها وانه يعود واياها الى اصل واحد. أما الموضوع الذى انفق فيه مايوس كل جهده فكان «توزع الحيوانات الجغرافى». ولقد أدرت فيه حقيقة وجود تلك الانواع الكثيرة التى تأهل بها امريكا وكثير من الجزائر النائية المنبوذة فى جوف المحيطات العظمى، تلك الانواع التى لم نعرف فى القارات الأخرى؛ كما كان وجود تلك الانواع فى تلك البقاع النائية البعيدة من كرة الأرض وعدم وجودها بالقرب من جبل «أرارات» أكبر المشاكل العلمية التى شغلته وحوطته بمتاعبها. ولقد كان ذلك سببا فى أن يعترف هذا المؤلف بأن تعليل توزع الحيوانات الجغرافى اشكل المشكلات وأشق المعضلات. ولقد سائل نفسه: اذا كان من الممكن للطيور أن تصل الى امريكا طائرة وللاسماك أن تصلها سابحة — فكيف تعلل وصول السوائم التى لا تطير ولا تسبح.» وعاد فسائل نفسه فى الطيور فقال.

«الا يوجد من بين ذوات الأجنحة تنوعات لا عدادها لا تطير الا ببطء عظيم وتثاقل، وهى على ذلك شديدة الخوف من الماء، حتى أنها لا تجرأ على أن تسلم بنفسها طائرة فوق نهر قليل الاتساع»؟. ولما رجع الى الاسماك قال: «إنها تنفر فى العادة نفورا شديداً من مغادرة مياهها الاصلية» واظهر بعد ذلك أن كثيراً من أنواع الاسماك التى تعيش فى مياه امريكا ومياه الهند الشرقية لم تعرف من قبل فى القارات الأخرى، وأن وجودها فى تلك المواطن لا يمكن تعليله بأية نظرية من النظريات التى يعلل بها توزع الحيوانات الطبيعي على وجه الأرض»

اما ازاء القائلين بأن حيوانات الارض من الجائز أن تكون قد

توزعت فى أنحاء الكرة بفعل الانسان ، إما للانتفاع وإما للتسلية بها فان يتساءل ، من ذا من الجنس البشرى يرغب فى أن يحمل معه على ظهر مركب سباعا ودببة ونمورا وغير ذلك من الحيوانات المفترسة المضرة ، ومن ذا الذى يأمن على نفسه معها ، ومن ذلك الذى يود أن يوجد جماعات كثيرة منها فى بقاع جديدة اتجهت ارادة الانسان الى استعمارها وكانت خلوا منها ؟ »

اما النتيجة الاخيرة التى وصل اليها فكانت القول بان النباتات والحيوانات إنما تتأصل فى نفس البقاع التى توجد فيها . وهى فكرة اخذ يؤيدها بمقاطيع من تينك الروايتين اللتين وردتا فى سفر التكوين ، واللتين تشيران الى صفة « التأصيل — اى الخلق — التى اختصت بها الأرض والمياه .

غير أن الحالات التى قامت خلال القرن الثامن عشر كانت على وجهة النظر اللاهوتية أشد قسوة وأمر ثمراً . ولقد عمد « دوم كالمت » ـ Dom Calmet ـ البندكتى المعروف فى تعليقاته ـ Commentary ـ ليستقوى على الصعاب التى واجهت اللاهوت النصرانى فى ذلك الزمان ، الى الاعتقاد بأن كل الانواع التى تلحق بجنس ما من أجناس الأحياء كانت تكوّن فى الاصل نوعا واحدا . ولقد تشبث بهذا الاعتقاد على اعتبار انه السبيل الاوحد الذى يمكن أن يعلل به الباحثون امكان جمع زوج من كل نوع من أنواع الحيوانات فى سفينة نوح . غير أن هذا الرأى ، على الرغم مما فيه من خطر واضح على الفكرة الاورثوذوكسية ،

وعلى ما يتضمن من مناقضة صريحة للمذهب الذي استمسكت الكنيسة بعراه ، فالظاهر انه كان كثير الذيوع بين المفكرين خارج الكنيسة، حتى لنجد أن رجالا من طبقة « لينيوس » — Linneaeus — قد عمدوا الى التفكير فيه خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر . ولقد كان من الضروري في ذلك الحين أن تنشأ نظرية لاهوتية اخرى متطورة عن النظريات الاولى بعد أن نضج الزمان لظهورها . ولقد حدث أن « لينيوس » العظيم ، على الرغم مما عان عنه من شدة اقتناعه بثبات الانواع وخلقها مستقلة ، قد قذف النظرية القديمة بقذيفة ذهبت بها بددا وحطمتها تحطيما . ففي كتابه المعروف باسم « النظام الطبيعي » — Systema Naturae — الذي نشر في أواسط القرن الثامن عشر ، أحصى أربعة آلاف نوع من أنواع الحيوانات ، فظهرت إذ ذاك الصعوبة التي صادفت آدم في تسميتها والصعوبة التي قامت من جراء حملها في سفينة نوح ، ظاهرة لكل المفكرين ظهوراً جعل حل المعضلة اقل سهولة واكثر صعوبة .

وتراكمت المصاعب حتى اصبحت مصمضة ممضة . فان عدد الأنواع المعينة قد مضى في الزيادة زيادة كبيرة حتى أن أحد كبار الزولوجيين وثقاتهم المجربين من معاصرينا قد ذهب الى انه — « بجانب كل نوع من الانواع التي احصاها « لينيوس » قد عرف الطبيعيون خمسين نوعاً آخر ، وانه لا شك فيه أن عدد الأنواع التي لم تعرف بعد يزيد على عدد الانواع التي عرفت بالفعل »

على أنه كانت قد نامت في الاذهان مصاعب اخرى من جراء ما عمدت اليه الكتب المنزلة . اذ كان من الضروري ، على مذاهب اللاهوتيين ، أن يحدث ٣٦٠ فعلا خاصا من أفعال الخالق المعجزة يقوم بها

الخالق ليوجد ٣٦٠ نوعا من الاصداف الأرضية التي تعيش في جزيرة « ماديرا » وحدها على صغر مساحتها ، وان يحدث ١٤٠٠ فعلا من افعال الخالق المستقل ليوجد الخالق العدد الموجود من صور نوع واحد من الاصداف المعروفة .

كذلك ازدادت الصعاب عندما عرض للمفكرين البحث في توزيع الحيوانات الجغرافي واستيطانها على سطح الكرة الأرضية . وكانت كلما ازدادت الاستكشافات الجغرافية ، ازداد ذلك الخطر الذي داهم الفكرة اللاهوتية . ولقد كان العثور على آثار «السلوث» ــ Sloth ــ في امريكا الجنوبية سببا في قيام اسئلة ممضة إذ قيل — . كيف يمكن لحيوانات تبلغ من ثقل الجثة مبلغ هذه أن تهاجر من أرارات — حيث رست سفينة نوح — وأن تسافر الى مثل هذه البقاع القصية ؟

وكان للاستكشافات التي وقع عليها الرواد في اوستراليا وما يجاورها من الجزائر آثاراً اشد مرارة . فقد عثر الباحثون في تلك البقاع على عالم من الحيوان يختلف جهد الاختلاف عن عالم الحيوان الذي عرف في بقية بقاع الأرض .

اما الاشكال الذي قام في وجه اللاهوتيين فكان محاولة تعليل وجود « الكنغر » ــ Kangaro ــ في سفينة نوح في حين أنه لا يوجد الآن الا في اوستراليا وحدها دون بقية البقاع المعروفة . وعلى الرغم من أن قدرة هذا الحيوان كبيرة ، فانه يبقى أمام اللاهوتيين أن يظهروا كيف استطاع هذا الحيوان وبأي قدر من القفزات المتوالية ، أن يجتاز الجبال والوديان وانه يعبر المحيطات التي تفصل هذه القارة البعيدة عن بقية قارات

الأرض ؟ اما اذا قيل بتلك النظرية التى يزعم اصحابها بأن طريقاً للانصال كان يصل فى الازمان الاولى ما يفصل الآن بين تلك القارة واقرب قارة اليها، فانه يبقى أمام القائلين بهذه النظرية ان يظهروا لماذا لم تستطع الاسود والنمور والجمال والزراف أن يجدوا طريقاً أو يقتحموا الحواجز اليها ؟

من هنا نرى أن النظرية اللاهوتية قد تحطمت وذهبت بددا وأجزاء فى أواخر القرن الثامن عشر . اما عقلاء اللاهوتيين فقد تريثوا متلبثين . اما الحمقى منهم فقد نزعوا الى الانذار والتهديد ليقتلعوا جذور الانكار والكفران » وانكروا « العلم الذى يسمى علما بطريق الخطأ معانين فى كثير من النزف « أن الأناجيل صحيحة » - فى حين انهم لم يعنوا بقولهم ان الاناجيل صحيحة الا ان الفهم المحدود الذى فهموا به الاناجيل والذى ورثوه عمن سبقهم صحيح استنباطا .

لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى بان لكل المفكرين بجلاء كاف أن النظرية اللاهوتية فى الخلق قد تقضت تماماً، ولو أنها كانت تردد فى جنبات الكنائس احتفاظا بالشكل دون الموضوع . ولقد نهض رجال عظام من رجالات الكنيسة امثال الكردينال « ويزمان » فى الكنيسة الرومانية، والاسقف بوكلاند فى الكنيسة الأنغليكانية، وهيومولار فى الكنيسة الايقوسية، يعملون بجهد اليائس لعلهم يفوزون بانقاذ شيء من ذلك المعتقد ، ولكنها كانت جهود ضاعت سدى وذهبت هباء . وهنا ظهرت صفة الامانة الصلبة القوية التى عشت فى صدور التيوتون والانجلوسكسون ، والتى هى لدى الواقع انبل ميراث أورثته العصور

الوسطى للعالم ، تحقق وجودها فى القلاع القديمة التى احتمت وراء حصونها المذاهب اللاهوتية ، ونعنى بها الجامعات. فلا منطق الاسقف « بطلر » على قوته، ولا معقولات رئيس الاساقفة « بالى » ـ Paley ـ على روعتها، قد اغنت عن الكنيسة شيئاً . فكما استطاع مفكروا الفلكيين من كوبرنيكوس الى نيوتن أن يحطموا النظام الفلكى القديم الذى كانت الارض فيه مركز النظام الكونى والله الواحد القهار جالس فوق الجلد السماوى على أنه السبب المباشر الذى يحرك الاجرام السماوية بيديه ، كذلك استطاعت سلسلة منظومة من عظماء البيولوجيين أن ينقضوا الفكرة القديمة التى تركزت من حول خالق يعمل جاهداً فى أن يصور الحيوانات ويصبها فى قالب خاص لتكون مفيدة للانسان . انهم وضعوا للحياة نظاماً جديداً . وهذ ما سوف نتكلم فيه بعد .

٣ ـ النظريات اللاهوتية والعلمية في تطور الطبيعة الحية

فكرة التطور عند القدماء — فكرة التطور في الكنيسة خلال عصورها الاولى، وفي خلال العصور الوسطى — نشوء هذه الفكرة في القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر — اعمال ددميلنه — لينوس ودهبافون — تقدم فكرة التطور في نهاية القرن الثامن عشر — أعمال ترفيرانوس ولامارك — جفروى سانتيلير وكوفييه — تقدم نظرية التطور حتى أواسط القرن التاسع عشر — أعمال وولاس وداروين — معارضة اغاسيز .

* * *

ورأينا حتى الآن كيف نبتت في عقلية النوع البشرى فكرة خلق الكون المنظور وما يأهل به من الاحياء خلقا موقوتا كاملا ؛ وفكرة وجود خالق على صورة بشرية وبخصائص بشرية ، تكلم فبرزت المادة الى الوجود فعلا بان حرك أوتار صوته وشفتيه ، أو أنه صور المادة بيديه وأصابعه ووضعها حيث هي موجودة الآن .

ورأينا أيضاً أن هذه الفكرة قد ورثت منذ أزمان بعيدة ، وأنها كانت احدى المعتقدات الذائعة في المدنيات الكلدانية البابلية ومدنية مصر القديمة ، وأنها ربما كانت موجودة في مدنيات أولى تفصلها عن زماننا هذا أبعد عهد يمكن أن يقدره التاريخ المعروف . وعرفنا أن صور هذه المعتقدات قد انتقلت الى كتب اليهود المقدسة ، ومن ثم الى الكنائس النصرانية الاولى ، التى عمل لاهوتيوها على تنمية هذه المعتقدات خلال العصور الوسطى ، واحتفظوا بها خلال العصور الحديثة .

غير أن هذه النظرية بينما كانت تنمو وتتطور بجهد سلسلة من

عظماء الرجال الذين اتصفوا برجاحة العقل ونبل المقصد على طول آلاف كثيرة من السنين ، نشأ بجانبها تصور آخر كان يناوىء هذه النظرية حينا أو يختلط بها حينا آخر . ذلك هو تصور أن الكائنات الحية ، كليا أو جزئياً ، هي نتيجة نظام يبعث على النماء والتغاير ، او بالأحرى فكرة في تطور الأحياء .

وهذه الفكرة قد تطورت في صور مختلفة جدا الاختلاف ، وكانت ذات اثر كبير واضح في كل الصور اللاهوتية والفلسفية التي نشأت خلال المدنيات القديمة على وجه التقريب . فانك تجد انه قد انتشرت بين كل الشعوب القديمة التي امتازت بقوة الفكر والتأمل ، فكرة انه مطاوعة لحكم قوة قدسية ، قد برزت الأرض من العماء الذي كان سداه مياه متلاطمة ، وأن الارض والبحر بدورهما قد ولدا الاحياء التي تغشاهما

وتظهر هذه الفكرة بوضوح من الآثار الكلدانية البابلية التي قرئت معمياتها في العهد الأخير . وقد اشرنا اليها من قبل . وفيها نجد آثار عماء سداه المياه التي بلا نهاية ، وان هذه المياه تحت تأثير قوة قدسية قد انشأت الارض وأحياءها وكانت حيوانات الماء اسبق بالظهور على حيوانات الأرض التي تلت تلك في الظهور ، وان هذه كانت منقسمة الى ثلاثة أقسام كبرى ، على نفس الطريقة التي قسمت بها حيوانات الارض في الآثار العبرانية . ونجد فوق هذا ان « الخالق الكلداني » قد أعلن في عدة مواضع من قصة الخلق المنسوبه اليه أن خلقه « جميل » على نفس النمط الذي يصف به « الخالق العبراني » خلقه اذ يصفه بانه «حسن»

وفي كلتا الروايتين ، الكلدانية والعبرانية ، نجد قبة زرقاء صلبة

القوام مقفرة الشكل . وفى كلتاهما تجد أن النور خلق أولا ، وانه بعد ذلك خلقت الأجرام السماوية لتؤدى الاشارات القدسية وتشير الى الفصول السنوية ، وفيهما تجد أن العدد « سبعة » قد خص بالقداسة على صورة خاصة ، وان تقديس هذا العدد قد أدى الى تكوين اقسام مقدسة فى الوقت وفى غيره من الاعتبارات الانسانية . أضف الى ذلك أنه فضلا عما نجد فى القصة العبرانية من الصور الذهنية التى تتفق والاساطير الكلدانية ، فان قصة الخلق فى كليهما ، أى العبرانية والكلدانية ، قد عقب عليهما باسطورة فى « هبوط الانسان » وفى « الطوفان » . وتلك الاشياء التى نجد أن كثيراً من تفاصيلها قد نقلت من الكلدانية الى العبرانية بصورة قد حورت بعض التحوير .

ولا جرم كانت تصبح معجزة حقيقية لو أن هذه الصور الأولية التى صبت فى ذلك القالب الشعرى القوى خلال تلك المدنيات القديمة والتى نشأت على ضفاف الدجلة والفرات ، لم يتأثر بها العبرانيون على مدى تلك العصور التى خضعوا فيها لجيرانهم الكلدانيين ، وعلى الأخص إذا تذكرنا انهم كانوا فى ذلك العهد قد تنقلوا فى التدهور والارتقاء خلال فترات طويلة نائية . وعندما انبرزت الى الوجود ابحاث لايارد وجورج سميث وأوبرت وشرادر وجنسن وساير وغيرهم من علماء تلك الاكتشافات الطويلة ، لم يبق مجال للشك فى أن هذا التصور العبرى عن نشأة الكون ، والذى يمكن أن يكون قد تصور أنه لم يكن قد نشأ فى خلال تلك المدنيات القديمة ، قد استمده العبرانيون ميراثا ، فخلعوا عليه صورة توحيدية خالصة الاتجاه ، ثم أسبغوا عليه روحا شعريا جعله كما هو

لدى الواقع كنز من أثمن الكنوز التي وصلت الينا من مخلفات « الفكر القديم » حفظ بين دفتي سفر التكوين .

وبينما كانت الفكرة في ابراز خلق مادي مصنوع بيد خالق وأصابعه أو صوته مبدأ لتكوين مذهب لاهوتي بالغ التأثير ؛ وبينما كان تيار هذا المذهب يندفق من جيل الى جيل مستمداً خلال كل جيل قوة من مجهودات آباء الكنيسة ودكاترة اللاهوت وقديسي الكنائس المبرزين في علوم الدين ، كاثوليك وبروتستانت ، أخذ نهير ضئيل من نهيرات الفكر الانساني ينساب بقوة قد تخفى حينا ، وقد نستبينها أحيانا ، ناقلا في طيات الفكر جيلا بعد جيل ، فكرة في أسلوب من النشوء حاول أن يعلل بها الكون والمخلوقات .

أما المحترم الاستاذ سايس Rev. Prof. Sayce ذلك الباحث الانجليزي الذي لن تؤمن بأن من الباحثين في هذا الموضوع من يبزه سعة اطلاع أو رسانة حكم ، فقد أعلن معتقده في أن النظرية الكلدانية البابلية كانت بلا أقل شك النبع الأوحد الذي استقيت منه مقومات نظرية أخرى أخذ بها الفيلسوف الأيوني « أنا كسمندر » وعلاها ، ودافع عنها — وأن فلاسفة اليونان القدماء قد استمدوا هذه النظرية عن البابليين من طريق أهل فينيقيه . وكذلك قضى بأن هذا النبع عينه كان مستقى نمات زبدته في الروايات التي قصت في كتبنا المقدسة . وبهذا الاعتقاد يؤمن كل علماء الآثار الاشورية من أهل النصرانية .

والحقيقة أن تلك الروايات التي تقص في كتبنا المقدسة تناقض احداها الأخرى . ففي ذلك الجزء من الرواية الأولى — أو الرواية

الالوهية [١] التى نعثر بها فى الاصحاح الأول من سفر التكوين، نجد أن «المياه» أخرجت الاسماك والحيوانات البحرية والطيور (تكوين ١ : ٢٠). غير أننا فى الجزء الثانى المعروف باسم «الرواية اليهووية» [٢] والتى نعثر عليها من فى الاصحاح الثانى من سفر التكوين، نجد أن حيوانات اليابسة والطيور قد خلقت لا من «الماء» بل من الأرض (تكوين : ٢ : ١٩).

ان المهارة الجدلية التى اتصف بها آباء الكنيسة قد استطاعت أن تستقوى على هذا التناقض فتأوله تفسيراً. غير أن تيار الفكر القديم

(١) نسبة الى «الوهيم» اسم الله فى العبرانية

Elohistic Relating to „ Elohim „ as a name of God, - Said of passages in the old Testament See Webs. Dict.

جاء فى الاصحاح الاول آية ٢٠ : وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية، وليطير طير فوق الأرض على وجه جلد السماء. فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الانفس الحية الدبابة التى فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذى جناح كجنسه» ونسبة «الوهيمى» خاصة بالعبارات التى ورد فيها ذكر الخالق مسمى باسم «الله» — الوهيم فى العبرانية — من أسفار العهد القديم.

(٢) نسبة الى يهوه Jehovah

Relating to, or containing' as a name of God, said of certain parts in the old testament especially of the pentateuch, in which Jehovah appears as the name of the Diety Webs. Dict

ونسبة «يهووى» خاصة بالعبارات التى ورد فيها ذكر الخالق مسمى باسم «الرب» فى أسفار العهد القديم.

جاء فى الاصحاح الثانى آية ١٩ : «وجبل الرب الاله من الارض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء.

على الرغم من هذا ، وقد عضدته هاتين الاسطورتين ، قد خدرتهم فتنقل منساباً فى طيات العقول ، عقول اقدر من ابرزت الكنيسة من رجالها خلال القرون ، ودمغ الفكرة اللاهوتية بدامغ واضح الأثر ، ظل ظاهراً فى جبينها طوال دهور ، إذ وجهها الى القول بنظرية ما فى نشوء الكائنات

بل كان هنالك نبع آخر فاض بالفكرات المشوشة . فان المفكرين من أهل المدنيات الاولى ، تلك المدنيات التى اهتزت وربت على ضفاف الانهار فى مناطق الأرض المعتدلة ، قد لاحظوا كيف ان « الآله الشمس » عند ما كان يطلع على الأرض فى قوته وجبروته ، قد استطاع أن يولد من الأرض صور الحياة الدنيا . ففى مصر على الاخص ، قد رأى الناس كيف أن طمي النيل ، تحت تأثير تلك العناية القدسية ، قد انشأ من « الدواب » الصغيرة ما لا عداد له . ومن هنا نشأ المعتقد القديم فى أن الحيوانات ومعها الانسان قد خلقت « فى البدء » من المادة الميتة بأمر العناية الآلهية ، تلك الفكرة التى حلت محلها فكرة أن بعضاً من الحيوانات الصغيرة ، وعلى الأخص الحشرات ، قد نشأت فيما بعد بتطور آخر ، حيث استمدت على حسب النموذج الخلقى الأول من منابع متفرقة ، ولكن على الأخص من مادة فى حالة الانحلال .

وهذا المعتقد القديم ، على ما كان به من مظاهر التخاذل ، قد ساعد على تفريخ جرثومة فى التطور أرقى من الجرثومة الأولى ، اسلمها الى اليونانيين القدماء . فالفلاسفة أمثال انكسيمندر وإمبيذقليس وانا كساغوراس ، وعلى رأس الجميع ارسطوطاليس ، كما رأينا من قبل ، قد عمدوا الى تنمية هذه الجراثيم القديمة ، وقد شقوا الطريق الى الحقائق

جادسين ، تلك الحقائق التى أيدتها من بعد المشاهدات . ولقد وصل ارسطوطاليس ، بالمشاهدة حينا والتأمل حينا آخر ، الى نتائج ، لو أن حرية الفكر اليونانية قد استمرت كما كانت ، اذن لوصلت الانسانية منذ زمان بعيد الى ما وصلت اليه الآن من حقائق علم البيولوجيا . فانه قد وصل الى اعماق من الفكرة العلمية أدت به الى القول بنشوء العضويات العليا تدرجا من صور دنيا ، وقال بذلك الفرض المنتج ، فرض ان في الطبيعة « مبدأ سموها الى الكمال » .

فاما أربت فكرات اللاهوت النصرانى ، صد الميل الذى كان يحفز الباحثين الى الوصول الى نظريات نشوئية أكثر صدقا عن الاستمرار في طريقه المرسوم . غير أن الفكرة القديمة النافعة في التطور ، قد ظلت نابتة . ومثالا على ذلك نرجع الى فكرة القديس « باسيل » الكبير الذى عاش في القرن الرابع الميلادى . فانه لما أراد أن يناقش روايات أعمال الخالق قد أعلن انه بامر من الله — « قد خصت المياه بقوة إنتاجية وانه من الطمى والطين اللازب نشأت الضفادع والهوام والبعوض » ؟ .

ثم اشار في النهاية إلى أن ذات « الصوت » نفسه الذى خص الأرض والمياه بتلك القوات الانتاجية ، سيظل محتفظا بهذه القوة ذاتها حتى نهاية العالم .

وعلى هذه الفكرة ، أو ما يشابهها ، سار القديس غريغوري النيصي .

وهذه الفكرة التى استمكنت من عقلية آباء الكنيسة الشرقية العظام ، قد أصبحت أشد استمكانا من عقلية الأب الأكبر للكنيسة الغربية . فان القديس أوغسطين ، على الرغم من استمساكه بالنص الحرفي الذى صيغت فيه الكتب المقدسة ، قد رجع عن مذهبه المعروف في

قبول التنزيل بنصوصه كما هى ، ورفض المعتقد السائد فى اساوب خلق يشابه ذلك الاسلوب الذى يتبعه صانع اللعب التى يلهو بها الأطفال من عمل صندوق به مختلف الصور والألاعيب . فقال من مقاله المعروفة « تعليقات على سفر التكوين » — « إن الفرض بان الله قد خلق الانسان من التراب بيدين عضويتين لفكرة صبيانية . فان الله لم يبرأ الانسان لا بيدين عضويتين ، ولا بان نفخ فيه ريحا خرج من حلقومه أو من بين شفتيه » .

بعد هذا نجد ان القديس اوغسطين قد جنح الى الاعتقاد بالنظرية التطورية القديمة التى عرفت بنظرية « الانبثاق » Emanation وهى التى تقول بانبثاق جميع الأشياء من الله ، فقال « بان حيوانات صغيرة معروفة من الممكن أن لا تكون قد خلقت فى اليوم السادس من أيام الخلق ، بل من المرجح أن تكون قد تأصلت بعد ذلك اليوم من المواد المنحلة ؛ مثبتاً أنه وإن كان هذا هو الواقع ، فان الله ولا شك يكون خالقها ، مستنداً الى امكان الخلق بالتبعية الى حقيقة ايجاد المخلوقات بالفعل . ومن ثم يتكلم فى « الحيوانات التى برزت بعددها المقدر لها فيما بعد اليوم السادس من ايام الخلق » .

وفى مقالته الكبرى فى التثليث Trinity - وهو مؤلف انفق فيه ثلاثين سنة من أطيب أيام عمره — تقع على هذه الفكرة فى أجلى مظاهر نمائها . فانه فى النهاية يعمد الى القول بفكرة أن خلق العضويات الحية كان خاضعاً لاساوب من النشوء Growth وأن الله هو المكون الأول؛ ولكنه يعمل من طريق اسباب ثانوية . ويختم القول فى ذلك بان مواداً

ماء قد خصها الله بقوة تستطيع من طريقها أن توجد صوراً خاصة من الحيوان والنبات .

وهذه الفكرة التي ترمى الى امكان نشوء الأحياء بوساطة أسباب ثانوية منفصلة عن أعمال الخالق الاصلى ، قد ساعدها على البقاء والنماء ضرورات لاهوتية لم يكن عنها من محيص . فانه شيئاً فشيئاً وعلى مقدار ما كان يتسع مجال النظر فى مخلوقات العالم العضوى ، أصبح عدد الحيوانات الدنيا والكائنات المجنحة « والأشياء الزاحفة - Creeping things - مصدراً للشعور بعبء ثقيل ينوء على قصة الخلق المقدسة بكل ثقله . وشيئاً فشيئاً أخذ الشعور يتحول نحو إمكان التوفيق بين ما يقتضى الله القاهر من عظمة وكرامة ، وبين عمله فى خلق هذه الكائنات الحقيرة وحشرها أمام آدم ليسميها ، وكذلك امكان التوفيق بين مقدرة آدم المحدودة بصفته الانسانية وبين استطاعته أن يسمى « كل كائن حي » أو التوفيق بين اتساع فلك نوح وبين ما يحتاج حملها من الفراغ الكبير ، ومقدار الغذاء الضرورى لتقويم حياتها على مختلف ضروبه ، سواء اكان ما حمل منها أزواجاً أو سبعات ، كما ذكرت فى موضعين مختلفين من الكتاب المقدس .

ولقد كانت الفكرة فى اتساع الفلك مصدراً كبيراً من الاضطراب . فان « اوريغن » قد عمد لدى الكلام فى ذلك الى فرض أن الذراع – Cubit – كان ستة اضعاف مقداره المعروف فى عصره . وأبان « بيده » عن قدرة نوح ليبنى مثل هذا الفلك بان فرض أنه ظل يعمل فى بنائه مائة من السنين . ولما أراد الكلام فى مقدار الغذاء الذى كان من الواجب أن يحمله فيه ، اعلن انه لم يكن هنالك من حاجة لان يحمل معه من الغذاء الا ما يكفى

يوما واحداً ، ما دام أنه في قدرة الله أن يلقى على الحيوانات سباتاً عميقاً ، أو أن يصنع بها غير ذلك من معجزة تجعل غذاء يوم واحد كافياً لحفظ حياتها . وكذلك حاول أن يخفف ضغط الحقائق على الايمان فخفض من عدد الحيوانات التي حملت في الفلك ، مستنداً في ذلك الى نظرية أوغسطين التي سبق شرحها من القول بنشوء الحشرات من المواد المتعفنة والجيف .

ومما لا ريبة فيه أن هذه الضرورة اللاهوتية ؛ كانت من بين الاسباب ذات الخطر التي حفزت القديس «إيزيدور الاشبيلي» في القرن السابع ؛ ان يدمج هذه النظرية ، مستعينا بالقديس باسيل والقديس أوغسطين ؛ في مؤلفه الانسيكلوبيدى الكبير الذى ظل منتجع الفكر ومرجع الطلاب في حقيقة الله والطبيعة أجيالا عديدة . ولقد مهر هذا القديس ، عالم اللاهوت بمذهب الخلق بان جعله أكثر ذيوعاً وانتشاراً بين المؤمنين ، إذ قربه الى الاذهان بامثال ضربها فقال : ــ «ان النحل إنما يحدث من لحم الثور المتحلل ، والخنافس من لحم الحصان ، والجراد من البغال ، والعقارب من السراطين» . ومن أجل أن يؤيد هذا المذهب بقوة جديدة تلوح بها مثل هذه الاستحالات العضوية في حيز الامكان ، يعمد الى الرواية التي جاءت في الكتاب المقدس عن « بنوخذنصر »ــ Nebuchadnezzar ــ وهي رواية من الظاهر انها كانت ذات أثر واضح في الفكر العامى خلال العصور الوسطى ، معلنا أن كثيراً من بنى آدم قد استحالوا حيوانات فصاروا على الاخص خنازيراً أو ذئاباً أو بوماً .

ان مذهب « المخلوقات البعدية » ــ اى المخلوقات التي ظهرت « بعد » اليوم السادس من أيام الخلق ــ قد مضى يستجمع الاسانيد

والقوى الفكرية من حوله ، حتى اذا كان القرن الثانى عشر ، ظهر بطرس لومبارد» فى ماخصه اللاهوتى المسمى « الجمل » ـ Sentences ـ ابعد ما يكون اقتناعا وقوة فى تصوير الفكرة الكنسية ، مبينا الفرق بين الحيوانات التى تنشأ من الجيف والحيوانات التى خلقت من التراب والماء ، ليقول بعد ذلك بان الحيوانات الأولى خلقت « بالقوة » ؛ واما الثانية فخلقت « بالفعل » ! ! !

وفى القرن التالى تناول القديس « توماس أكويناس » هذه الفكرة وعلى يديه صبت فى قالبها الاخير . ففي كتابه المسمى ـ Summa Theologia ـ الذى لا يزال معتبرا حتى الآن اثمن ما أخرج الكاتبون فى العصور الوسطى ، تراه يقبل مذهب أن صنوفا خاصة من الحيوانات قد تنشأ من اجسام منحلة نباتية وحيوانية ، ويعلن فى صراحة انها انما تتكون خضوعا لكلمة الله ، إما بالفعل وإما بالقوة . ثم يتوسع فى هذه الفكرة مثبتا ـ «انه مامن شيء خلقه الله بعد ستة الايام الاولى من أيام الخلق فكان جديدا بمعنى الجدة ، بل لا بد من أن يكون مندمجا فى الاعمال التى تمت فى تلك الستة الأيام» . وأنه ـ « حتى الانواع الجديدة ؛ اذا ظهر شيء منها ، فلابد من ان تكون قد وجدت فى خصائص معينة ، كما تستحدث بعض الحيوانات من المواد المنحلة » .

على انك تجد أن التفريق الحاصل بين الخلق بالفعل والخلق بالقوة ، أو الخلق بالمادة والخلق بالصورة ، قد نماها و كثرها اصحاب التعليقات من بعد ذلك . فقد قال « كورنليوس ألابيدا » Cornelius a Lapide إن بعض الحيوانات لم تخلق « أطلاقا » بل « بالاشتقاق » . وبعد ثلاثة

قرون اخذ « اوغسطينوس أيوغيبينوس » — Augustinus Eugubinus
هذه الفكرة وتوسع فيها فقال بانه بعد أن دعت القوة الخالقة الارض والماء الى الوجود ، خلق الله القادر الضوء ، وهو الأداة التي استخدمت في كل ما تلى ذلك من أعمال الخلق ، وأن الضوء دعا من بعد ذلك كل الاشياء الى الوجود فوجدت .

هذا العلم — كما يدعى علماً من طريق الخطأ — حتى بعد ان نبذته أكبر العقول التي ظهرت بين جدران الكنيسة ، على الرغم من انه علم « عقيم » ، كان الى هذا الحد غير ضار على الاقل . غير أنه كان فى نظر اللاهوتيين ، ممن أقاموا انفسهم حفظة على كنوز العلم الكنسى ، وكانوا يندّدون باقل انحراف عن الفكرة الاصلية المقدسة ، ذا خطر عظيم . فقد ظهر لهم أن هؤلاء انما يذهبون بمذهب « الخلق البعدى » بمقتضى الاسباب الثانوية الى غايات كبيرة الخطر . لهذا تجد فى بداية القرن السابع عشر أن اليسوعى الاسبانى المعروف « شوارز » Suarez — وهو لاهوتى ذو شهرة كبيرة ، قد رفض هذه الفكرة ، معلناً أن القديس اوغسطين « هرطوقى » لانه اخذ بها وعضدها .

غير انه لم يكن هنالك من خطر على الفكرة القديمة حتى بعد أن بلغ الناس من التفكير هذا المبلغ . فان الميول اللاهوتية الاساسية كانت من القوة بحيث مضى الناس بها متمسكين .

وكان اللاهوت الانجيلى لا ينفك عاملا على نسج شبكته السحرية يجر خيوطها من أمعائه الواسعة ، فكان ذباب اللاهوت يعلق بها اينما صادفته وأينما صادفها . غير انك ترى فوق ذلك أن من هنا ومن هنالك

حام من حول الشبكة مفكرون اقوياء الحجة ثابتو البديهة ، استطاعوا ان يحلوا انفسهم من اغلالها ، بل حلوا معهم اغلال غيرهم ممن كانوا قد تساقطوا عليها .

فى نهاية العصور الوسطى ، وعلى الرغم من تشبث الكنيسة البروتستانية بنص الكتب المقدسة ، خلقت نهضة الاداب والسياحات البحرية جواً جديداً انتعش فيه الفكر وتقدم خطوات واسعة من حيث النظر فى مشكلات الطبيعة ، فكان اقوم سبيلا واثبت قيلا . فاينما وليت وجهك ، وحيثما ادرت عينيك ، بل وفى كل مجال ، كنت ترى رجالاً افذاذاً قد وقفوا على مستكشفات كان من شأنها أن تظهر المذاهب اللاهوتية ، أقل مسايرة للحقائق واشد مناهضة للواقع المحسوس .

ان أول من يجدر بنا ذكره من اولئك الذين يجب ان نخصهم بالاحترام والتبجيل ، كمثال لتلك الفئة التى أخذت تحى تيار الفكرة الاغريقية ، تلك الفكرة الفذة التى خالفتها وصدعت اركانها اساليب العلم التى استمدها من كتبنا المقدسة آباء الكنيسة خلال الف كاملة من السنين ، هو ذلك الجهبذ النادرة «جيوردانو برونو Giordano Bruno» إن اقواله كانت ولا شك غامضة مبهمة ، بل لا نبالغ اذا قلنا انها كانت ملغزة إلغازا . غير ان هذا يمكن ان نتسامح فيه ، لانه بلا ريب كان يرى عن كثب ما سوف يكافأ به إذ هو اعلن ما اضمر ، وصارح بما اسر فى نفسه . غير أن هذا لم يفده شيئاً ، فنال على يد الكنيسة عقابه إلا كبر ، تلقاء اقواله المبهمة الملغوزة المشحونة بالاخطاء العلمية ، فأحرق حيا وذريت مع الريح بقاياه الترابية . على انه جوزى فى نهاية القرن التاسع عشر خير

الجزاء ، اذا اجتمع لفيف من اكبر مفكرى الارض واجمعوا امرهم على انه يقيموا له تمثالا ينصب حيث اقيمت المحرقة التى احرق عليها بامر مجلس التفتيش الرومانى ، بعد ان مضى على ذلك زهاء ثلاثة قرون كاملة.

بعد موت «جيوردانو برونو» وفى خلال النصف الاول من القرن السابع عشر ، ظهر «ديكارت» ليرفع راية الامامة فى مجال الفكر الانسانى. فان نظرياته ، ولو انها انقضت الآن ، قد حفزت العقول إلى البحث والاختبار بالمشاهدة اذ ذلك. فان نبوغه قد ظهر فى اجلى مظاهره بتلك النظرية التطورية الميكانيكية التى وضعها فى تكوين النظام الشمسى ، كما كان اسلوبه التفكيرى سبباً فى أن يقوى تيار المذهب التطورى النشوئى على وجه عام. غير أن الاضطهاد المستمر الذى ناله من الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء ، حمله يلغز افكاره الغازا ، بل حمله على ان يترك اكثرها جاثلا فى ثنايا نفسه من غير ان يجرأ على المصارحة به . ولقد احرق « برونو » عندما كان « ديكارت » فى طور الطفولة ، ولما بلغ مبالغ الرجولة تعقب بانتباه معركة غاليليو وتتبع حوادثها جملة وتفصيلا . ولقد رأى مؤلفاته تلعنها الجامعات واحدة تلو اخرى تحت تأثير اللاهوتيين ، بل رآها تضم الى الفهرست الرومانى . وعلى الرغم فى أنه زود الفكر الانسانى ببراهين قوية يثبت من طريقها وجود الله ، واضطر أن يمتهن نفسه ازاء اليسوعيين ، فانه لم يسلم من اتهام الكاثوليك والبروتستانت على السواء . حتى انه من الحق أن نقول انه منذ عصر « روجر باكون » Roger Bacon لم يمتهن اللاهوتيون مفكر كبير بقدر ما امتهنوا « ديكارت » بل انهم استبدوا به وحقروه تحقيراً .

وفى أواخر القرن ذاته ظهر المفكر الكبير ليبنتز Leibnitz وعلى الرغم من أنه لم يبتكر نظرية نشوئية كاملة، فإنه أعطى الفكرة سنداً جديداً بأن استنظرية تناوىء الاعتقاد المقدس فى ثبات الأنواع — ذلك الاعتقاد الذى كان يلزم المؤمنين بأن يؤمنوا تسليماً بأن كل نوع فى عالم الحيوان: إنما تلازمه ذات الصورة التى خرج بها من يد الخالق. والتى سماه بها آدم، والتى قادها إلى الفلك نوح!

غير أن الكنيسة لم تتركه من غير أن تنزل به العقاب. وبعد سنوات قلائل وفى سنة ١٧١٢ تمكن اليسوعيون من أن يحبطوا مشروعه فى تكوين أكاديمية علمية فى فينا. وعلى الرغم من أن السلطات الامبراطورية قد منحته أعلى درجات الشرف وعددته بأسمى ما تستطيع من عناية، فإن القساوسة وهم المتحكمون من فوق المنابر ومن مجالس الإدارات، لم يمكنوه هو والذين انتهجوا سبيله من رجال العلم، من أن يكشفوا عن بعض الحقائق التى خبأها الله فى ثنايا الطبيعة.

ولا يجدر بنا أن نتناول ذكر «سبينوزا وهيوم وكانت» بين الذين كان من المستطاع أن يكون لأفكارهم، ولو كانت خطأ، أثر فى تنشئة نظريات جديدة أصدق برهاناً وأقوى أساساً، لولا بعدهم عن زمانهم من ريح الاضطهاد القاتل. غير أنه بعد أن ذهب هؤلاء بعدة أعوام ظهر فى فرنسا عدد ممن أخذوا علم الطبيعة بالاجتهاد، على أنه لم يكن من السهل فى المكانة التى نزلها أولئك الأعلام. غير أنه استطاع مع هذا أن يخطوا بالعلم إلى الأمام خطوة ثابتة..

ففى بداية القرن الثامن عشر ظهر «بنوا دى ماليه» Benoist de Maillet وهو رحالة دعوى عرك الحياة وعرفها، وكان صاحب عقل واسع المشاهدة دقيق الملاحظة صادق الفكر عميقه كثير التشغف بالطبيعة، فبدأ يتأمل فى تأصل الصور الحيوانية على الأخص وكيفية نشوئها، حتى أدى به تأمله إلى فكرة تغاير الأنواع، ومن ثم إلى الاعتقاد بتطورها على صورة يصح أن يقال إنها من

الاسس التى بنيت عليها الفكرة الحديثة فى النشوء. ولقد آمن ايماناً صادقاً مفروغاً منه؛ ولو أنه لم يكن بيناً صريحاً فى بعض المواطن، بأن الانواع الحاليه مشتقات تحولت عن أنواع أخري بتوالى التغاير الوصفى على أعضائها. ومن البين فوق ذلك أنه قبل مبدأ من المبادىء الاساسيه التى يقوم عليها اليوم علم الجيولوجيا، اذ آمن بأن تركيب الكرة الارضية يجب أن يخضع فى درسه المؤثرات الطبيعية التى تجرى تحت أعين الباحثين فى العصر الحاضر.

على أنه لم يلبث غير قليل حتى وقع بين نارين. فكانت الاولى السلطات الكنسية: تتهمه بأنه حر الرأى Freethinker وكانت الثانيه سلطة فولتير Voltaire الادبية اذ رماه بأنه مغال فى رأيه متعصبا له. ولما شعر بأن الخطر الاكبر آت من ناحيه لاهوتيي الاورثوذكسيه، حاول «ده ميليه» أن يحمى نفسه من أذاهم بأن ينشر كتابه تحت اسم مستعار يرمز له رمزاً فى الصفحة الاولى، وبأن يجري في المقدمة والاهداء على قاعدة «التلاعب بالالفاظ» حتى إذ حاولت السلطات اضطهاده، استطاع أن يعلن أن الكتاب ليس أكثر من هلاس خيالى. لهذا نجد أنه أشار الى أن الكتاب عبارة عن أشياء أفضى بها حكيم هندى الى مبشر مسيحى. غير أن هذه المناورة لم تفده شيئاً. فانه جعل «الحكيم الهندى» يرجح أن أيام الخلق التى ذكرت فى سفر التكوين لم تكن الا عصوراً متطاولة ودهوراً متلاحقة. وهذه الفكرة، مع غيرها من الفكرات التى لا تنزل عنها أثراً من حيث التأثير فى اللاهوت النصرانى؛ كانت كافية لان تعتبر مسممة للافكار. وعلى هذا لم ينشر الكتاب قبل سنه ١٧٤٨، أي بعد مرت مؤلفه بثلاث سنوات، وكان قد طبع سنه ١٧٣٥

ونري من جهة أخرى أن لاهوتيه «فولتير» الالحادية الانكارية قد تحركت من مكمنها لتضرب فى أصول الفكرة الجديدة. فان «ده ميليه» عند ما رأى آثار الحصربات التى كشف عنها فى رؤوس الجبال، قضى بأن وجودها

دليل على أن هذه الجبال كانت يوماً من الايام تحت سطح البحر. و لما تراءى لفولتير أن في هذه الفكرة تأييداً لطوفان نوح أخذ يهاجم المفكر الجديد ويهزأ به بلا شفقة أو هوادة. ومن سوء الحظ أن بعض ما وقع فيه « دي ميليه » من الاخطاء، وما قال به من احتمالات، فتحت لفولتير المجال واسعاً و أفسحت له سبيل الاستهزاء و السخرية. و لامشاحة في أن « فولتير » لن يجد من مادة للسخرية أوسع مجالاً من نظريه قال بها « ده ميليه » في جد وصلابة، من أن أول انسان وجد فوق سطح الارض قد ولدته « مرمادة » (١)

و من هاتين الصورتين اللاهوتيتين، صورة اللاهوت الاقدس ممثلا في الكنيسة، و اللاهوت الالحادي الكاذب ممثلا في فولتير، لم يطهر «لده ميليه» من أثر أو يعترف له بفضل الا منذ عهد قريب، عندما قام رجالات العلم في فرنسا و انجلترا ليوفوه من التكريم حقه. غير انه على الرغم من كل هذا فان مؤلفه لم يقض على أثره بتة حتى في حال حياته وبين أبناء عصره. فان « روبينيه » Robinet وبونيه Bonnet قد خطا كل منهما بالنظرية خطوات ثابتة، كانت للعلم انتصاراً جديداً.

في خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر قام في وجه هذا التيار المجيد سد « منيع » استجمع لبنانه العلامة لنيوس » - Lineaus وكان أبعد علماء الطبيعة في عهده صيتا و اكثرهم شهرة وانفذهم نظرا و أوسعهم اطلاعا ومشاهدة وادقهم فكرا. غير أن الجو الذي عاش و اشتغل فيه، كان مشبعا بفضلات اللاهوت الانجيلي، فكان له اكبر الاثر في تفكيره العلمي.

(١) تعريب - Mermaid - وهي أنثى خرافية من أناث البحر لها جسم امرأة جميلة حتى نصفها الاعلى، ثم ينتهي جسمها الاسفل بذيل سمكة.

إن من يزور قبر «لينيوس» الآن ، فيما شطره من باب كاتدرائية أوبسالا الجنوبي ، يرى منقوشا فوق أحجاره تنويها بخرافة الخلق العبرانية ، ففي سلسلة من الاطباق المنقوشة ، ترى الخالق في صورة بشرية يتم عمل كل يوم من أيام الخلق . و تراه في ترتيب العمل يضع القبة الزرقاء الصلبة و من فوقها المياه ؛ ويثبت فيها الشمس والقمر والنجوم ، ومن تحتها السوائم والطيور والنباتات . و يتم مهمته بانه يخرج الرجل الآدمي من كثيب من الارض السفلي ؛ والمرأة من أحد جنبيه . ومما لاشك فيه أن «لينيوس» عندما كان يذهب الى الكاتدرائية ليؤدي واجبه الديني ، كان ينحرف قد امكنه عن الفكرة التي تتضمنها هذه الخرافة . وغالب ما كان ينظر الى القسس بعين الاشفاق ، كلما تزداد ضغطات الكوارث التي نزلت بالنظرية الارثوذكسية . على انه عندما بلغ أواخر سنيه . انشرح صدره لنظرية أن انواع كل جنس من أجناس الاحياء كانت في بدء الخليقة نوعا واحداً . بل انه في الطبعة الاخيرة من كتابه «النظام الطبيعي» — Systema Naturae — قد انه رجع عن الزعم الارثوذكسي من القول بثبات الانواع . بعد ان كان قد نصب به كل اثبات في مؤلفاته الاولى . غير انه لم يبان عن ذلك في صراحته وجلاء . أما ما كان ينظر من جزاء فيما لو صارح بنظرية جديدة يدعمها بعديد البراهين ، فقد ساقت اليه مقدمات معروفة نتائجها ، بأن التحذيرات ، مصبوبة في قالب التهديد ، قد تواردت من حوله تنبئها رياح البروتستانتية والكاثوليكية .

في الوقت الذي حتى فيه رجال الكنيسة الفاتيكانية يرذلون الفجور والخلاعة من الامراء أمثال «لويس الخامس عشر» و يكيلون لهم الثناء جزافا ، متبعين تلك الاساليب المنحرفة الساقطة المرذولة التي استعملها اليسوعي «سانشيز» Sanches في تعاليم الكنيسة والقساوسة كيفية علاقة الرجل بالمرأة من ناحية جنسية ، ارتاعت الكنيسة من كل ارتياع بل اهتزت سلطاتها ذعرا ورعبا .

عندما برهن « لينيوس » على حقيقة النظام التناسلي في النباتات؛ حتى لقد حظر نشر كتاباته في الولايات البابوية سنوات عديدة. كما حظر [illegible] القراء في كثير من بقاع أخرى في أوروبا كانت لا تزال السلطة الكنسية فيها من القوة بحيث تستطيع أن تجبر الناس على [illegible] هذا الحرمان، وإن [illegible] قائماً في وجه التيار العلمي الحديث. ولقد ظل الحال على هذا المنوال حتى عام ١٧٧٣ عندما قام كردينال [illegible] — هو الكردينال (زيلادا) Zelanda فنجح في الحصول على أمر بمنح للأستاذ (مينابي) Minasi أن يلقي دروساً في نظام (لينيوس) النباتي في روما

ولم تكن الروح اللاهوتية أقل [illegible] أو أهون استبداداً [illegible] ([illegible]) Elous [illegible] « لينيوس » [illegible] الاضطهاد الذي [illegible] العالم [illegible] [illegible] أحد رجال الكنيسة [illegible] العالم [illegible] وصل إلى الأكاديمية العلوم [illegible] أوروبا [illegible] أن [illegible] هم « يمارون » والذين هم « [illegible] » [illegible] دلالة على غضب « الله » على [illegible] تكون علامة على [illegible] [illegible] [illegible] « لينيوس » [illegible] فقال في [illegible] أنه [illegible] Abyssum Satanae وأعلن أن [illegible] يحتمون [illegible] من أعوان الشيطان [illegible] عن الله المنصبين على أنفسهم [illegible]

كأنها لاشيء »، ولقد اضطر « لينوس » امام هذه الجملة الشنيعة الى النكوص والتقهقر . فذكر لاحد الذين كاتبوه « انه من الصعب أن يصارح بشيء ازاء هذا الامر » مستخفيا وراء القول « بانها لمعجزة أن تنشأ ملايين عديدة من الجيوينات جباءة وفي أقصر زمان » وان هذه المعجزة إنما « تظهر بلا أقل شك، على القدرة العاقلة البالغة التي يختص بها الله الذي لا يحد بزمان ولا مكان ».

وكان الطبيعي الكبير قد طعن في السن وانهكته الجهود التي بذلها في سبيل العلم، فلم يقو على أن يقاوم تيار اللاهوت الذي انساب في عصره، فاستنام مطيعاً لقوته . وبينما كان التغير الظاهر الذي استولى على كل ما كان يراه من فكره أو ثوذوكسية في أول حياته، وقد تسلل في هوادة وسكون إلى الصيغة الأخيرة من كتابه العظيم كما رأينا، فانه لم يبذل جهداً محاولا أن يطبع العالم بطابع فكرته التي استخلصها من جهاده العلمي الطويل . وظل متظاهراً بأنه من أنصار الفكرة القائلة بأن كل الانواع الحية قد خلقها الله القادر على كل شيء — في البدء — وانه منذ — « البدء » — لم تظهر أنواع جديدة على اطلاق من القول .

غير أن نفوذه العلمي العظيم لم يقف الاستكشاف العلمي . فقد ازداد عدد الأنواع المستكشفة يوماً بعد يوم . وكذلك أخذت الحقائق المستكشفة في علم الاستيطان — التوزع الجغرافي — Geographical Distribution تصبح شيئا بعد شيء غير مفهومة بل بعيدة عن بديهة العقل لدى تطبيقها على النظرية القديمة، كما أن العقول قد اتجهت وهنا على وهن نحو الاعتقاد بأن الكائنات العضوية الحية قد وجدت خضوعا لنظام بعيد عن فكرة الخالق المستقل — في البدء — حتى لقد أصبح سؤال العلم الأوحد « بأية وسيلة وجدت الانسال ؟ » . .

ولم يكن في القرن الثامن عشر كله من رجل اشتغل بالتاريخ الطبيعي

بحيث كان من المنتظر أن تنتج جهوده نتاجا يمكن به الاجابة على هذا السؤال سوى « بافون » ـ Baffon ـ الفرنسوي . فقد خص بقدر كبير من موهبة القدره على البحث وعمق التفكير ، وكانت كفايته على استظهار نتائج أبحاثه واستحاقه الذهني ، من أكبر الدلائل على عبقريته . ولقد استضاء فكره بنظرية التطور بتغاير الأنواع ، وكان المنتظر أن يخطو بها خطوات ذات بال . غير أنه لم يصل إلى هذا الحد حتى أدركه نفوذ اللاهوت ، فشعر بقوته الثقيلة تنوء على كاهله .

ولقد رحبت الكنيسة بأبحاثه طالما كانت مقتصرة على وصف الاحياء ، ولكنه لم يكد يدلف من الوصف إلى استنتاج حقائق ذات قيمة فلسفية ، حتى انفجرت عليه بطاريات السوربون اللاهوتية ، معلنة له أن « الكتب المقدسة التي عهد بها إلى الكنيسة » ـ تنص ـ « على أنه في البدء خلق الله السماوات والارض » . وأن كل ـ ـ « الاشياء قد خلقت من بدء صنع الدنيا » . ومن أجل تلك الاستعراضات العلمية البدائية التي نعد اليوم من الحقائق المتداولة ؛ قد اضطر « بافون » خضوعا لسلطان الكنيسة ، أن يعتذر عنها علناً وأن ينشر اعتذاره مطبوعاً على الناس . ولقد قال في اعتذاره ـ « أعلن اقلاعي عن كل ما جاء في كتابي خاصاً بتكوين الأرض ، وجملة عن كل ما جاء به مخالفاً لقصة موسى » .

غير أن كل هذه الانتصارات التي حازتها الأساطير الكلدانية البابلية ، والتي ورثتها الكنيسة النصرانية بالالقاح ، لم تعن إلا قليلا .

ففي أواخر القرن الثامن عشر بدأت تلوح في أفق الفكر تقريرات ، كلا بل تروح وافدة جليه ، في هذه الناحية أو تلك ، من نظرية تسوئيه كبرى ، تناولتها العقول بالبحث والتقرير آنا بعد آن ، ومن جهات تختلف أمزجتها جهد الاختلاف ، بل تتباين كل التباين . على أننا نخص بالذكر من

تلك الشروح والتقريرات ما أظهره «اراسموس داروين» Erasmus Darwin في انجلترا، وموبرتوي Maupertuis في فرنسا، واوكن Oken في سويسر وهردر Herder، وعلى الاخص «جوته» Goethe في المانيا لما اتصفت بة تقريراته من الطلاوة والقوة.

على أننا نذكر من بين هؤلاء الأفذاذ رجلان يجب أن نوجه اليهما عناية خاصة. وهما تريفيرانوس ــ Treviranus ــ في المانيا، ولامارك ــ Lamarck ــ في فرنسا. فان كلا منهما، مستقلا عن الآخر، تقدم العالم من هذه السبيل الى حدود لم يبلغها من قبلهما.

ففي سنة ١٨٠٢ أخرج «تريفيرانوس» كتابا في علم البيولوجيا وبث فيه فكره أنه من صور الحياة التي كانت في البداية بسيطة، قد نشأت كل النظامات العضوية الراقية متطورة تدريجيا، وأن كل المخلوقات الحية مقتدرة على قبول التغييرات الوصفية التي تقع على تراكيبها بفعل المؤثرات الخارجية، وأن أي نوع من الأنواع المنقرضة لم يصبح منقرضا بالفعل، بل لا بد من أن يكون كل منها قد تطور فصار نوعا آخر. كذلك أخرج «لامارك» كتابه «الابحاث» ــ Researches ــ وبعد قليل كتابه الكبير «فلسفة الحيوان» ــ Zoological philosophy ــ الذي أدخل على نظرية النشوء عاملا جديدا، هو عامل فعل الحيوان ذاته اذ يجاهد في سبيل أن «يتطور» ليرضي بذلك حاجات جديدة تظهر في أفقه وبيئته، وأثبت في النهاية هذه النتائج:

أولا ــ ان الحياة تعمد الى زيادة الحجم في كل جسم حي وفي كل أعضائه حتى يبلغ من البناء الحد الذي تتطلبه حاجاتها

ثانيا ــ ان الحاجات المستحدثة في الحيوانات تنشيء أعضاء جديدة

ثالثا ــ ان نماء هذه الاعضاء يكون دائما بنسبة استعمالها.

رابعا ــ ان صور النشوء المستجدة في الحيوانات تنتقل إلى الاعقاب.

ولقد كانت أمثاله التي ضربها للتدليل على صحة مذهبه، كاستطالة عنق الزرافة باحتياجها جيلا بعد جيل إلى ارتفاع أوراق الأشجار العالية، واستطالة أرجل الطيور الخائضة ونموها راجعة إلى احتياجه إلى الوثب، مثالا للسخرية والاستهزاء. غير أن ما قوبلت به تدليلاته هذه من السخرية، كان سببا في تعلق آثارها بالأذهان وتتابع نموها.

على أن في المثلين اللذين أتينا على ذكرهما، وإن كانا التمسا غير كافيين، قد كشفت حقائق جديدة، حقائق كان من المؤكد أن تنمو وتؤتي أكلها.

فإن ما أعلن عنه «لامارك»، وعلى الأخص قوله أن نشوء الأعضاء ونماءها إنما يكون بنسبة استعمالها، وإشاراته إلى وجه القول إلى انتقال الصفات المكتسبة أو المفقودة من الآباء إلى الأعقاب، كانت قوة كبيرة ساعدت على تأسيس نظرية النشوء وتدعيم أسسها.

وكان «جفروسانتيلير» - Geoffroy st Hilaire - أكبر من تبع «لامارك» من رواد هذه النظرية. ففي سنة ١٧٩٥ وضع نظرية أن الأنواع عبارة عن سلسلة من التطورات المتتابعة واقعة على صور دائما عليه Type أو مثال أصلي. ولقد عمل على تنشئة هذه النظرية وتنميتها تدريجا على مر الزمن وبمقتضى ما كان يكشف له من أسرار الطبيعة. ولقد كان من نصيبه أن يواجه في سبيلها عقبات شديدة عاتية، وأن يخوض في سبيلها معارك عنيفة مضنية، سنينا طوالا.

أما الرجل الذي خاض المعركة في وجه «سانتيلير» فكان مرماه العلم ولكنه خدم اللاهوت لا عن قصد ولا عن شعور، فكان «كوفييه» أكبر الفرنسيين في عهده، وحجة علماء الطبيعة في عصره. وكانت شهرته العالمية عن جدارة واستحقاق. ولقد خلعت عليه الألقاب العلمية من وطنه ومن غير وطنه، فكان نجمها يتألق لا يلحقه شبه، فكان من رجال الحاشية

الملكية فى عصر نابليون ، ورئيس مجلس المعارف العمومية ، ورئيس الجامعة فى عصر البوربون بعد رجوعهم إلى عرش فرنسا ، وحامل لوسام اللوجيون دونور ، ونبيل من نبلاء فرنسا ، ووزير للداخلية ، ورئيس لمجلس الدولة فى عصر لويس فيليب . ولقد حاز شهرة في كل مركز من هذه المراكز . ومع كل ما جازه من مرافى الشرف باعتلائه هذه المناصب الادارية ، لم يكن شيئا مذكورا بجانب ما عقد له من لواء الزعامة فى عالم العلم الطبيعى . ولقد اعترف له « العلم » فى كل أنحاء الدنيا بأنه مالك زمامه ، وحامل لوائه ولهذا الشرف الكبير عاش اسمه ، وبحق سوف يعيش . غير انه كانت تكمن فى تضاعيف نفسه وفى تلافيف دماغه ، كما كمنت فى نفس لينيوس ، جراثيم جعلته ينظر فى الكون من ناحية تصور لاهوتى بذاته فى أصل الخليقة وتخطيط تصاميمها الاولى. غير ان هنالك اعتبارات ذات بال جعلته يقاوم النظرية الجديدة ويشدد عليها الخناق بقوة . منها أن أخلاقه قد تكونت على أن يكون شاكا أزاء كل نظرية حديدة فى العلم لكثرة مارأى فى حياته من ولادة النظريات واستشبابها ثم موتها . ومنها بيئته كعمدة من عمد الحكومة حاز الشرف ونال الحب والاحترام ، بل عبده الاعظمون ، وقدسه الانبغون ، لا من رجال الحكومة وحدهم ، بل من رجال الكنيسة أيضاً . ومنها حبدته وبعده عن المجادلات العنيفة رغبة منه فى أن يتحامى المعارك الشديدة التي كان لابد من أن تحتدم نارها ويتلظى سعيرها اذا قاوم العلم الكنيسة عيانا وبادرها بالعداء جهاراً . وعلى الاخص بعد أن وقعت أوروبا فى يد الكنيسة لقمة سائغة باردة بعد الثورة الفرنسوية الكبرى ، وجعلت من أعدائها موطئا لقدميها . لهذا تراه قد ناوء فى جانب المدائح التى افاض بها عليه أعاظم رجال الكنيسة ، بكل سلطته العلمية ونفوذه ، على نظرية النشوء مؤيداً النظرية القديمة ، نظرية النكبات الجيولوجية ، وما يتبعها من مذهب الخلق المستقل .

غير ان « جفردي سانتيلير » قاومه بمرارة وحرارة ، محتملا فى سبيل ذلك كل ضروب الانكار وسوء المعاملة والسخرية . فى حين ان « تر بفيرانوس » بعيداً فى حجرة محاضراته الرياضية فى مدينة « بريمن » كان نسيا منسيا

ذلك فى حين ان تيار الفكرة النشوئية ظل منسابا جارياً ، ولم تستقو هذه الوسائل على صده والوقوف فى سبيله . نعم ان مجرى الفكرة قد انتابته بعض الصعاب زمانا ما ، غير أن الفكرة تحولت فى مجار أخرى وفى طرق وأمكنة لم يكن من المحتمل أن تتمشى فيها . فان هده الفكرة كما بدأت فى فرنسا ظهرت فى انجلترا على الاخص ، حيث ظهرت سلسلة كون وحدلتها رجال من عظماء الحفريين والجيولوجيين ، حتى انتهت بظهور العلامة الجليل تشارلس ميل Lyell ونهض الاخصائيون في أنحاء الدنيا فاستجمعوا بجد وجلد ومثابرة كثير من الحقائق وقارنوها بعضها ببعض ، وفكروا فيها أعمق تفكير متبعين طرقا أخذت بعدها نظرية الخلق المستقل تتواري وتتراجع شيئا بعد شيء . ولما اتسعت تلك النهيرات الفكرية واستقوت على شق طريقها فى أرض الفكرة القديمة ، لم تلبث إلا قليلا حتى تجمعت فى ملتقى واحد ، لتكون نهرا عظيما من الفكر أخذ يفيض و يتدفق بصور التجديد الفكرى والابتكارات الاستكشافية

ففى سنة ١٨١٣ اذاع دكتور ويلز ـ Dr. Wells ـ الانجليزى نظريته فى النشوء بالانتخاب الطبيعي ليعلل بذلك ظهور السلالات المتغايرة فى النوع البشرى وحوالى سنة ١٨٢٠ اذاع الاسقف هربرت ـ Dean Herbert ـ وكان من الثقاة المعدودين فى علم زراعة الحدائق ، معتقده فى أن الانواع ليست سوى تنوعات ثابتة ، أي غير ماضية فى سبيل التغاير . كذلك نجد العلامة « باتريك ماثيوز ـ Patrick Mathews ـ قد قرر رأيه على صحة مذهب الانتخاب الطبيعى فى احداث صور النشوء . فى حين أن غير هؤلاء ، سواء افى اوروبا أم أمريكا ، قد المعوا الى هذه النظرية الماعاً ونظروا فيها لماماً .

غير أن هذه الفكرات لم يتأثر بها أحد ممن هم خارج دائرتها ، وعلى الاخص اذا تذكرنا أن أفراد هذه الجامعة لم يكن لهم تأثير ظاهر ، وكانت الكنيسة هادئة ساكنة . ذلك لانها كانت باسطة نفوذها الرجعى فى القارة الاوروبية على الاباطرة الملكية وعلى الوزراء وعلى الجامعات . وكان الاسقف « كوكبرن » ـ Cockburn ـ يقاوم رافضا نظريات « مارى سومرفيل » Mary Somerville والجيولوجيين ، بين تهليل رجال الكنيسة وتصفيقهم . بينما كان المحترم « مياور براون » يفعل نفس الفعل ، متخذا ذات الخطة ، ليشذب من قيادة المتشققين على الكنيسة .

أما فى أمريكا فقد قوبلت نظريات « سليمان » ـ Silliman ـ واتباعه بمعارضة لاهوتيى « أندوفر » وعلى رأسهم موسى ستيوارت ـ Moses Stuart ـ وليس فى هذا من الغرابة بقدر ما فى موقف الجامعات الانجليزية . فانها على اطلاق القول ، لم تعر هؤلاء المحدثين العظام أى التفات . اللهم الا ليكونوا موضع سخرية أو ازدراء .

فى سنة ١٨٤٤ لفح نار هذه الفكرة بعنصر جديد عندما أخرج « روبرت شامبرس » ـ Robert Chambers ـ كتابه « آثار الخلق » ـ Versiges of creation ـ كان فى الكتاب من الجاذبية وخفة الروح ما جذب اليه أنظار عديد وافر من القراء . فعم انتشاره وذاع صيته . وكان من رأى مؤلفه أن سلالات المخلوقات الحية المتعددة من أبسطها وأقدمها الى أرقاها وأحدثها نتيجة مؤثرين مستقلين بثهما الخالق الاول وآخر مرة فى تضاعيف الطبيعة . فكان المؤثر الاول عبارة عن قوة تنتشر فى جملة صور الحياة تدفعها الى التدرج فى الارتقاء حالا بعد حال . أما المؤثر الثانى فهو قوة تعمل دائما الى تهذيب الصور وتدرجها بحيث تلائم ظروف الحالات الخارجية . والمحصل أن محور الكتاب قد دار حول فكرة فى النشوء مصبوغة بصبغة الاعجاز ، أو هى تجويز لابطال أعمال الخالق خلال كل الازمان . وان

شئت فقل تعبير ديني عن مذهب الإدراك.

وكان من ذلك نتيجتان، لقيت الاولى روعا من الفزع والخوف. وحركت الثانية نزعة البحث الجدي. فان الاولى ظهرت باجلى مظاهرها في خوف اللاهوتيين وفزعهم من الكتاب. فقد علت الصيحة في جوانبهم في [illegible] وجد بان الكتاب يساعد على ترويج الالحاد وانكار وجود الله. على اننا اذا رجعنا الى تاريخ الفكرة والجدل الذي نشب حولها [illegible] من ذلك الحين حتى اليوم وما نشأ فيها من تطورات، لشعرنا بانه كان من واجب قدماء أهل اللاهوت ان يصلوا الى الله طالبين وشكرا على ظهور كتاب «شامبرس» وانهم كانوا اجدر بان يضرعوا الى الله في أن يكون ما فيه حقيقيا. أما النتيجة الثانية فقد ظهرت في أن الكتاب قد هيأ العقول لقبول مذهب التطور باعتبار ان النشوء [illegible] أو وضع ما ممكن على الاقل. وعندي أن هذا الكتاب لم يكن له من [illegible] واقعية سوى في هذه الناحية وحدها.

بعد هذا العهد بثماني سنوات نشر العلامة الفيلسوف «هربرت سبنسر» رسالة قارن فيها بين نظريات الخلق المستقل ونظرية النشوء، وقد [illegible] بكثير من البراهين الراجحة القوية الدالة [illegible] على أن الانواع لا بد من أن تكون قد تهذبت وصفا وتأثرت بظروف البيئات. غير أن ما في هذه الكتابات الشهيرة من [illegible] لم يدرك اثرها الا [illegible] الاذكياء. [illegible] الكتابات التي ظلت [illegible] نحو النضج خلال سنوات عديدة.

في الاول من شهر يوليه سنة ١٨٥٨ قرىء امام جمعية «لينيوس» Lennaean Society خطابان الاول لشارلس داروين والثاني لالفرد رسل ولاس، وبهذين الخطابين ولدت نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعي. ومما [illegible] ثغرة واسعة في حصن اللاهوت الآخذ بمذهب ثبات الانواع على صورها الحالية منذ بدء الخليقة.

أما تاريخ هذه المدونات العلمية فان أهل العصر الحديث يحفظونها عن ظهر قلب . فكيف أن شارلس داروين كان قد ألحق بجامعة كمبردج ليخرج في سلك الكهنوت الانغليكانى ، ثم تركها ليلتحق في سنة ١٨٣١ ببعث حول الارض فوق ظهر « البيجل » وكيف انه ظل سنوات خمس مكبا على الدرس والتحصيل منقبا فى أدق مشاكل علم الحياة و مستصحبا انه كا ظهرت له آثارها فوق الارض وفى البحار ؛ بين البراكين والجزائر المرجانية ، فى الغابات ومن فوق الرمال ؛ و في الاقطار الاستوائية الى البقاع المتجمدة ؛ وكيف انه في جزر رأس فيردو الغلاباغوس و فى البرازيل و باتاغونيا و استراليا، استطاع أن يسائل الطبيعة وان يستدر وحى أسرارها بقوة في الفكر واستحهاق فى النظر لم يبزه فيهما عالم من قبل ، وكيف انه عاد الى انجلترا غير معروف ولا مذكور بلسان ، بل عكف هادئا وادعا مكباً على عمله ، ثم سرعان ما وجه أنظار العالم كله الى التفكير فى أمر مباحثه التى بثها فى كتبه مثل كتاب جزائر المرجان Coral Reifs ومقالته فى الحيوانات السلكية الارجل Cirripedes وكيف انه في النهاية عرض مخطوطته التى حاول فيها أن يكشف عن سر الاسرار فى أصل الانواع ، وكيف اتبع ذلك بمقالات عديدة رفعته الى مصاف كبار الرواد فى تاريخ الفكر الانسانى . كل هذه الحقائق ذائع أمرها مذكورة غير منسية من طلاب العلم وأهل التاريخ .

ولقد أخذ عالم العلم يحقق شيئاً فشيئا القوى الخلقية العظيمة التى أظهرها داروين فى كل دور من أدوار حياته . فموهبة القدرة على الصمت والسكون، وتلك القوة العظمى التى أظهرها فى الاحتفاظ بفكرته الكبيرة ــ فكرة النشوء بالانتخاب الطبيعى ــ مستعرضا إياها في جو من الدرس الهادىء العميق والتأمل الواسع المستفيض ، خلال حقبة من الزمان لا يقل مداها عن العشرين عاما على وجه التقريب ، فلم يشر اليها باشارة ولم يسر بها للعالم ولو

تلميحا ، بل جال في كل مجال من العلم ليستجمع الادلة والبراهين ، إما لها أو عليها ، وليحصل على أكبر مجموعة في المادة العلمية التي تمكنه من حل المشكلات التي عرضت له . عامه ذا حقق لدى العلماء ما كانه لداروين من قوة الخلق وصلابة الاعصاب .

ولم يفش فكرته تلك الا لرجل واحد، اذباح بها للدكتور « يوسف هوكر » Joseph Hooker فقدقدم له سراً في سنة ١٨٤٤ ملخصا بالنتائج التي وصل اليها. ومضى على ذلك اربعة عشر عاماً حتى سنحت الفرصة التي اوحت اليه بأن زمان الافصاح عن فكرته قد آن ، وذلك بعد أن وصل خطاب من الفرد روسيل وولاس Alfred Russell Wallace وكان قد وصل بعد ابحاث مبتكرة مستفيضة خلال عقد كامل من الزمان — ١٨٤٨ الى ١٨٥٨ — قضاه متنقلا بين بلاد البرازيل وارخبيل الملايو . الى نفس الفكرة في النشوء بالانتخاب الطبيعي . ومن بين البراهين الناصعة على أن الدرس العلمي لن يضر بشيء في مختلف صور العواطف الانسانية ، تلك القصة العجيبة التي يرويها تاريخ العلم عن ذلك الخطاب الذي أرسل به « وولاس » لانجلترا . فقد أرسل « وولاس » مع هذا الخطاب مذكرة « لداروين » وسأله انه يعرضها على جمعية لينوس العلمية . فلما استوعبها « داروين » وجد أن « وولاس » قد وصل مستقلا عنه الى نتائج تقرب من النتائج التي وصل اليها . ومعنى هذا انه كاد يحرمه من كل صيت على ظل يعمل له عشرين عاما طوالا . غير ان داروين كان وفيا لصداقته كما ظل صديقه وفيا له فيما بعد وعلى طول الايام . فلم يتردد في أن ينشر مذكرة « وولاس » مشفوعة بالنتائج التي وصل اليها . وكان تاريخ نشر هذه الوثائق — أول يوليه سنه ١٨٥٨ — فاصلا بين عصرين تاريخيين . لا في العلم الطبيعي وحده ؛ بل في الفكر الانساني برمته

في السنة التالية — ١٨٥٩ — صدر الجزء الأول من مؤلفاته النشوئية

كاملا ، إذا أصدر كتابه « أصل الأنواع » -The Origin of Species- وفي هذا الكتاب استطاع داروين أن يكشف على الأقل عن سر واحد من أسرار النظام النشوئي الذي كان دون الافصاح عنه جهود الباحثين والفلاسفة منذ عصر ارسطوطاليس . فان مؤثر النشوء الميكانيكي قد أفصح عنه خلال هذا الكتاب بثلاث حقائق دائمة التأثير في طبائع الكائنات الحية . في التناحر على البقاء بين العضويات . وفي بقاء الأصلح . وفي الوراثة . ولقد استعرضت هذه الحقائق في قالب دقيق من البحث والتنقيب زكته قوة الملاحظة والصبر والامانة وصحة الحكم والقدرة على التمييز ، فلم يمض على نشرها جيل قصير حتى استلفتت أنظار العالم كله . وحسبك أنها نتيجة عمل ظل متواصلا ثلاثين عاما طوالا ، وثمرة لتفكير نابغة من النوابغ الذين قلما يجود الدهر بأمثالهم . كلا بل كان أكثر من هذا . كان نتاجا لجهد رجل نابغة آخر عاش منذ ستين سنة مضين قبل ظهور « أصل الانواع » هو « توماس روبرت مالتوس » . فان كتابه في « مبادىء الاحصاء وزيادة عدد السكان » الذي بناه على قاعدة أن الحيوانات انما تتزايد بنسبة رياضية ، وانها إذا لم يقف سبيل زيادتها عامل من العوامل ، فانها تسد فضاء الارض بما وسع ، كان قد نسي ونزل أمره ، بل كان يشار إليه بهزة كتف أو بابتسامة سخرية . غير أن نبوغ « داروين » قد استمدا من ذلك معنى أعمق وفكرة أدق ، وبجهده استمر كتب فكرة « مالتوس » في خضم التيار بأقصى ما تجري تيارات الفكر في كل العصور . فان « داروين » لما أخذ يتأمل في نظرية « مالتوس » ليطبقها على ملاحظاته ومشاهداته العلمية ، مع ما رأى من خصب الطبيعة في انتاج الاحياء ، استطاع أن يصل إلى نظريته في الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح

لما أن تصدع السد المذهبي الكبير الذي كان قائما بين وجهتي النظر القديمة والحديثة للعلماء في أصل الكون ونظامه ، سد فيضان الفكر وعلا فوق شواطيء الدنيا برمتها ، فأحيا كثيرا من النباتات في كل حقل من حقول الفكر

والاستنتاج العقلي. لهذا توالت طبعات الكتاب، وترجم حتى إلى اليابانية (١) حتى لقد لاحظ العالم أن بحر الفكر العلمي الذي نعاه المؤلف الكبير «بوكل» Buckle - منذ سنوات. قد اختفى متنحياً من الميدان ليحل محله نشاط فكري قبل أن أثمرت صورة من صور النشاط التي انتابت الفكر الانساني بمثل ما أثر في كل العصور. فان مجموعات من الحقائق العلمية التي استجمعت على مر الزمان، وظن من قبل بأنها عقيمة ولا فائدة منها، قد أحييت وانتعشت بل ان حقائق ثابتة لم يعرف لها العلماء معنى أو فائدة، قد فسرت وعرفت معانيها الصحيحة من معجم الطبيعة. وتحت هذا التأثير الجديد. هب فيلق كامل من شباب المعلمين واحتل كل منهم ناحية من نواحي البحث الطبيعي وافقت مشربه ولاءمت هواه. وظهرت على إثر ذلك الكتب المتكررة الناضجة، دبجتها أقلام رجال من مختلف الامم. وحسبك أن تعرف ان مؤلفيها كانوا من أمثال سبنسر وولاس وهكسلي وغالتون وتندول وتيلور ولابوك وبيرون ولوبس في انجلترا. وفئة من أكبر كتاب المانيا وايطاليا وفرنسا وأمريكا فانهم جميعا قد أصبحوا بمؤلفاتهم التي أخرجوها من كبار النقاد في كل فرع من فروع علم الحياة. على أن فئة من شيوخ علماء فرنسا قد ظلوا مستمسكين بالفكرة القديمة متأثرين بما كان لكوفييه من سلطة ونفوذ غير ان هذا لم يعق شباب فرنسا عن أن يقتحم افراده السبيل الى عالم النور والعرفان.

إن مصدرا واحدا من مصادر المعارضة لا يجب علينا اهمال أمره هنا -

(١) اظهرت الجزء الاول من الكتاب مطبوعا في العربية سنة ١٩١٩ وكنت قد اخذت في طبعه في اواخر سنه ١٩١٨ ونفدت طبعه الجزء الاول قبل ان اتمكن من طبع بقية الاجزاء فاخذت في طبعه طبعة كاملة ظهر منها حتى الآن جزآن والثالث يظهر قريبا ويليه الرابع والخامس.

ذلك لان هذا المصدر مثله لو بس اغاسيز — Louis Agassiz .

كان أغاسيز من كبار الباحثين ، ومعلم أوحى اليه بالعلم وأوحاه ، وكان فوق ذلك رجلا نبيل النفس عالي الهمة ؛ تلقى نظرية في الخلق العضوى وأخذ يلقيها ويلقنها ، فلم يكن في مستطاعه أن تتبدل منها بنظرية أخرى طواعية وبين عشية وضحاها . وظلل عقله وقلبه جو تلك الابرشية السويسرية التي ولد فيها ، وكانت ميوله الدينية وآدابه على ما كان فيهما من جمال وروعة ، قد جرحتها ونالت من عزتها شطحات بعض المتحمسين لنظرية النشوء ممن لا اختصاص لهم بها ، اذ كانوا يجهرون باشياء كانت بطبيعتها ضد الدين ، كما حملت بزورا من الفكر ظهرت لاول وهلة كأنها على نقيض شريعة الآداب . أضف الى ذلك الاتجاه العقلي الذي ورثه عن « كوفييه » فان هذين التأثيرين معاً قد اتحدا وتعاونا ليكونا سببا في أن يرفض « أغاسيز » الفكرة الجديدة في النشوء .

وكان « أغاسيز » ثالث ثلاثة من العظماء الذين أقاموا السد في وجه نظرية النشوء وأحكموا بناءه بعد أن اقاموا من دعائمه . كان أولهم « لنيوس » في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وثانيهم « كوفييه » في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، كما احتل « أغاسيز » مركز سالفيه في النصف الاخير من ذلك القرن . على أن كلا من هؤلاء لا يزال يذكر حتى الآن ولعب العظمة والنبوغ ينبع اسمه انىما ذكر . غير أنهم لم يستطيعوا مع ذلك أن يصدوا التيار أو يحولوا مجراه . فان الجهود التي بذلها « أغاسيز » في امريكا على عظمتها والجهود التي بذلها في أوروبا نفسها ، كانت لدى الواقع سبباً في الترويج لمذهب النشوء . فمن دار العاديات الطبيعية التي انشأها في كمبردج ومن مدرسته التي أسسها في « بنكيز » — Penikese — ومن قاعة محاضراته في جامعة « هارفارد » وجامعة « كورنل » كان يخرج تلاميذه وانصاره وقد افعم قلوبهم الحب والاعجاب باستاذهم الكبير ، ودانوا حماسة للعلم يجرئ أصولها في انفسهم نحو المبادين

التى يريد لهم أن يرتادوها . غير أن قواهم التى عمل « أغاسيز » على تثبيتها وتعزيزها ، قد انصرفت كلها الى تزكية الحقيقة التى عجز هو عن الاعتراف بها والترويج لها بكل طريق مستطاع . فان شابار ومرفيل وباكارد وهارت وويلدر وجوردان ولفيف غيرهم وعلى الاخص ابنه الذى تشرف بان يحمل اسمه ، قد انصفوه كل انصاف ومجدوا ذكراه كل تمجيد ، بان استخدموا كل ماتلقوا عنه من علم ، الى البحث مؤمنين بالوحى الجديد الذى هبطت عليهم به نظرية النشوء الحديثة .

على أنه لايجدر بنا أن نهمل ذكر رجل آخر ننصف اذ نخصه بالتبجيل والاحترام ، هو «ادوارد لفنسون يومانز» Edward Livingstone Youmans فانه على الارجح أول باحث فى أمريكا أدرك ما للحقائق الجديدة التى بشر بها داروين وزميلاه وولاس وسبنسر من خطر وكبير أثر ولقد اعتنق هذه الحقائق ، مضحيا فى سبيلها كل آماله فى بحثه الذى كان بدأه كمحاضر ؛ مستهديا بهدى هؤلاء الزعماء الثلاثة رافعا رايتهم ، مكبا على الكتابة والنشر ، معلنا عن الحقائق الجديدة ، مدافعا عنها بكل ما استطاع من قوة .

ولقد أيدت المذهب الجديد طائفة كبيرة من الحقائق الثابتة ، كان أكبرها شأنا ما كشف « لداروين عمه فى تلقيح بعض أنواع النباتات وما استمد من مبادىء علم الامبريولوجيا — تكوين الاجنة — ونبع هذه مجموعة الاستكشافات التى وصل اليها وولاس و بانسن وهكسلى ومارش وكوب وليدى وهيكل وموللر وجودرى وغيرهم من النابهين فى أقطار الارض .

٤ — جهد اللاهوت الأخير

مهاجمة داروين ونظريته فى انجلترا — فى امريكا — تكوين جماعة علمية كنسية لمحاربة نظرية النشوء — الهجوم فى فرنسا — فى المانيا — اعتناق « ليل » لمذهب النشوء — مهاجمة كتاب داروين « نشوء الانسان » — الفرق بين هذا الهجوم والهجوم الأول — معاداه المذهب الداروينى فى امريكا — تغير فى لهجه العداء — محاولات فى سبيل التوفيق — تضاؤل العداء لفكرة النشوء — آخر الانهيارات اللاهوتية — انتصار فكرة النشوء الأخير .

كان مثل كتاب « داروين » — اصل الانواع — إزاء عالم اللاهوت، كمثل محراث صادف قرية من قرى النحل فى أرض مرملة . فكنت ترى فى كل مكان اولئك الذين صحوا من نومهم الهادىء العميق قد تهافتوا جماعات أخذها الغضب وفعل بها الاضطراب . فالمجلات والمواعظ الدينية والكتب كبيرة وصغيرة : أخذت تنهال على المفكر الجديد من كل جانب انهيالا وتترامى عليه تراميا .

أما رحى اللاهوت فقد حملها توا ومن غير توان مستر « ويلبرفورس » اسقف أوكسفورد وظهر بها على صفحات مجلة الكوارترلى . فقد أعلن أن « داروين » قد أجرم أشنع جرم بأن « حاول أن يحدد مجد الله فى فعل الخالق » وأن « مبدأ الانتخاب الطبيعى لا ننفق بحال من الاحوال مع كلمة الله » . وأنه « يناقض العلاقات المنزلة التى ربطت بين الخلق وخالقه » . وان هذه النظرية « لا تتفق وما يقتضيه كمال المجد الالهى » وأنها نظرية فى الطبيعة يحقر القائل بها » — وأن هنالك تعليل أبسط وأكثر بداهة يمكن أن يعلل به وجود تلك الصور العضوية الغريبة القائمة بين أعمال الله » — أما ذلك التعليل فينحصر « فى هبوط آدم » . ولم تقف جهود الاسقف الكبير عند هذا الحد . ففي

اجتماع الجمعية البريطانية لتقدم العلوم زج الأسقف بنفسه في ذلك التيار الشديد. ولما أشار إلى آراء « داروين » وكان غائباً عن الاجتماع لمرضه، حمد لنفسه في خطبة ألقاها أنه ليس منحدراً من القردة. فرد عليه هكسلي المعروف بقوله « لو خيرت لفضلت أن أكون من نسل قرد دنيء النسب، على أن يكون أبي رجلاً من البشر يستخدم معلوماته ومعارفه وقوته الخطابية، في تحقير أولئك الذين يفنون أعمارهم الطيبة في سبيل البحث عن الحقيقة. »

ولقد دوت هذه القذيفة في أنحاء انجلترا دوياً تناقلته عنها أجواء البلاد الأخرى.

على أن أقوال « ولبرفورس » وكان معدوداً من أنبه رعاة الكنيسة الانجليكانية، قد تلقتها الكنيسة الكاثوليكية الانجليزية وجاوبت عليها بصوت آخر. ففي خطاب ألقاه الكردينال « مانينج » Manning أمام أعضاء « الأكاديميا » Acodemia وكانت قد تكونت لمحاربة ما يدعى العلم « Science » هوجم المذهب الطبيعي الجديد ورمي بالتجديف ووصف بأنه « فلسفة وحشية إذ تقضي عقلاً بأن لا إله، وأن القرد هو أبونا آدم ».

ان هذه الهجمات التي قامت بها مصادر اشتهرت في عالم اللاهوت ونبه صيتها في جو الكنيسة قد صبغت الفكر الكهنوتي بصبغة دامت بضع سنين. فقد ذهب كاتب كهنوتي معروف على الرغم من السنوات الثلاثين التي أنفقها « داروين » في عمله الهادئ المستمر، وعلى الرغم من تمحيص أصل الأنواع تمحيصاً بالغ منتهى القوة والمتانة، إلى القول في إحدى مقالاته « لكان أجدر بداروين أن يكون أكثر تهيباً بأن يزودنا ببعض الأسباب المعقولة التي تحملنا على نبذ المذهب الذي يعتقده الجميع » ولذلك لاهوتي آخر مشهور وكان نائباً لرئيس معهد أسس لمحاربة العلوم « الملحدة » أو « الخطرة »، فقد أعلن بأن مذهب داروين محاولة يقصد بها إنزال الله عن عرشه ». وذكر ثالث أن أولئك الذين تقبلوا مذهب داروين وآمنوا بصحته بأنهم كسالى الذهن وقعوا تحت تأثير وحي جنوني

أوحى اليهم به من استشم غازاً و باثياً كريهاً ، كما قال فى براهين داروين أنها « غابة ملتفة من فروض خيالية » وتكلم آخر فى مذهب داروين بانه بفرض أن الله « قدمات » ، وأعلن أن مؤلفات داروين إنما ـ تفتح باب الاضطراب فى كل ىء من الاشياء التى أظهرها لنا الله فى كتبه المقدسة عن وسائلها و نتائجها فى عمله. وقال ثقة آخر من رجال اللاهوت بأنه إذا كان مذهب داروين صحيحاً ، إذن فسفر التكوين كذب ؛ و به ينهدم ذلك الهيكل العظيم الذى نستقرىء آياته فى كتاب الحياة و يتحطم تحطما ، و يصبح وحى الله للانسان ، كما نعرفه نحن أبناء النصرانية ، عبارة عن سخرية و خيال » . و قال آخر من أظهر صفات فقد ة أهلت به لان يكون من مستقرئى أسرار الطبيعة . بأن المذهب الداروبى « دعوى باطلة من أولها » . .

و من جو أمريكا ترددت الاصداء . فقد قالت مجلة من أكثر مجلات الفئات الدينية انتشاراً فى امريكا — أن داروين « يحاول إن يزيد الاشكال ظلاماً على ظلامه » . و رفضت أخرى فكرات داروين باعتبار أنها « خيانة » وعدم « أمانة » . و أعلنت المجلة التى تمثل فرع الكنيسة الانغليكانية بعد أن أوسعت « داروين » تسفيها وتحقيراً أن مذهبه — « سفسطة و بعد عن المنطق » ، ومن ثم دلفت بقدمها فى مناقشة خطرة قالت فيها ـ إذا صحت هذه النظرية الفرضية فهل نكون الاناجيل خيال لايمكن تصديقه ؟ و هل ظل النصاري أكثر من الفى سنة غارقين في لجات بم عميق من الكذب الفاضح؟ إن داروين يريدنا أن نكذب كلمة الخالق الاولى » . وحاولت جريدة أخرى تابعة لنفس هذا الفرع من أفرع الكنيسة أن تثبت أن نظرية النشوء مناقضة للنصوص الصريحة التى أعلنت فى العهد الجديد ، كما أنها تناقض نصوص العهد القديم : ثم قالت : إذا كنا جميعا أناسى و قروداً ؛ أصدقاء و براه ، قد نشأنا من جرثومة أصلية واحدة فهل يمكن أن يكون تصريح القديس بولس العظيم من أن

الاجسام مختلفة وأن أجسام الآدميين نوع غير أجسام البهائم والوحوش وهذين غير أجسام الاسماك والطيور؛ غير صحيح ؟

وارتفع صدى آخر من اوستراليا ، حيث نشر الدكتور «برى» Dr. Perry كبير اساقفة ملبورن كتابا هو أشد الكتب مضاضة وأكثرها مرارة عنوانه « العلم والانجيل » اعان فيه أن الغرض الاول الذي يرمى له شامرس و داروين وهكسلى - هو أن يزرعوا فى قرائهم بزرة انكار الانجيل وعدم الاعتراف به »

وهل يمكن أن نظل مروع الكنيسة القديمة من خلف هذه الجلبة ساكنة هادئة ؟ كلا . فقد صرح « بيمان » Bayman فى مجلة — « عالم الكثلكة » قائلا « لنا الحق فى أن نعتقد أن داروين ليس الا بوقا ينطق عن تلك الفئة الكافرة المجدفة التى ليس لها من غرض أن إلا تذهب بكل فكرة فى حقيقة وجود الله »

ومن الانبياء التى لا يجب علينا أن نهمل الاشارة اليها لخطورتها فى اظهار مقدار مابيت عليه الجانب اللاهوتى فى ذلك العهد كان تأسيس معاهد العلم القدسى التى هيئت لمحاربة الفكرات الجديدة . ومن أولى هذه المؤسسات « الاكاديميا » Acodemia التى وضع تصميمها الكردينال « ويزمان » Wiseman فقد نشر الكردينال رسالة دورية ، وكان فى العادة رصينا عادلا ، أنذر فيها الناس وختمها بقوله — « والآن يكون من واجب الكنيسة التى تملك وحدها دون غيرها الحقيقة القدسية ، أن ترأس بلا تردد ولاموارباة حركة فعالة نقاومها ماتهدد بقايا اجزاء المعتقد النصرانى فى انجلترا ». ولقد حصل على الاذن اللازم من « روما » وأسست الأكاديميا وظهر « الحصافة القدسية » التى خصت بها الكنيسة فى أقوال صدرت عنها ، كتلك الأقوال التى قذف بها الكردينال « مانينج » Manning - والتى يود كل كاثوليكى مفكر أن يعدها الى ذكراه ، وفى محاكمات الدكتور « لبنج »

Dr. Laing وكلها أقوال لم تثر الا ابتسامات السخرية والازدراء. ولقد ظهرت في النواحى البروتستانية جهوداً مشابهة لهذه. فقد تأسس « معهد فكتوريا » ـ The Victoria Institute ولا يبعد أن يكون أهم عمل صدر عنه هو ذلك النداء الذي أذاعه نائب رئيسه المحترم « وولتر متشل » Rev. Walter Mitchell وفيه قال ـ « إن المذهب الداروينى يحاول أن يخلع الله عن عرشه ».

أما في فرنسا فان الحملة كانت على الارجح اشد وأقسى. فقد أخرج فابر دنفيو » Fabre d'envieu مدافع اللاهوت الفخمة من ثكناتها القديمة، وفى سلسلة طويلة من الفروض المستفيضة قضى بأن كل نظرية غير نظرية ثبات الانواع وعدم تغايرها، إنما تناقض نص الكتب المقدسة مناقضة تامة صريحة. أما « دبسبورج » فكان من قبل استاذاً للاهوت قد دمغ داروين بطابع فقال إنه «مدع» ونعت نظرية النشوء بانها « مظلمة معتمة ». أما المونسنيور سيغور Segur فلما أشار الى « داروين » وأتباعه فقد أخذته الهستيريا فقال، إن هذه المذاهب المرذولة لا يؤيدها الا احط النزعات وأسفل المشاعر. فابوها الكبر وأمها قذارة النفس، وهاذان لا يلدان الا الاورات. مذاهب ماخرجت الا من جهنم ولن تعود الا اليها، ومعها تلك المخلوقات الغليظه التى لا تعلوها حمرة الخجل عندما تعلن تلك المذاهب وتدافع عنها ».

أما فى المانيا فان الحملة ان كانت أقل اسفافا، فانها لم تكن أقل شدة. فقد تكاتف اللاهوتيون من كاثوليك وبروتستانت وعملوا معاً. فاعلن الدكتور « ميخيلس » Dr. Michelis ان نظرية داروين «صورة كاريكاتورية للخلق» وأكد دكتور « هاجرمان » Dr. Hagermann أنها « نفت الخالق وطردته خارج الابواب » وصمم دكتور « شمد » Dr. Schmid على القول بان « كل فكرة فى الكتب المقدسة، من أول صفحة الى آخر صفحة فيها، تناقض نظرية

دار وين » على خط مستقيم » . وأنه ـ اذا كان « داروين » محقاً في قوله بنشوء الانسان من صورة حيوانية منحطة ، فلاشك فى ان تعاليم الانجيل فى خلق الانسان تتبدد وتذهب سدى » . ودعا « روجمون » Rougemont في سويسرا الى القيام بحرب صليبية تعلن ضد هذا المذهب الخاطىء المفسد » أما « لوثاردت » Luthardt استاذ اللاهوت فى ليبزج فقد أعلن « بان فكرة الخلق ملك للدين لا للعلم الطبيعى . وان كل الهيكل الاعلى للدين الذاتى انما يقوم على مذهب الخلق » . ثم أظهر من بعد ذلك أن نظرية النشوء تناقض الحكمة القدسية مناقضة تامة .

غير أنه حدث فى سنة ١٨٦٣ ما أوقع الاضطراب فى معسكر اللاهوتيين. فان « سير « شارلز ليل » Lyell أشهر جيولوجي عصره غير منازع ، وكان رجلا ذا ميول ومشاعر دينية رسيسه ؛ على ماامتاز به من خلق الحذر والحيطة وعلى ماعارض به نظرية « لامارك » النشوئية ، وعلى ما أعلن عنه من انتمائه علنيا إلى نظرية الخلق المستقل . قد أصدر إذ ذاك كتابه « قدم الانسان » Antiquity of Man فاظهر فيه وفى غيره من الكتابات أنه من أنصار «داروين» المؤيدين لنظريته المتابعين لمذهبه ، مكرها لامختاراً . وكانت هذه الضربة قاسية فى كثير من النواحي ؛ وعلى الاخص فى ناحيتين : الاولى في أنها نقضت فى الحقيقة كل أساس كانت تقوم عليه التأريخات القدسية . والثانية في أنها انقصت الثقة بنظرية الخلق . بل كانت ضربة غير منتظرة ولا محسوب حسابها . ففي كثير من المطالعات التي تناول بها اللاهوتيون نظرية « داروين » فزع الى « ليل » وبعض الاحايين فى أسلوب يدعو الى الاشفاق ، بأن لا يرجع عن الحقائق التى أعلن عن اقتناعه بها من قبل » . غير أن « ليل » قد سمت به أمانته الى حيث أذعن بغير تحفظ الى مجموعة البراهين الجديدة التى أيدت نظرية النشوء ضد نظرية الخلق

وفى الوقت ذاته صدر كتاب هكسلى « مركز الانسان فى الطبيعة » Man's Place in Nature فاورد فيه كثير من البراهين الثابتة القوية التى تؤيد نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعى.

وفى سنة ١٨٧١ نشر كتاب داروين « تسلسل الانسان »

أما المذهب الذي ذهب اليه داروين فى كتابه هذا فقد سبقه به غيره من النقاد الذين تناولوا كتبه الاولى ، غير أنه فضلا عن هذا قد أحدث صدوره رجة عظمى ، تجمعت على أثرها فلول الجيش المعارض ، ولكنه لم يتزود بمثل ماتزود به من حرارة فيما مضى . على أن البعض كان قاسياً . فان « مجلة جامعة دبلين» The Dublin University Magazine متبعة الطريقة القديمة، قد اتهمت « داروين » بانه يبحث كيف يخلع الله عن عرشه بعمل مستمد من سورة الاوهام ، وأنه يحاول أن يقتنص الله خارج العالم . غير أن أخطر ماجاء عن الكنيسة القديمة كان مارد به على داروين الحكيم الكاثوليكى المعروف دكتور « قسطنطين جيمس» Dr. Constantin James الفرنسوي في كتابه « الداروينزم أو الانسان القردى » الذى نشر في باريس سنة ١٨٧٧ لم يسفه دكتور قسطنطين العلامة « داروين » علمياً، بل قذف كتابه بكل أنواع الاحتقار ناعتاً اياه بانه « اسطورة » وظهر مقتنعا بان كتابا كهذا بلغ ذلك المبلغ من « الخبالية والانحطاط » لايمكن أن يكون أكثر من أضحوكة كبرى مثل كتاب اراسموس المسمى « مدح الجنون » أو كتاب « مونتسكيو » المسمى « خطابات فارسية » . ولقد اغتبط أمراء الكنيسة . وقد أكد الكردينال اسقف باريس للمؤلف بان الكتاب أضحى « مصرأته الروحانيه » ورجاه أن يرسل نسخة من الكتاب للبابا نفسه . ولقد رد قداسة البابا بيوس التاسع بخطاب مثنى على المؤلف مادحا الهدية بل وشكر لاده المحبوب « أى المؤلف » كتابه الذى نقض فيه بلباقة الزيغ « الداروينى » ولقد أضاف قداسته الى ذلك قوله — « إن مذهبا يناقض التاريخ

من ناحية ، وتقاليد كل الامم والعلم الصحيح والحقائق المرئية ، بل والعقل نفسه من أخرى لا يكون محتاجا الى نقض أو رفض، لولا أن الجنوح الى الخروج على الله والنزعة الى المادية ، التي لا سبب لها إلا الجهل، تمت دائما الى هذا النسيج الخرافى محاولة أن تستمد منه عونا . . . على أن الجبلاء بعد أن رفضت الاعتقاد بالله موجد كل الاشياء ، وبعد أن أعلنت على الملأ أن الانسان مستقل ، مهيئه به فى أن يكون هو بذاته سيد ذاته ، وأنه يكون هو بذاته فسبس نفسه ، وأن يكون هو بذاته إله ذاته — إن الجبلاء بعد كل هذا قد خطت خطوات أخرى حتى بلغت حدا عنده جردت فيه الانسان وأنزلته منزلة السوائم غير العاقلة، بل ربما نزلت به الى درك المادة الميتة ، وبذلك حقفت ، على غير وعى منها ؛ القول القدسى « حينما تكون الجبلاء تكون الوقاحة » غير أن فساد هذا العصر ومحاولات الفسقة وطرائقهم ، وخطر الغفلة البسطاء، كل هذه الاشياء تطالب أن تنقض أمثال هذه الاوهام ، ولو أنها مضادة للعقل ، بالعلم الصحيح ، مادامت هى تتقنع بقناع العلم ، ، وبعد ذلك شكر البابا دكتور جبمس على كتابه قائلا - « إن الحاجة اليه كانت شديدة . وأنه من امس الاشياء لحاجات عصرنا هذا » ثم منحه من بعد ذلك البركة الرسوليه . غير أن الامر لم ينته عند هذه « البراءة » فقد صحبتها أخرى إذ منح المؤلف رتبة من سياسة القديس « سلفستر » البابوية. أما الكردينال أسقف باريس فقد أكد للمؤلف بان أحداً غيره لم تفز بمثل هذا العطف البابوى ، واقترح عليه أن ينظر فى طبعة أخرى نظرة أعمق فى — « العلاقة الكائنة بين قصص سفر التكوين ومستكشفات العلم الحديث ، على طريقة يمكن بها اقناع أشد الناس إنكارا بان لا تناقض بينهما » ، وكذلك لم يقف المؤلف عند هذا الحد بل تطلع الى ماهو أعلا . فان تجارب الطبعة الثانية عرضت كلها على فخامة الكردينال ، ثم ظهر الكتاب فى سنة ١٨٨٢ تحت عنوان « موسى وداروين : رجل التكوين مقارنا بالرجل القردى - أو التربية

الدينية أزاء التربية الالحادية » ولاعجب بعد ذلك اذا عانق الكردينال المؤلف شاكراً اياه باسم العلم والدين معا ، قائلا — « لقد حصلنا أخيرا على كتب نستطيع أن نضعه بين أيدي الشبان آمنين »

وفي الغالب أن حماة البروتستانتية من المحافظين لم يكونوا أقل حماسة وتطرفا. فقد جاء في خطاب القاه مستر غلادستون في ليفربول ما يلي : — على القواعد التي يبثها المذهب المسمى بمذهب النشوء ، يتخلص الله من كل متاعب الخلق ؛ و باسم القوانين الطبيعية الثابتة أخرج من يده حكم الدنيا . و لما نبهه مستر « هربرت سبنسر » الى حقيقة أن « نيوتن » بنظريته في الجاذبية و مبادئه في علم الفلك الطبيعي معرض لنفس هذه التهمة ، تراجع مستر غلادستون في مجلة « الكونتمبوراري » مختفيا وراء سحب كثيفة من الكلمات كما هي عادته في المناقشات . أما المحترم دكتور « كولز » في « المجلة الانجيلية لانجلترا والخارج » فقد أعلن أن « آله » النشوء ليس هو بنفسه « آله » النصرانية . كذلك كانت خطبه . مستر « برجون » Burgon اسقف شيستر في موعظة ألقاها في جامعة اكسفورد . فقد حذر الطلاب في استعطاف قائلا — « ان الذين يحاولون رفض الاعتقاد بصحة تاريخ خلق أبوينا الأولين ، كما هو منصوص عليه حرفياً في الكتب المقدسة ، ليستبدلوا بها خيال النشوء الموهوم — انما هم في ضلال . » و لقد اقتحم دكتور « بيوزي » Puoey المعركة مهيباً بالناس في جدو أمانة أن يرفضوا الاخذ بالمذهب الجديد ، وكذلك المحترم « جافن كارليل » — Gavin Carlyle ، فانه تبع نفس السبيل وانضم الى ذات الحرب . وطبعت جماعة تقدم المعرفة النصرانية — Society for Promoting Christian knowledge — كتابا ألفه المحترم مستر « بركس » — Birks — أعلن فيه أن مذهب التطور » مضاد أولا و آخراً للمعتقد الاساسي في الخلق » . أما « اللندن تيمس » فقد ذكرت في مراجعة نشرتها عن كتاب تسلسل الانسان أنه — « عبارة عن نظرية وهمية — مملوءة « بقضايا لا أساس لها و أبحاث

لعينة و تأملات لاتحدث الا التفكك في ألفة العقل » وان داروين نفسه ليس الا رجلا « كافراً جاهلا بالعلوم » .

ولكن لوحظ أن سلسلة الهجمات الثانية التي وجهت الى كتاب « تسلسل الانسان » قد اختلفت في اعتبار واحد ذي خطر ـ وذلك بقدر ماهم انجلترا ـ من تلك الهجمات التي وجهت من قبل الى كتاب « أصل الانواع » . فبينما كانت كل المساعي التي بذلت قد وجهت الى اقلال الثقة بداروين ، والى صب أنواع الاحتقار والسخرية عليه ، والى اظهاره بمظهر « المهاجم للنظرية المضطهد لها » ـ وهو بعد أكبر من كانت تقل الارض في أيامه من رجال النبوغ والعبقرية مصروفة الى العلم . هذا بينما كان انصاره يصورون في الاقلام بصورة المنافقين المكابرين ـ بينما كان هذا مفعماً جو الجلاد الفكري ـ كنت ترى أن نصراء القديم كانوا قد تنكبوا القول بان النشوء حتى على قاعدة الانتخاب التي قال بها داروين ـ مناقض لنص التنزيل . ولقد كان انتصار «سبر ليل » للنشوء سابقا في أن يثير التساؤل بين اللاهوتيين الذين احتفظوا بشيء من التوازن العقلي في رؤوسهم قائلين : ماذا يكون لو أن مذهب داروين قد ثبتت صحته علمياً ، ؟ على أن ذكريات تلك المواقف التي وقفتها الكنيسة بعد أن ثبتت صحة المذاهب التي استكشفها كوبرنيكوس وغاليليو . قد عادت الى اذهان الذين هم أصفى عقلا وأقوم طريقه . غير ان هذا الاعتبار لم تظهر في ألمانيا آثاره سريعاً كما ظهرت في انجلترا . فان أحد مشهوري رجال الكنيسة اللوتريين في « مجدبرج » مثلا قد أهاب بسامعيه أن يوازنوا مختارين بين داروين والدين . أما « د يلتش » Delitszch فقد حاول في تعليمات دينه كان قد وضعها على سفر التكوين ، ان يرجع بالعلم خطوات واسعه معترفا بان خطيئة الانسان عامل من عوامل الخلق الاساسيه . أما الاستاذ « هنريش إيوالد » Prof. Heinrich Ewald فبعد أن حاول التخلص من كل اصطدام يمكن أن يحصل بين التعاليم المبتذلة

و بين مذهب النشوء ؛ فد أرضى ضميره بان أنزل بداروين واتباعه كل صنوف الاحتقار والتحقير . وكذلك « كريستليب » Christlieb فانه فى خطابه الذى القاه أمام الجمعية الانجليزية فى نيويورك سنة ١٨٧٣ فد لجأ ببساطة إلى القول بأن المتجهات التى تتمشى فيها نظرية داروين إنما هى متجهات « تقود إلى الكفر » ولكنه مع هذا تحاشى أن يثير معركة انتقادية يتخذ الإنجيل فيها سلاحا . أما فى هولاندا فقد قام الأب « بيش » Pesch وكتب باللاتينية ، شأن القدماء ، استعراضا عاما لنظرية النشوء ــ كان ولاشك مثيرا للعجب ــ فكان بمثابة فيلق من فرسان القرون الوسطى أدرعوا الحديد وحملوا القوس والنشاب فى ميدان حرب من طراز القرن التاسع عشر !

أما أمريكا فقد تجاوبت أنحاؤها ، بأصداء جديدة . على أننا نختار من بين الآلاف المؤلفة من الهجمات التى وجهت الى داروين من البروتستانت والكاثوليك على السواء ، معركتين اختص بهما رجلان من نقاد ذلك العصر . أما الاول فكان الدكتور « نوح بورتر » Noah Porter رئيس كلية « يال » وهو أحد مشهوري الباحثين وكاتب من أمهر الكتاب ورجل من أنبل الرجال ، كثير التسامح يجمع فى تفكيره مزجاً غريبا من المغالاة فى التطرف مع الامعان فى المحافظة . لذلك نرى أنه بينما اباح لمذهب النشوء فى الجامعة التى عهد اليه بها أكبر دائرة ممكنة من التسامح ، فانه شعر بان من واجبه أن يصرح مرة واحدة بعدم اعتقاده من صحته . غير أنه كان من النهى واتزان العقل بحيث قال إنه لا يرى اى عداء بين هذه النظرية وبين النصوص المنزلة بل أنه قد عمد فيما كتب الى الاقتصار على الاشارة الى ان مذهب النشوء ينزع فى الصورة التى أظهرها به داروين الى اللا ادرية و وحدة الوجود . اما الذين عرفوا دكتور « بورتر » ومحضوه الحب والاحترام ، وتنبهوا باهتمام طريقته المعقولة التى اتبعها فى اهمال شأن العلم وعدم اعطائه فرصة ولو محدودة ليسمع صوته بين جدران معهده ؛ فقد أخذوا من ذلك باشد العجب الممزوج بالاعجاب .

على مرمى حجر واحد من مقر الدكتور « بورتر » فى معهد « بال » تقوم دار العاديات الباليولوجية التى رتب فيها البروفسور « مارش » جنبا الى جنب . تلك الحلقات الحفرية المتتابعة التى تثبت تطور الحصان منذ أقدم ازمان الحياة — عندما كان فى حجم الثعلب وبارجـــل ذات خمسة اصابع — متمشيا خـــلال تلك الحلقات حتى بلغ صورته التى نراه عليها اليوم شكلا وحجما – تلك الحلقات التى قال العلامة « هكسلى » بانها برهان لا ينقض على أثر الانتخاب الطبيعى كعامل أساسى فى النشوء . لهـــذا نجد أنه على الرغم من الاحـــترام والحب الصادق الذي كان لدكتور « بورتر » فى قلوب رجال جامعة « بال » ، لم يكن ينتظر أن تصبح أدلته التى جاء بها ذات أثر ثابت فى عقولهم ، ما دامت « دار الآثار الحفرية » تحتوى على مثل هذا البرهان الناصع الذى يؤيد مذهب النشوء بما لا يترك مجالا لريب أو فسحة لشك بحال من الاحوال .

ولكن بجانب هذا قام عدو لدود ثابت العقيدة هو المحترم دكتور «هودج» Dr. Hodge من جامعة « برنستون Princeton » فان غضبه على مذهب النشوء كان « حامياً » . فانه رفض المذهب باعتباره مذهباً « إلحاديا » . وقال فى يقين بان النصارى لهم « الحق فى أن يحتجوا على نشر مثل تلك الرجعات الغامضة الخطيرة ضد الايضاح الكامل والادلة الثابتة التى تتضمنها الكتب المقدسة » . ولقد بلغ به التطرف فى الجمود الى حد أن هاجم الدوق « أرجيل » وهو معتبر من أشد الكتاب محافظة على القديم ، معلماً أن نظرية دارون فى الانتخاب الطبيعى لا تتفق « بحال من الأحوال على نص التنزيل المقدس » – وأن – « آلها غائباً لا عمل له فى الكون ، لا يمكن أن يكون آلهاً عاقلا » . – وان – «إنكار القصد والغاية كما صورا فى خلق الله ، هو بمثابة انزال الله عن عرشه » . – وان – « انكار الغاية والقصد على الطبيعة انكار لله بالاستتباع » . وأنه – « لا ينبغى لمن يعتقد بالقصد فى الخلق أن يكون داروينيا » .

ولقد كان في هذه الجامعة نفسها رجل أشد مراساً وأمر تعصباً » هو المحترم دكتور « دوفيلد - Dr. Duffield - وكان من ثقاة المعلمين بها وأصحاب النفوذ بين جدرانها . فانه لم يعلن الحرب ضد داروين وحده ، بل وجهها ضد رجال من طراز اغاسيز ولاكونت وغيرهما من الذين حاولوا التوفيق بين النظرية الجديدة وبين النصوص المقدسة ؛ قائلا بان « التوفيق بين مذهب النشوء وبين النـ ـبل فيما تختص بنشوء الانسان غير ممكن ، وان النظرية الداروينية « نعارض مواجهة تعاليم الرسل بان كل تنزيل هو من كلمات الله التى لا تتبدل » وأشار بعد ذلك فى حملته على داروين في كتاب « تسلسل الانسان » وعلى « ليل » فى كتابه « قدم الانسان » - ان صلة النسب الانجيلية التى تصل الاسرائيليين فى مصر بآدم وحواء بينة لا يمكن التنازع فيها » ولقد ختمت أقوال الدكتور « دوفيلد » باعلان اجدر بنا أن نشير به الى أن فى امكان أحد رجال الكهنوت فى المذهب المسيحى أن ينتحل سلطة البابا والاساقفة فى ان يعلن طرد البعض من الكنيسه دون بعض . فقد قال فى مجلة جامعة « برنستون » « إذا تسنى لمذهب النشوء أن نطبق بعد قليل على أصل الانسان — وذلك أمر غير مشكوك فيه — مع ما يتبعه من التأملات العلمية المتحجرة أو ابدتها في هذا العصر ، فان الذين يقبلون نتائجه المنطقية سوف يكونون في الحياة الأخري من زمرة اولئك الذين لم يعرفوا الله فى هذه الحياة ولم يطيعوا أوامر انجيله كما انزل على ابنه » .

ولكن من حسن الحظ انه فى الوقت الذي أذاع فيه داروين كتابه « تسلسل الانسان » رأس جامعة « برستون » دكتور « جيمس ماكوش » Dr. James Mccoch ولم يكد يعتلى كرسى رآسة الجامعة حتى أذاع بانه يضاد كل تلك التعاليم الخطرة التي لا توجه خطورتها لشيء بقدر ما توجه الى النصرانية ، تعاليم دكتور هودج ودكتور دوفيلد وأتباعهما . ففى إحدى خطبه المعروفة اظهر للناس سر الخطورة في هذه التعاليم . فقد أظهر بما عرف فيه من قوة الخلق

الايقوسى ، ذلك الخلق الذي اشاد به الكاتب « ثاكري » في أشعاره ، أن أخطر المخاطر التي تتعرض لها النصرانية في جامعة « برنستون » أن يعاد من فوق منبر الخطابة فيها وعلى مسمع من الطلاب، أسبوعاً بعد أسبوع ، قراءات النشوء بالانتخاب الطبيعى ، أو النشوء على وجه عام ، إن ثبتت صحته ، انتقصت صحة الكتب المقدسة . فقد أظهر ان هذه الطريقة هي الطريقة المثلى لغرس بذور الكفر في قلوب الطلبة . ولهذا فانه لم يحظر مثل هذه المواعظ فقط ، بل بسر نظرية جديدة ، اتخذت قاعدة للوعظ والارشاد . فان ابتداء عهده كان في الحقيقة ابتداء عصر التوفيق بين الناحيتين ، وعلى الرغم مما رمى به من أنه داروينى ، فانه لم يأبه لشيء من هذا وشق طريقه نابه القدم موفق السبيل .
ومهما يكن من أمر مارى العلماء في مذهبه الفلسفي ، فان احداً لا يستطيع أن ينكر أثره الثابت وخدمته العظمى التي أداها بالكشف عن التبشير بمعالم الذين سبقوه و أنصارهم ـ تلك المعالم التي تناولت خطورتها كل ماهو أساسي في تعاليم النصرانية .

ولم يكد يخطو دكتور « ماكوش » هذه الخطوة حتى تابعه فيها كثير من رجال الدين قانعين بان المرأ من الممكن أن يكون نصرانياً ومن أنصار داروين في آن واحد . غير أنه على الرغم من هذا ظهر بين آن وآخر خوارج على هذا المذهب . ففي سنة ١٨٧٣ نشرت « مجلة الطب الشهرية » التي تظهر في بوسطون : قراراً بان دكتور « بر » Dr. Burr قد استطاع أن « ينقض نظرية النشوء وأنه أخمد أنفاسها ورمى بها الى الكلاب » . ولقد كرر مذهب الدكتور « بر » بصورة محورة أسقف يدعى الاسقف « كينر » Bishop Keener من « مجلس الكنيسة العادية الاوكومونى » في واشنطون سنة ١٨٩١ . ففي إحدى خطبه التي وصفتها الجرائد بأنها خطبة عظيمة ، رفض الاعتقاد بمذهب النشوء بقوله إن على النشوئيين « أن يسافروا اثنى عشرة ساعة من المكان الذي يجب

فيه ليروا عظام الأوبوسوم والكبروليب (١) coprolite والاخثيوسور معاً في مكان واحد » . ولقد أكد أن أغاسيز — الذي ظن الاسقف وغيره من رجال الدين خطأ أنه نشوئي — عند مزار القيعان التي تتضمن هذا النظام قال — « إن هذه القيعان القديمة قد هوشت رأسي . لقد هدمت بنظرة واحدة ما بنيته في عمر كامل » . ثم انتهى الاسقف العمادي بان قال — « والآن ، أيها السادة ، وأيها الاخوان ! انقلوا هذه الحقائق معكم الى دوركم ، ثم تبصروا فيها . تلك هي الساعة التي كانت تمت المطرقة البخارية . تلك هي نظرية النشوء ، وما المطرقة البخارية إلا رواسب قيعان آشلي » .

على أن مثل هذه المظاهرات لم تجد إلا قليلا ، فانه بينما كان هذا الاسقف العمادي يعرض نفسه لابتسامات السخرية بأن جعل أغاسيز من النشوئيين والكبروليت حيوانا — كان رجال العلم يستجمعون في كل أنحاء العالم حقائق تؤيد نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعي . ففي الوقت الذي أحاط فيه اللاهوتيون دكتور « بر » بهالة من المديح والثناء لانه « آذى بنظريته النشوء الى الكلاب » كان الاستاذ « مارش » في جامعة « يال » يتم سلسلة الحلقات التي تظهر صلة النسب بين الحصان وبين حيوان من ذوات الاظلاف ذي خمسة أصابع . وفي الوقت الذي كان فيه دكتور « تيلور » « Tayler » في « يونيون » ودكتور هودج ودكتور دوفيلد في برنستون كانوا دائبين على اظهار أن النشوء اذا صح انتفت الحكمة من الطبيعة ، كان أستاذ جامعة « يال » — مارش — دائبا مجدا في إظهار آثار الصور الكريتاسية » ومن بينهم الاسبرورنس « Hesperornis » والاخثيورنيس « Ichthyornis » ذوي الأسنان المنشارية . وبينما كان لونهارد

---

(١) corpolite أصلها يوناني من لفظين kopros أي روث و (lithos) أي حجر ، ومعناها الروث المتحجر . ويعرف الجيولوجيون بهذا الاصطلاح بصرف على روث الحيوانات بعد استحجاره ومنه يستدلون على نوع الطعام الذي كان يأكله الحيوان الذي خلفه اذا كان دقيقا ، فاذا كان كاملا أمكن الاستدلال به على شكل المعدة والمعى

وشاند وأنصارهما في ألمانيا يقولون بأن الكتب المقدسة تتطلب اعتقاداً ثابتاً في صحة الخلق الذاتي المستقل ، استكشفت آثار طير « الارخيوبتري » « Archeoptryx » - التي أظهرت بجلاء العلاقة الكائنة بين الزواحف والطيور. وبينما انصرف مسيو « سيفور » وانصاره في فرنسا الى حملات جدلية يرجعونها الى شخص « يدعى داروين » - كان الاستاذان جودري وفلهول مجدين في استكشاف عدة « حلقات مفقودة » تربط بين الحيوانات المفترسة .

أما فيما يختص بالبراهين التي كانت تستجمع لتأكيد النظرية الحديثة في النشوء ، فان التغير في نغمة اللاهوتيين أزاءها قد أصبح سريعاً . ولقد ارتفعت الاصوات من كل صوب طالبة البحث عن طريق للتوفيق . أما المستمسكون بالنص الحرفي للأناجيل فاستمروا يلجؤون الى آيات سفر التكوين التي نصت على أن الارض والبحار انما صنعن لتخرجن طيوراً واسماكا ، وان الانسان انما خلق من تراب الثرى . على أن هنالك بعض رجال خصوا بسعة في المدارك ونفاذ في البصيرة أمثال « كنجسلي » Kingsley و« فرر » Farrar وغيرهما من مستنيري رجال الكنيسة في انجلترا وأمريكا لم يتباطؤوا في أن يعلنوا انضمامهم الى داروين . ناهيك بأن « هويل » (Whewell) نفسه قد حاول أن يظهر أنه ربما يكون هنالك شيء من الصحة في البراهين الداروينية يدل على أنها كانت من مناصب الخلق في الطبيعة . أما المحترم « صموئيل هوتون » S.Houghton عضو الجمعية الملكية ، فقد اقترح فروضا يعبر بها عما يمكن أن يكون في الخلق من أثر القصد القدسي في النشوء

كذلك نجد أن الكاتبين الانجليزيين قد قبلنا التعاليم الجديدة على أنها أشياء ثابتة . ففي اكسفورد وفي اجتماع رجال الكنيسة العليا في جامعة « كيبل » أعلن في خطاب جامع أن مذهب النشوء « خطوة إلى الأمام في سبيل التفكير اللاهوتي » . أما تمبل « Temple » أسقف لندن ، ومن المحتمل أنه كان أكبر نقاد المفكرين من رجال الكنيسة الانغلسكانية في عصره فقد قبل مذهب النشوء في هذه الكلمات : « إنه لأكثر جلالا وأليق

بقدرة الله الذى الف سنة عنده بمثابة أمس الذي غبر ، أن يكون قد دمغ ارادته الأبدية أولا وآخرا دفعة واحدة فى جبين خلقه ، وهيأ لظهور كل ضروب التباينات الخلقية اللامتناهية بفضل ذلك الطابع الأصلى الذى دمغ به الخلق ؛ من أن يكون قد أحدث الخلق بعدة أفعال مستقلة اضطر فيما بعد أن يغير من أوصافها ويهذب من تراكيبها تتابعاً » .

أما في أيقوسيا فان الدوق « أرجيل » رئيس الحزب الأورتوذوكسى وإمامه الأوحد ، فعلى الرغم من أنه أبدى نفورا من كثير من النتائج التي وصل اليها داروين ؛ فانه سلم بكثير من الأشياء التى زعزعت المعتقد القديم وصدعت كثيرا من أركانه .

ومن أعجب العجب أن يرتفع من جانب الكنيسة الرومانية ، على الرغم مما أظهر بعض كتابها من عداء ومرارة ، صوت يحاول اثبات أن المعتقد الكاثوليكى لا يصد أى انسان عن الاعتقاد بالنظرية الداروينية ، وعلى الأخص تلك الاذاعة التى أعلنها ثقة ثبت من كاثوليكى أمريكا — فى أن « نظرية النشوء لا تعارض مذهب الكنيسة الكاثوليكية بأكثر مما يعارضه مذهب كوبرنيكوس ومذهب غاليليو » وهذا القول على الرغم مما فيه من غرابة الوقع ، لا يصح لنا أن نزل من قدره أو نغض عن نواحى الخطاء الكامنة فيه .

ولقد تقدم رجال عن كان العلم زوجاً بالاعتبارات اللاهوتية طابعهم ، أمثال دوسون ومفارت وويجاند ، يحدوهم حاولوا من جهتها الوقوع على سبيل للتوفيق بين الناحيتين . غير أن التيار كان شديدا حتى أن كثيرا من مشهورى رجال اللاهوت فى كل قطر من الأقطار قبلوا مذهب الانتخاب الطبيعى باعتباره ، على الأقل ، عامل هام فى ميكانيكية النشوء .

ولما مات « داروين » شعر كل الناس بأنه لا يوجد فى انجلترا من مكان يصح أن يضم جثمانه إلا مكان واحد ، وأن هذا المكان هو الموقع التالى لقبر « اسحاق نيوتن » فى كنيسة وستمنستر . أما الخطاب الذى فاه به

الأسقف « فرر » — Farrar — فقد تجاوبت بمعانيه أصداء المنابر في أوروبا وأمريكا؛ حتى لقد اعتبر أنه آخر ضربة وجهت إلى روح العداء اللاهوتي لمذهب النشوء. على أنه تظاهرت بين آونة وأخرى مظاهر من الشعور القديم؛ فإن المحترم دكتور لينج — Dr. Laing — قد أشار إلى دفن « داروين » في كنيسة وستمنستر فقال: — « إنه برهان على أن انجلترا لم تصبح بعد بلاد نصرانية » ، وأضاف إلى ذلك أن دفنه فيها كان تدنيسا — وأن هذا الشرف لم ينله « داروين » إلا لأنه كان « الزعيم الذي قام بنشر المذهب الحيواني في نشوء الأنواع وتسلسل الإنسان عن القرد » .

هنالك ظهر نبي آخر من أولئك الأنبياء المخدوعين، ممثلا في شخص « توماس كارليل » . فإنه بما شعر في قرارة نفسه من حقد ومرارة شبيهة بتلك الروح التي حملته على أن يجد في أخلاق مثل « مكنيج » ، أو في قائد من قواد فردريك الأكبر، من الشجاعة والشهامة أكثر مما وجده في وشنجطن أو لنكولن أو جرانت، والتي جعلته يرى في الحرب الأمريكية الأهلية « انفجارا عن دخان تقذف به مدخنة متهدمة » ، قد هاجم « داروين » قائلا إنه « رسول عبادة القردة » .

أما الأصداء الأخيرة فقد ترددت بين أستراليا وأمريكا. ففي الأولى — في سنة ١٨٨٥ — ظهر المحترم دكتور « لي » — Dr. Lee — معلنا أن مذهب داروين إذا كان صحيحاً فإنه — « لا يكون هنالك من مكان لله » . وأنه — « لا يمكن بأي أسلوب من أساليب التفسير أن نؤول لغة الكتاب المقدس لتوسع مجالا للقول بقرابة « الأورانأوتان » في تاريخ الإنسان الطبيعي » — وأن « المذهب الداروني ينقلب بوحي الله رأساً على عقب » وأنه « يتضمن نوعا من العصيان الصريح بأقدس الديانات الإنسانية والأنظمة المنسوبة إلى الله المبدع » . واحتج بعد ذلك بأن مذهب داروين وأتباعه بأنهم « مبشرو البلاليع القذرة » . ولقد ظهر في إحدى الدوائر الفكرية الأمريكية أحد محرري المجلات، وكان محرر المجلة المسماة « النصراني » — The Christian — فقال مقتنعا في حرارة بأن — « المعركة يجب أن يتقدم أنصارها ليرى الناس الفريقين: من منهما في جانب الله، ومن في جانب القردة والشياطين » .

ويجب علينا أن نثبت هنا أن للكنيسة الانجليزية الشرف الأكبر حيث قاوم عدد كبير من مشهوري رجالها مثل هذه الترهات المسفة . ويكفينا أن نذكر واحداً منهم هو «فرر» رئيس اساقفة وستمنستر ، إذ اعترض على هذه الاقوال وأمثالها في كلمات جديرة بأن يكرر ذكرها على الدوام؛ ففي حين أنه اعترف بعدم قدرته على قبول المعتقد العلمي قبولا كاملا – قال – «يجب أن نعتبر أنه مما لا يليق بالكرامة ، بل مما هو مزر بالنفس ، ان نحاول جاهدين أن نهز أسس المعتقد العلمي الحديث ببراهين خطابية منقولة ، او بأن نستعطف من فوق المنابر جماعات بلغوا من الجهل ابعد المبالغ واستحكمت في صدورهم العداوة لاهل العلم الى غير حد . إننا يجب أن نخجل من أن نواجه مثل هذه الحالة بالاستهتار أو بابتسامة تحقير» .

على أن كل ضروب المقاومة لم تجد فتيلا . فإن مؤلف داروين وصيته كلاهما كان بمأمن عن التصدع . ولما رجع الناس الى تاريخ حياته التي قضاها في بساطة وأمانة وتسامح وعطف انساني ، وعاودتهم ذكريات الجهود العظيمة التي بذلها في سبيل البحث عن الحقيقة ، تبخرت كل صنوف العداء وذهبت بدداً.

على أننا في هذا التاريخ لا يجب أن نهمل ذكر بعض نقط سوداء تزداد سواداً على مر الازمان . ففي كلية «التثليث» في كمبردج حظر «هيوويل» Whewell «الحكيم الكلي الحكمة» ومؤلف الكتاب الجليل «تاريخ العلوم الاستقرائية» أن توضع نسخة من كتاب «أصل الانواع» في المكتبة . كذلك نقع في كثير من المعاهد التي كانت تحت حكم اللاهوتيين بروتستانت وكاثوليك، على محاولات أريد بها حظر التعاليم النشوئية أو تحقيرها . ولقد انتشرت هذه الروح زماناً في امريكا . وإن حادثة الكلية الامريكية في بيروت بسوريا والتي طردت كل الاساتذة الذين ساروا العصر الحديث بانضوائهم تحت لواء داروين ، لجديرة بأن نعيد ذكراها . أما المعاملة التي لقيها الدكتور «ونشل» في جامعة «فاندربلت» بتنيسي ، فقد ظهرت فيها مثل هذه الروح . فانه على الرغم من أكبابه على العلم وتعمقه فيه ، وعلى الرغم من أنه كان بجانب هذا

ذا مشاعر نصرانية عميقة، فإنه طرد من الجامعة لأنه أبدى آراء تقوم على أساس النظرية الداروينية.

وعلى هذا كانت الحال مع دكتور «وودرو» — Woodrow — فإنه حوالى سنة ١٨٥٧ عين أستاذاً للعلم الطبيعي من حيث علاقته بالدين المنزل، في المعهد المشيخي بكولومبيا في كارولينا الجنوبية. وكان رجلاً نصرانياً مخلصاً للنصرانية، كما أن تعليمه قد قاده إلى انتحال المذهب المشيخي في الدين. ولما تزود بقدر كبير من المقدرة على الدرس العلمي وزار أوروبا، وأكب على دراسة المسائل الأساسية في العلم والتي كانت موضع السجال والمناقشة في ذلك الحين، فاعتنق عن يقين وعقيدة المبادئ الأساسية في التطور على قاعدة الانتخاب الطبيعي. على أنه سرعان ما اصطدم أوار حركة كبرى، فإن حركة معادية له أخذت في الظهور والتكون شيئاً بعد شيء، حتى أنه على الرغم من الجهود التي بذلها في سبيله مديرو المعهد وأساتذته وأقلية من رجال المذهب المشيخي نجحوا بعد الجدال والمباحثة الحكيمة في صد هوج رياح الحماقات التي أثارها رجال من مختلف المعاهد المشيخية، أقصته عن مركزه العلمي

إن هذه التجربة التي جربتها الأذهان في كل الولايات الأمريكية، قد رنت أصداؤها في جو الممالك الأسبانية. ففي سنة ١٨٧٨ نشر أستاذ من رجال المستمسكين المشتغلين بالعلم، هو الدكتور «تشيل إي مارانجو» — Dr Chil y Marango — مؤلفاً عن جزر الكناري. غير أن الدكتور «تشيل» لسوء حظه قد ضمن مقدمة الكتاب استعراضاً لأحدث النظريات في التطور، وذكر بعض البراهين التي عثر بها في جزيرة الكناري عما كان في الأزمان القديمة من تربية الإنسان البدائي. ولقد قرعت السلطات الكنائسية، وعلى رأسهم الأسقف «أوركوينا وإي بيدو» — Urquinaona y Bidot — من الأسقفيات المقدسة، وحملها في حماسة أن تصدر قراراً بالخروج عن التقوى؛ ولما صدر هذا الأمر إلى كل الذين كانوا يحوزون نسخاً من الكتاب أن يسلموا كل النسخ إلى المجمع للسلطات الكنائسية، كما طرد المؤلف من حظيرة الكنيسة.

غير أن هذه الصور الظالمة يمكن أن تعتبر آخر صور الظلم التي أدانت

النظرية اللاهوتية ورجالها. والدليل على هذا أن جامعة واشنجطون الحديثة بأمريكا قد أعلن من ناحيتها أقوال تؤيد النظرية الجديدة، كما أن جامعات كثيرة في العالمين القديم والحديث قد تقبلت نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعي وأكب رجالها على المذهب يدرسونه بما يستحق من العناية والتقدير. وفضلاً عن هذا فانه من الظاهر الجلي أن رجال الكنيسة العظام لم يقفوا عند تفاسيرهم التي دارت ضد العلم، بل عملوا في أمانة واخلاص لكي يضعوا قواعد جديدة للتوفيق بين الناحيتين. ففي محاضرتين، طهامنزلهما ونظرهما ألقاهما في كنيسة «روتشدايل» سنة ١٨٩٢ المحترم «ولسون» (Wilson) رئيس أساقفة مانشستر، أعلن عن تقبله المذهب الدارويني باعتباره مذهباً صحيحاً، غير أنه حاول أن يصله بوجهة النظر النصرانى، معتمداً على قوته في الشرح والتعبير. ولقد نشرت هذه الخطب على نفقة نفس الجمعية التي كانت منذ عهد قريب تنشر أمر ما كتب ضد النظرية الداروينية وهي، «جمعية تقدم المعارف النصرانية». كذلك نرى انه في خلال سنة ١٨٩٣ كون البروفسور «هنري درموند» الذي يحترمه كل رجال الكنائس المنشقة، وجهة من النظر مصبوبة في قالب جميل من قوة الفكر ألقاها في مجموعة من المحاضرات في مدارس «شوتوكا» الامريكية، ونشرت في احدى الصحف الارثوذوكسية الواسعة الانتشار.

مهما يكن من أمر العوامل التي يمكن اضافتها الى الانتخاب الطبيعي – ولقد سلم داروين نفسه بانه من الممكن أن تكون هنالك عوامل أخرى تؤثر في نشوء الانواع – فان نظريته في النشوء الكوني ونشوء الصور الحية قد وضعت وثبتت قواعدها. كما أن نظرية الخلق المستقل القديمة قد اضمحلت وفنيت من عالم الفكر الانساني. ولقد يبدل الانسان منها بما أوحى العلم الحديث من تصورات ثابتة أبعد مدى وأقل سداً. فتح الباب لتكون فكرة في «القصد والغاية» أجمل من كل الفكرات التي كونها التصور اللاهوتي على مدى الازمان.

القاهرة في ٥ يناير سنة ١٩٣٠